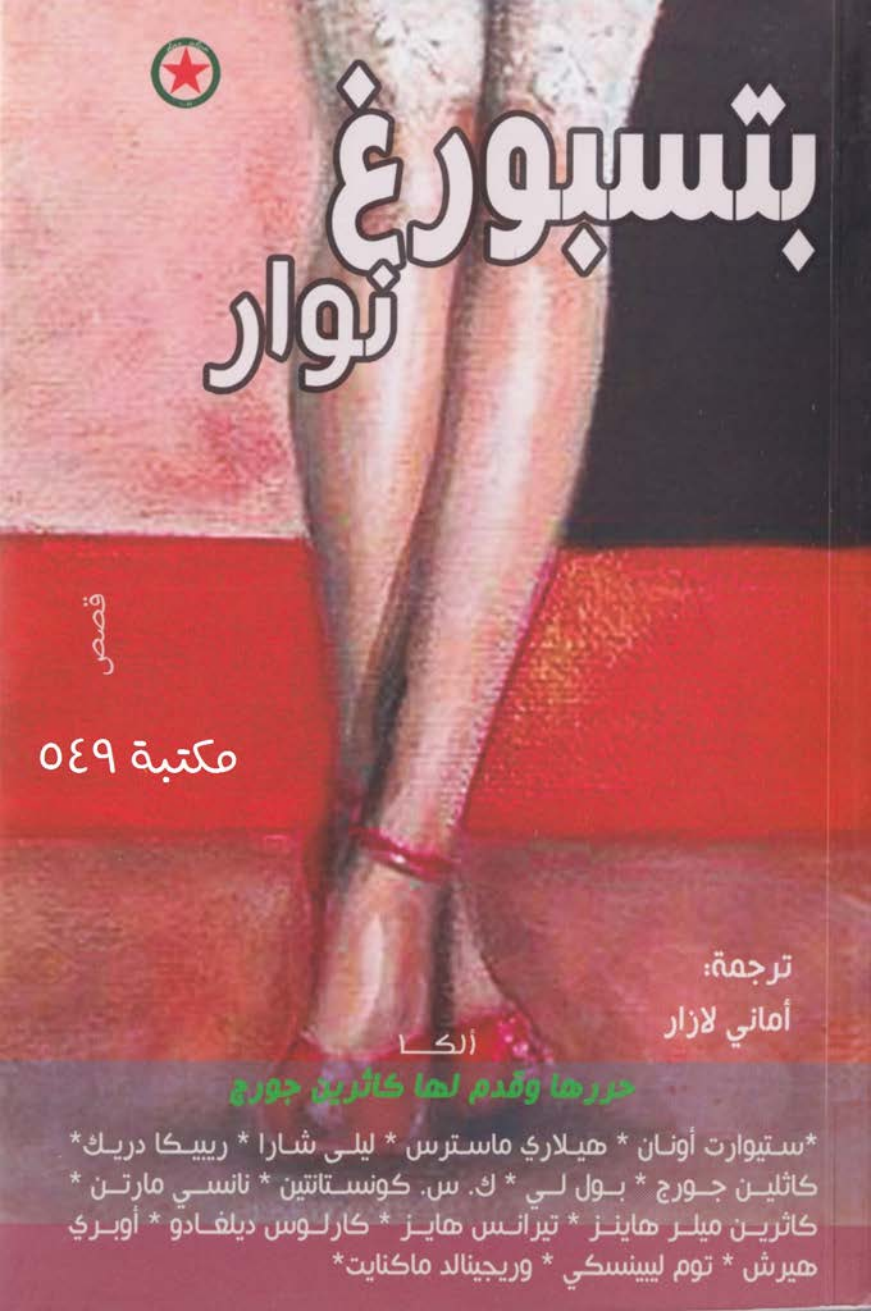

بتسبورغ نوار

قصص

مكتبة ٥٤٩

ترجمة:
أماني لازار

ألكا

حررها وقدم لها كاثرين جورج

*ستيوارت أونان * هيلاري ماسترس * ليلى شارا * ريبيكا دريك* كاثلين جورج * بول لي * ك. س. كونستانتين * نانسي مارتن * كاثرين ميلر هاينز * تيرانس هايز * كارلوس ديلغادو * أوبري هيرش * توم ليبينسكي * وريجينالد ماكنايت*

بتسبورغ نوار

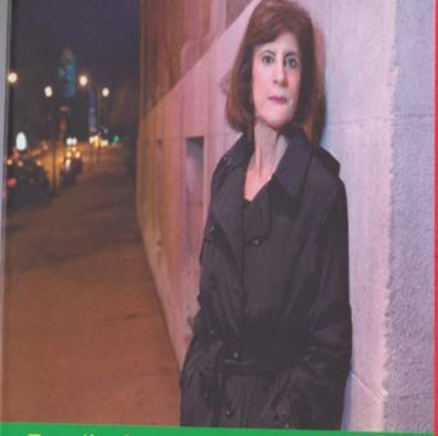

كاثلين اليزابيث جورج (مواليد 7 يوليو 1943) كاتبة أمريكية اشتهرت بكتابة سلسلة روايات بوليسية وروايات جريمة تدور أحداثها في بتسبرغ. في بنسلفانيا. ولدت في جونستاون، ولاية بنسلفانيا وتلقت تعليمها في جامعة بيتسبرغ: كتبت مجموعة من الروايات منها الرجل في بويك وقصص أخرى، في العام 1999، المأخوذة في العام 2001، السقوط في العام 2004، بعد الصورة في العام 2007، الصعاب في العام 2009، المخبأ في العام 2011، البسيط في العام 2012.

تقول محررة الكتاب في هذه القصص سوف نحملك إلى بلومفيلد، إلى حي اشوارع الحرب المكسيكية، فوريست هيلز، بلدة فوكس تشابل، حي شنلي فارمز التَّاريخي، كاريك، ماكيزروكس،هايلاندبارك،وهومرسي غيررسمي وغير معروف إلى حدٍّ ما، ويلكنسبورغ، إيست ليبرتي، مورنينغساید، سكويرل هيل، لاورانسفيل وهوموود.

هيا بنا إلى الأسود والذهبي، إلى مقاطعة أليغني، مونوغاهيلا، وأوهيو، إلى جونيس سولك وتوماس ستارزل، إلى شطائر بريمانتي وإلى الكنائس التي تبيع فطائر البيروجي، إلى كل مكونات بيتسبورغمن كتاب هذا الكتاب توم ليبينسكي الفائز بجائزة شيموس، والشَّاعر الحائز على العديد من الجوائز تيرانس هييز الذي يظهر مقدرته على كتابة الأدب القصصي أيضاً.

كتاب قصص الجريمة في هذا الكتاب هم ستيوارت أونان، هيلاري ماسترز، وريناله ماك نايت، وقد فعلوا ذلك بأساليب مميزة مستخدمين الكوميديا السوداء، ليلاشارا، ريبيكا دريك، نانسي مارتن، وكاثرين ميلر هاينز، جميعهم ينشرون قصص الجريمة بانتظام ويتلقون الإشادة من قبل النقاد. تأتي ثلاث قصص من أصوات جديدة مشوقة توسع أفق النَّوع: بول لي، كارلوس أنتونيو ديلجادو، وأوبري هيرش

9

بتـــورغ نوار

ألـــكا

تحرير:

كاثلين جورج

بتسبورغ نوار

الجرائم الليلية السوداء

ترجمة: أماني لازار

ألكـا

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٧ دار ألكـــــا - بلجيكا

مكتبة ٣ ٢ ٢٠٢٠

Edited by Kathleen George

Pittsburgh Noir

Original text copyright © Akashic books 2011

Originally published in English by Akashic Books, New York

(www.akashicbooks.com)

Arabic translation and publishing © Alca Books 2017

ISBN: 9781 77322 494 7

كاثلين جورج

بتسبورغ نوار

ترجمة: أماني لازار

الطبعة الأولى ٢٠١٧

تصميم الغلاف والإخراج الفني: ألكـــا

توزيع: دار الرافدين

ALCA BOOKS

Chaussée de Haecht 57

Saint Josse

Bruxelles/La Belgique

www.daralca.com/ info@daralca.com

مكتبة
t.me/t_pdf

تحتوي هذه المجموعة على أعمالٍ أدبية. جميع الأسماء، الشَّخصيات، الأماكن، والأحداث من نسج خيال المؤلفين. أي تشابه مع أحداث حقيقية أو أشخاص، أحياء أو أموات، هو محض صدفة كلية.

مقدِّمة

أخلاقيات خاصَّة، قانون خاص

في عام ١٩٩٦، كنت أنا وزوجي في إجازة «ساباتيكال»[١] في جنوب فرنسا. وكان فريق كرة قدم من بيتسبُرغ (الستيلرز)[٢] يشارك في بطولة «السُّوبر بول». كيف لنا أن نفوِّت ذلك؟ عثرت على بار في موناكو يدعى «لو تيكسان». لسوء الحظ، كان فريق «الستيلرز» يلعب ضدَّ فريق «دالاس كاوبويز» في ذلك الحين، لذا عندما وصلنا إلى البار، كان المكان يعجُّ بصخب مؤيدي الفريق الآخر[٣].

وقف رجل ثمل وقال:

«هل سمع أحدكم يوماً بأمر جيد يخرج من بيتسبرغ؟»

كان المكان صاخباً للغاية فلم يتمكَّن من سماع جوابي.

كانت خسارة ينبغي أن تكون فوزاً/ أمكن لها أن تكون فوزاً.

غالبية سكان بيتسبُرغ مهووسون بالرياضة. تحدَّى واحداً من أهالي بيتسبُرغ، وسوف تسمع عن عدد النِّقاط التي سجَّلها «بيل مازيروسكي» الذي كسب بطولة سلاسل العالم ١٩٦٠، التقاطة الكرة المعروفة «بالالتقاطة الطَّاهرة»، التي حققها «فرانكو هاريس» وهو أحد لاعبي فريق الستيلرز، عام ١٩٧٩ الرائع، وفيه كسب فريق البايرتس بطولة سلاسل العالم، وكسب فريق الستيلرز كأس السُّوبر بول. تعرض فرق البايرتس، الستيلرز، والبنجوينز مواقفنا الدِّرامية الشَّخصية. لم يبدُ

---

١ - وهي إجازة تمنح لأساتذة الجامعة.

٢ -Steelers: أي الأشخاص الذين يعملون في صناعة الحديد الصلب، الفولاذ.

٣ -أناس يرتدون قبعات Stetsons وهي القبعات التي يرتديها عادة رعاة البقر.

ممكناً من ثم فعلها. أو: عرض الغضب ذاك كان الأمر الذي قلبه رأساً على عقب. أو: يتقاسمون جميعاً تحمُّل المسؤولية فيكتسبون ثقة كبيرة في أنفسهم. توفِّر الرياضة كل أنواع السَّرد الممكنة. والأفضل من بينها هي قصة المستحيل، قصة الخاسر الذي يقاتل ويكسب.

لبيتسبرغ قصتها الخاصة: بنيت حول ثلاثة أنهار، أصبحت مركزاً مزدهراً لصناعة الفولاذ، وجذبت الكثير من المهاجرين للعمل في المعامل. تشكل الاشتباكات بين أرباب العمل والعمال جزءً من تاريخها، ربما الأكثر بروزاً من بينها إضراب عزبة الفولاذ (Homestead Steel Strike) حيث دافع العمال عن حقوقهم عندما خفضت أجورهم. لكن الإضراب لم يحقق أهدافه.

الإدارة كسبت. عاشت هنا عائلات الصناعيين كارنجي، فريك، ميلون، وامتلكت ثروات طائلة. نشد الايطاليون، التشيك، البولنديون، وآخرون السَّلوى في أحياء كانت أشبه بقرى ضمن المدينة. لا تزال الأحياء تحمل علامات مؤسسيها في الكنائس، البارات، والمطاعم التي لا تزال موجودة. هناك بلدة «بلومفيلد» الإيطالية والتلة البولندية «بوليش هيل».

عندما تعثَّرت تجارة الفولاذ واندثرت، أعادت «المدينة الدخانية» إحياء نفسها باعتبارها موقعاً مدنياً لأصحاب الياقات البيضاء أو (موظفي المكاتب)، المتخرجين من جامعاتها المزدهرة. كانت مكاناً حالك الظلمة بالتلوث أيام ازدهار صناعة الفولاذ، حيث كان الرجال يحملون قمصاناً نظيفة معهم إلى العمل لكي يغيروا ملابسهم أثناء النهار. الآن يمكنك أن ترى التلال، الأنهار، الأفق المتواتر-ولما كانت آلات التصوير مولعة بعرض الأحداث الرياضية، لذا المدينة الآن متألقة وجميلة.

كل من ينتقل إلى بيتسبُرغ يكتشف بسرعة كبيرة أنها تفخر بانخفاض أسعار العقارات الأساسية، بثلاثة أنهار جميلة، متنزهات ونصب تذكارية، جامعة عامرة وحياة ثقافية، مراكز طبية هامة، وأحياء متراصَّة. لقد أطلق عليها أكثر من مرة لقب أكثر المدن الأميركية القابلة للحياة. مع ذلك، فإن الشُّبان الذين ترعرعوا هنا،

أخذ بهم الملل وانتقلوا إلى مكان آخر. يقرر السُّكان الجدد القادمون من أجل العمل أو الدراسة البقاء غالباً، متفاجئين بما يجدونه. يشعر سكان سابقون بتوق شديد ويعودون. (عاد المساهم ستيوارت اونان، وكذلك هيلاري ماسترز، وهي واحدة ممن اكتشفوا المدينة وأقاموا فيها).

ماذا تعني بيتسبُرغ لأسلوب النوار أو قصص الجريمة السوداء، وماذا يعني أسلوب النّوار الجريمة السوداء لبيتسبُرغ؟ نحن لدينا بالتأكيد شوارعنا الوعرة وجرائم القتل المروعة. لكن قصص الجريمة السَّوداء تعتمد على شيء آخر يضاف إلى القتل. تدور أفضل الأمثلة على هذا النَّوع (الأسلوب) حول أخلاقيات خاصة وقانون خاص، هي قصص الناس الذين يجترئون على الواقع أو على عسفٍ متخيل. في «بيتسبُرغ نوار»، كما في معظم الروايات والأفلام التي تمنح النوع اسمه، القصة الحقيقية هي الجانب المظلم الرخو من الوجود، الخوف والشُّعور بالذنب والعصيان والرفض لدى الناس العاديين: المرأة تشتري البقالة، الرجل يشوي السُّجق السَّاخن. حيواتهم السِّرية.

أودُّ أن أشكر ماري أليس غورمان من مكتبة «عشَّاق الغموض» في بيتسبرغ، فقد حفَّزتني على القيام بهذا المشروع. كما أودُّ أن أشكر المساهمين الذين انضموا إلي.

لقد تلقَّفت قصَّة من القصَّاص (والمغفل الاسم، يكتب بأسلوب بنشن «توماس بنشن») ك. ك. قسطنطين، بالإضافة إلى قصَّة من قصص «توم ليبينسكي» الفائز بجائزة شيموس، والشَّاعر الحائز على العديد من الجوائز «تيرانس هييز» الذي يظهر مقدرته على كتابة الأدب القصصي أيضاً. دعوت عدداً من كتَّاب الأدب المهمين ليتحولوا إلى كتابة قصص الجريمة وهم: ستيوارت أونان، هيلاري ماسترز، ورينالد ماك نايت، وقد فعلوا ذلك بأساليب مميزة مستخدمين الكوميديا السَّوداء. لن تكون أي مجموعة من بيتسبرغ مكتملة دون مشاركة ليلا شارا، ريبيكا دريك، نانسي مارتن، وكاثرين ميلر هاينز، جميعهم ينشرون قصص الجريمة بانتظام ويتلقون الإشادة من قبل النُّقاد. تأتي ثلاث قصص من أصوات جديدة مشوِّقة

توسِّع أفق النَّوع: بول لي، كارلوس أنتونيو ديلجادو، وأوبري هيرش.

سوف نحملك إلى بلومفيلد، إلى حي (شوارع الحرب المكسيكية)، فوريست هيلز، بلدة فوكس تشابل، حي شنلي فارمز التَّاريخي، كاريك، ماكيز روكس، هايلاند بارك (وهو مرسى غير رسمي وغير معروف إلى حدٍّ ما) ويلكنسبُرغ، إيست ليبرتي، مورنينغسايد، سكويرل هيل، لاورانسفيل وهوموود.

هيا بنا إلى الأسود والذهبي، إلى مقاطعة أليغني، مونوغاهيلا، وأوهيو، إلى جونيس سولك وتوماس ستارزل، إلى شطائر بريمانتي وإلى الكنائس التي تبيع فطائر البيروجي، إلى كل مكونات بيتسبُرغ.

كاثلين جورج

بيتسبورغ، ب آ

آذار ٢٠١١

هواء ساكن

تيرنس هايز

تيرينس هايز الحائز على جائزة ناشيونال بوك في الشِّعر لعام ٢٠١٠. مجموعته الأخيرة هي «لايت-هيد». أصدر أيضاً «ريح في صندوق»، «موسيقى قوية»، و«منطق عصري». يتضمن تكريمه بعد أربع مجموعات من أفضل القصائد في الشعر الأميركي، جائزة وايتينغ رايترز، منحة وطنية لزمالة الفنون، وزمالة جوجنهايم.

يدرس حالياً الكتابة الإبداعية في جامعة «كارنيجي ميلون» ويعيش في بيتسبرغ.

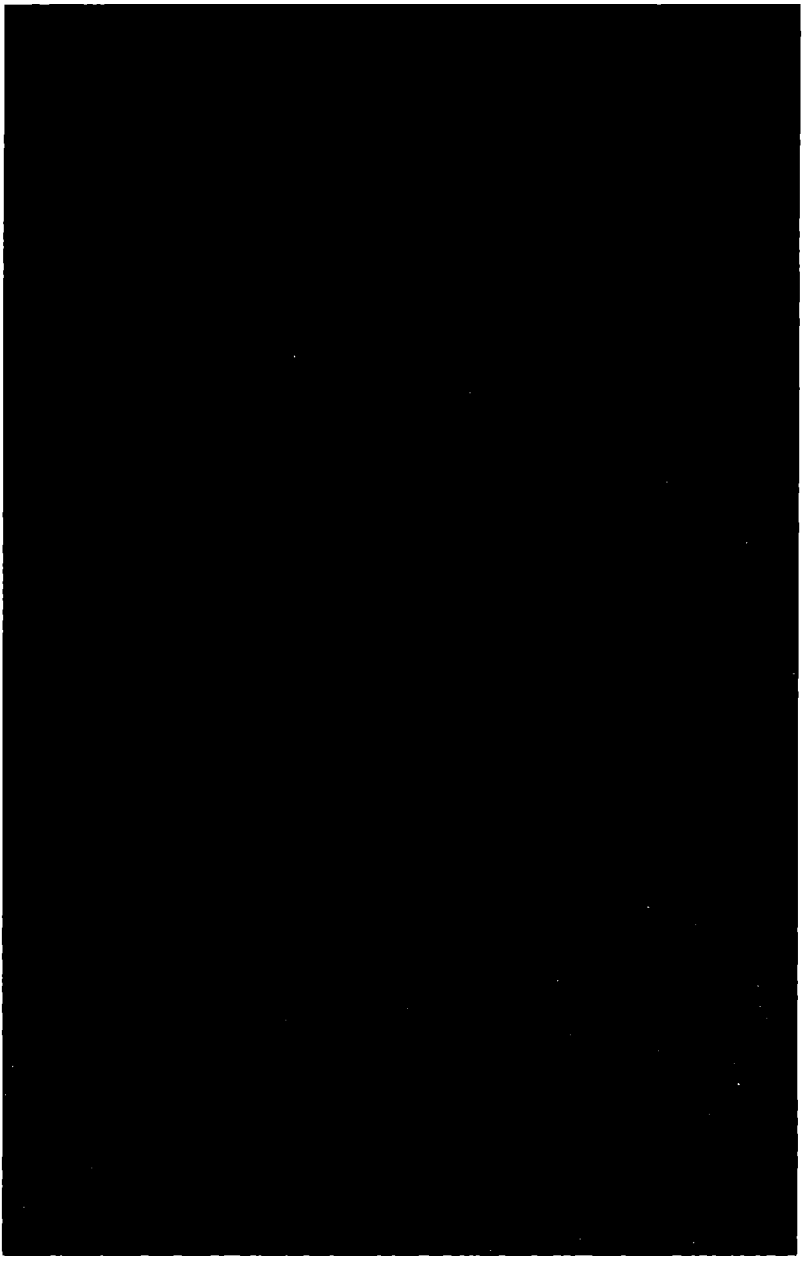

كانت الشَّائعات تروج في حيِّنا صباح اليوم التَّالي لمقتل «آمب». لم نكد، أمي وأنا، نجتاز شارعاً واحداً حتى قال أحد العابرين مطلقاً صفيراً تقريباً: «هل سمعتما عن مقتل الزنجي آمب، برصاص بعض رجال العصابات؟»

قال شخص آخر حاملاً الأخبار مثل كيسٍ من الآجر: «محزن ما حدث لذلك الفتى الذي سلب الليلة الماضية».

ومن لم يعرفوا آمب أو أقاربه، قالوا: «أعرف أمه». «عرفت والده».

تبطَّلت شائعات في زحمة حركة السَّير البطيئة، الأثرياء من «فوكس شابلر» ومن «آسبينوول» الذين قادوا عبر نهر «آليغني» نحو ما كان يشكِّل خندق متاعبنا المائي الصَّغير: «بين سيركل»، الطريق الذي يعقد «ايست ليبرتي» مثل أنشوطة.

سرت أكاذيب، ثرثرة، هراء، حقائق منقوصة، تم تناقلها في المدرسة وفي حافلات المدينة. سمع «بومبانو» أن من قتلا آمب كانا رجلين من ذوي البشرة البيضاء، ربما من الشُّرطة السِّرية. قالت شيليا وهي تمر بصحبة صديقاتها إنها سمعت أصوات طلقات نارية وصراخ. ثرثرت مشيرة بإصبعها نحوي مثل ماسورة بندقية: «خرج آمب يطلق الشَّتائم كما لو أنه بلطجي حقيقي». ضحكت صديقاتها كما لو أنها لم تكن تتحدث عن شخص قتل بالفعل، أعني أن آمب كان قد فارق الحياة والناس كانوا يلوكون اسمه كما لو أنه لم يسبق أن كان حياً ذات يوم.

لهذا السَّبب لم أرغب أن يطلق عليَّ أحد لقباً قط. حسناً هذه ليست الحقيقة بدقَّة. يطلق عليَّ معظم الناس لقب «ديماريو»، لكني لطالما كنت أسمح لستار أن تناديني بـ «سمكة» بعض الأحيان. كانت جدتي تناديني سمكة، «سمكتها

الصَّغيرة»، مع أني كنت أطول منها قامة عندما كان عمري أربعة عشر عاماً. حتى أني لم أعرف اسم آمب الحقيقي. ربما سمعت مدرساً ينطق به عندما كنَّا في روضة الأطفال، في «ديلورث». «آنتوني توكر» و«آندرو تروتر». المدرسون في الصَّف الأول وحتى المديرة بول بنظاراتها السَّميكة وذلك الحزام الذي يعصر بشدة طقمها الرمادي المكون من بنطال وسترة، نادوا آمب بهذا الاسم، كان الاسم الوحيد الذي استجاب له.

برغم ذلك، كي أكون صادقاً معكم، حقاً ليس في وسعي القول إنه كان صديقي، هو لم يتواجد يوماً في الصَّف إلى حد كبير، من ثم ترك الدِّراسة في السَّنة الثانية من المرحلة الثانوية. قالت ستار إنَّ ذلك كان لرغبته في الحصول على عمل حالما علم بحملها، لكني أظن أنه كان سيفعل بكل الأحوال. أمضى أيامه على الناصية خلف صيدلية «ستانتون». كان دوماً هناك يرتدي بنطال جينز جديد للغاية، بدا كما لو أنه لم يغسله بعد. حذاء خفيف جديد، قميص رياضي خاص بالمحترفين- قال الناس إنه يملك قمصان لاعبي فريق «السيتلرز» جميعهم تقريباً. قد يخيل إليك أنه كان هناك يلوح ببذاءته في وجهي أو يناديني بالمهرج، لكني لا أظن أنه قد انتبه لي يوماً. كان لينظر مباشرة من خلالي، يناديني بالشَّاب، حتى وإن كنا متساويين في العمر.

ومرة باعني مطرقة، صدقاً. كانت في حقيبة الكتب على كتفيَّ ذلك الصَّباح. بل حتى أكثر جنوناً، باع أمي شاقولاً كبيراً يصل طوله أربعاً وعشرين بوصة. لن أعرف كيف أقنعها بشرائه قط. لكن هذا ما فعله-أو ما كان يفعله في الشَّهرين الأخيرين. انتشر الخبر وكان الناس يشترون منه التوافه، معظمهم من الرجال المسنين ممن يحاولون كسب قوت يومهم بالقيام بعمل مفيد أو أي يكن في «هايلاند بارك». كان ليصحبك إلى الناصية، إلى عربة بقالة مليئة بالأشياء. رأيت ذات يوم أن معه مثقاباً للحطب ومنشاراً دائرياً. دلو طلاء فارغ، ومجموعة سكاكين قابلة للسَّحب لاحقاً. اشتريت المطرقة مقابل دولارين. كانت كبيرة أيضاً. مطرقة خشبية عملياً. شككت أن آمب احتفظ بما لا يبيعه. هو فقط أراد الحصول على المال. راجت

شائعة عن أنه يسرق الأشياء من «هوم ديبوت»، لكني رأيت الهراء. كان معظمها مستعملاً. لم يكن واحد منها عديم الفائدة، لكن معظمها كان مستعملاً.

كنت لتجده قرب صيدلية «ستانتون» مع ذلك الكلب الذي يتبعه دوماً في كل مكان، ذكر أعجف مضعف سمَّاه «سترايهورن». لطالما نبح الكلب عليَّ. كان ليواصل النُّباح كما لو أنه راغب في عضي في ركبتي كلما مررت، ولم يكن ليتوقف إلا بعد أن أتجاوزه في الشَّارع. اعتقدت لوقت طويل أن آمب كان يهمس في أذني الكلب الصّماوين الرماديتين، آمراً إياه بمهاجمتي، لكن الآن أظن أنه كان فقط يحدثه بكل ما هب ودب من الألغاز. لهذا السَّبب أعجبَت به ستار. وأخمِّن أنها لهذا السبب تخلصت مني لصالحه. قالت إن في داخله شِعر.

قالت أمي لصديقتها الآنسة جين:»سمعت أنهم قتلوا كلب الفتى أيضاً!».

وكنا نقف بانتظار الحافلة ذات الرقم ٧١ أ وهذا ما حاولت فعله كل صباح: أرافق أمي إلى حافلتها. كان الفرصة الوحيدة كي نتحدث معاً، طالما أني أكون عادة منهكاً حين عودتها إلى البيت من العمل في مطبخ المستشفى. أعرف أني أبدو مثل فتى مدلل أو رقيق القلب، لكنه كان شيئاً جعلتني جدتي أعدُ بفعله. في الواقع أنا لم أبدأ بمناداة أمي بـ «أمي» بدلاً من ماري، كما اعتدت أن أفعل، إلا بعد وفاة جدتي.

كنت أنادي جدتي بـ»أمي» وأمي «ماري»، لأننا عندما عشنا جميعاً معاً في مشاريع «إيست مول»، هذا ما سمعتهما تناديان واحدتهما الأخرى. هل تتذكر الإيست مول؟ المبنى اللعين الذي كان يقع في جادة «بين»، تسير السَّيارات تحته تماماً. الآن، ذلك المبنى تقوَّض، لا أكاد أصدق أننا عشنا هناك. أعني، من يشيد مبنى فوق الشَّارع تماماً؟ إذا كانت «بين سيركل» هي الخندق المائي، حسناً، فالإيست مول كان مثل أحد قلاعه المفلسة. لا، بل أفضل، كان مثل جسر متحرك قديم لم يكن ممكناً إنزاله. بأي حال، كنا نسكن في الطابق الخامس، لذا لم أسمع يومًا صوت حركة سير فعلية، لكن عندما نظرت من نافذتي، استطعت رؤية السَّيارات

تروح وتغدو طوال الوقت. استطعت رؤية المنازل في أربعة أحياء في آن: شيدي ساید، فريندشيب، إيست ليبرتي، استطعت رؤية المكان حيث تنعطف جادة بين نحو التلة إلى جارفيلد.

لو كنت أملك فهماً أفضل لتاريخ بيتسبُرغ، لاستطعت إخبارك بكل ما كانت ترويه لي جدتي. أي بالتفصيل. عندما شيد المضمار البلدي في الخمسينات، أظن أن ذلك حدث في الخمسينات، طرد الكثير من السود من بيوتهم في الهيل ديستريكت. انتهى البعض في هوموود أو على النورث ساید، انتقل البعض في هذا الاتجاه. أيضاً كان لجدتي أن تخبرك بسرور، عن جميع مشاهير الزنوج البيتسبُرغيين سابقاً. ماري لو ويليامز، جورج بنسُن. وبيلي ايكستاين الذي ترعرع على بعد عدة شوارع فقط في هايلاند بارك. كانت لتغني أغنية «القبَّرة» وأظن أنها أغنية لا بد من تأليفه. لو كانت تملك التسجيل، لا شك أنها كانت شغلته طوال الوقت. إنها على هذا النحو تقريباً: «أيتها القبرة، هل لديك ما تقولينه لي؟ ألن تخبريني أين يمكن أن يكون حبي؟ هل من مرج في الضَّباب، حيث ينتظر أحدهم قبلة؟».

قالت أمي هذه المرة: «نعم. قتلوا الفتى وكلبه، لا يمكنني تصديق ذلك»، مضايقة رجلاً أبيض كان يرتدي قميصاً أبيض أكمامه مثنية على ساعديه المشعرين. لم يملك ولو وشماً واحد.

كانت جدتي تقول دوماً إن إيست ليبرتي كانت مترفة في السَّابق، مزدانة بمنازل كبير غير مخربة. لكن حينها أسدلوا ربقاً على الحي في أواخر الستينات. انتقل أصحاب البيوت إلى الجهة الأخرى من البلدة، وسكنوا مع أبناء عمومتهم وأعمامهم، ليحولوا بيوتهم القديمة إلى وحدات للإيجار. كانت غرف الجلوس بحجم غرف النوم، غرف النوم بحجم الخزائن، غادرت الأعمال، أتت المشاريع.

أنت تعرف ذلك القطاع الصغير من جادة «هايلاند بارك» بين وسط وشرق «ليبرتي»، الذي يقطع «بين سيركل» مثل الخط الأبيض على لافتة «لا تدخل». كرهته جدتي، لكن هناك كان يتسكع الجميع. أكثر الأحياء اكتظاظاً بالسود. بعد أن

هدموا جميع المشاريع، وحصلوا على متجر «هول فودز» وشركة «هوم ديبوت» ومحل فاخر لبيع الكتب، بدأ البيض يدعونها بالإيست إند. غيروا اسم الجزء الذي أرادوا استعادته من الحي. مع ذلك لا نزال ندعوها بـ «سليبيرتي».

قالت جدتي إن الحي كان في أذهان البيض ثانية. بيض شبان بما فيه الكفاية، ليكونوا أبناء من غادروا قبل عقود وقد كبروا. دعي مقاولون لتشييد العمارات السكنية ثانية.

قالت جدتي: «كانوا ليزربوننا مثل مجموعة من الهنود». هي قالت: «سكان أميركا الأصليين»، لكني عرفت عمَّ كانت تتحدث. تحفظات وحنث بالوعود وهراء. نادراً ما سمعتها تنادي الناس بأسمائهم الحقيقية. سمعتها مرة تسأل هذه السَّيدة المكسيكية عما إذا كانت تفضل أن تدعوها بـ «اللاتينية» أو «الهسبانية». وأحياناً عندما كانت ساخرة قد تقول: «زنجي»، لكني لم أسمعها يوماً تستعمل كلمة «نيجا». قالت أشياء من قبيل: «انظر إلى هؤلاء الزنوج». وكانت تقولها بطريقة أسوأ مما لو قالت «نيجا» من وجهة نظري. توفيت إثر إصابتها بمرض السَّرطان، قبل أن تحظى بفرصة أن تراني وماري نعيش مع بعضنا للمرة الأولى.

قال أحدهم من خلفي: «هم لم يقتلوا كلبه، لم يكن ذلك النوع من الأمور».

كان «بيني» يومئ لي برأسه محيياً ثم ينقف هاتفه الخلوي ليفتحه.

قلت له: «يقول الناس إنهم كانوا من رجال الشُّرطة السرية، لكني أعلم أنهم لم يكونوا من الشرطة».

أجاب: «لا، أنا سمعت أنهم لم يكونوا من الشرطة أيضاً». مدعياً أني سمعت بذلك من المصدر نفسه الذي استقى معلوماته منه. «قالت بريندا إنهم كانوا ملاعين ريفيو المظهر مسنون. أشخاص مسنون بشعر طويل يرتدون ستراً من نسيج مربع النقش. كانت على وشك أن تتصل بالشُّرطة، لكني قلت لنفسي، هؤلاء

الملاعين لم يقبض عليهم بعد! سيكتشفون أنك كنت تتحدث إلى ضابط الشُّرطة، ويأتون إليك». هزَّ رأسه وهو يضع الهاتف الخلوي على أذنه. لم أتمكن من معرفة فيما إذا كان يخاطبني أو يخاطب الشخص الذي على الطرف الآخر من الخط. قال: «أظن أنهم كانوا بائعي مخدرات من الجنوب. بعض متعاطي المخدرات أو بعض الهراء. لا، يا رجل، اللعنة لا. أنا لن أعود إلى منزل تلك العاهرة حتى يتم إلقاء القبض عليهم!» ضحك في سماعة الهاتف.

تصل حافلة أمي ماري إمَّا قبل الموعد أو بعده تماماً، هذا يعتمد على وجهة نظرك إلى الموضوع. لم تصل يوماً في الوقت المحدد. هي لم تقل يوماً شيئاً من قبيل: «تعال إلى البيت مباشرة بعد المدرسة «. عرفت أني سأكون هناك. أؤدي وظائفي المنزلية. أتعلم من التلفاز أكثر مما تعلمت قط في المدرسة. قبلتني على وجهي بنفس الطريقة التي اعتادت أمها أن تقبلني وتقبلها. ثم قد تهمس: «سمكتي الصغيرة». تظاهرت بأني لم أسمع. قلت لها: «وداعاً، كوني بخير».

كان يفترض بي الذَّهاب إلى المدرسة سيراً على الأقدام، أصل إلى هناك قبل رنين الجرس الأول بخمس أو عشر دقائق. لكني كنت ذاهباً لأرى عائلة آمب. قد يود عمه «شاغ» أن يعرف ما في جعبتي من معلومات. أو ينبغي عليَّ أن أقول: إذا سمع «شاغ» أني أعرف أي شيء، عليَّ أن أراه قبل أن يرسل شخصاً ليعثر علي. قال الجميع إنه كان مجنوناً نوعاً ما. هو لم يبع المخدرات، لكنه قضى في السِّجن عدَّة سنوات عقاباً على عمل ارتكبه، لا أحد يعبث معه.

أردت أن أروي لشاغ ما عرفته، لكن أولاً عدت إلى الزقاق حيث رأيت آمب يجري في الليلة السَّابقة والرجال البيض في إثره تماماً. كان هناك حاوية قمامة كبيرة قديمة. وضعت يدي للحظة على غطائها قبل أن أفتحها وأنظر داخلها. زحفت الرائحة على وجهي. أكياس قمامة سوداء وأخرى بيضاء، أكياس صغيرة بلاستيكية، عفن طيني سائل، حذاء خفيف قديم، كرسي حديقة، كان كل شيء حامضي الرائحة.

لكن لم يكن هناك جثة، أو كلب، أو جسد مغطى بالوشم. كان لدى آمب وشم على طول عنقه وذراعيه. على ظاهر كل واحدة من يديه كان اسم والده وعبارة «ليرقد بسلام» بأحرف سوداء اللون. كما لو أن الرجل مات مرتين. أو كما لو أن آمب قد ينساه في الوقت الذي يستغرقه لينقل نظره من يد إلى أخرى. سمعت أنه وشم اسم «ستار» على قلبه حالما حملت لكني لا أظن أن هذا كان حقيقياً.

عندما وصلت إلى منزل آمب لم أجد أحد هناك. أظن أنهم كانوا في المشرحة. قال الناس إنهم شاهدوا سيارة الإسعاف، كيس الجثة. لاحظ الجميع عندما اندفعت سيارة إسعاف أو سيارات الشُّرطة في الحي. سحبت هاتفي وأجلت نظري في الشَّارع. كانت منازل جديدة بنيت على امتداد الشَّوارع التي مررت فيها سيراً على الأقدام نحو منزل آمب. برزت مثل سيارات جديدة قرب ساحة الخردة والمزابل من حولها.

كانت منازل فسيحة ذات ألوان غريبة. مدعَّمة بأخشاب تتراوح ألوانها بين الأخضر الفاتح، الأزرق الفاتح، الأحمر فاتح. بدت مثل منازل ألعاب فارغة، حتى المنزل أو المنزلين اللذين كان يسكنهما حالياً أناس بيض البشرة. لافتات «للبيع» دعتها «منازل الحي التاريخي» وكانت أثمانها تعد بأرقام مؤلفة من ست مراتب. كما لو أن أياً من كان يبيعها أراد أن يخبرنا أننا لن نتمكن يوماً من شرائها. هدم المزيد من المنازل القديمة وكان المزيد من المنازل الجديدة «التاريخية» تبنى مكانها. كان عمال بناء، وكالات عقارية، عائلات فتية، أناس بيض يذرعون شوارع الحي الجانبية جيئةً وذهاباً. لم يكن أمراً هاماً. لم يكن أحد خائفاً أو مهدداً أو أي شيء. قد نلوح أحياناً لهم عندما يمرون بنا في الشَّارع.

وبأي حال، معظم الرجال الذين عرفتهم كانوا حقاً من صغار المجرمين. يسطون على السَّيارات والسَّاحات الخلفية لهايلاند بارك من أجل حفنة من النُّقود. من كان عدوانياً حقاً لم يصمد طويلاً. ليس لأنهم قتلوا في تبادل لإطلاق النار أو من قبيل الأشياء التي تراها في السِّينما، ولو أن ذلك حدث أحياناً، لكن لأن الشرطة

كانت تلقي القبض عليهم عادة قبل أن يتمكنوا من اقتراف أي شيء يشكل عمل عصابات حقيقي.

على سبيل المثال، كان الجميع سعداء عندما تم إلقاء القبض على «شوك فيري». كان يشكل خطراً كبيراً على الجميع. أخليت الشوارع في أكثر الأحيان لمزيج من المتسكعين، أشخاص من أمثال آمب، ورجال مسنون تعبون وفتيان فعلوا أكثر بقليل من التبختر على طول النواصي والأزقة الخلفية. لكن عندما مررت بهم صباح اليوم التالي لمقتل آمب، بدا الجميع متوتراً. استطعت الإحساس بذلك. كان الجميع مهتماً لإخراج الأنذال من الشارع كي يعود الحي إلى سابق عهده.

قال لي رجل عندما رآني جالساً على درج منزل آمب: «سمعت أن فتاكَ قتل».

كان يكبرني بعدة سنوات. عرفت أنه كان يسعى لبعض الثرثرة التي يمكنه أن يحملها معه في الطريق.

قلت دون أن أنظر في عينيه: «لم يكن فتاي».

«اللعنة. هراء أن تقول ذلك أيها الشَّاب».

حدق الفتى إلى أن نظرت إليه. ثم ابتعد وشيء أشبه بقرف خفيف يومض في وجهه.

لم يسبق لي أن تشاجرت مع أحد. لم يسبق لي أن اختلقت شجاراً. أنا الفتى الهادئ الذي يراقب دوماً من حافة الصدام. فتى مثلي، دوماً أول من يبادره الناس بالسؤال عما حدث: «هل رأيت ذلك الهراء ديماريو؟ من بادر باللكمة الأولى؟»

أعرف عادة، لكني لا أقول. تزداد سرعة المحادثات بتلك الطريقة. ليس لدي مشكلة مع الوقوف على الحياد. ألمحت ستار ذات مرة إلى أن تلك كانت مشكلتي. لم أظن أنها كانت قضية ذات شأن في البداية.

ستار، من دون شك هي أكثر الناس الذين أعرفهم سواداً. وهذا مضحك، لأنها أيضاً صفراء مثل موزة بنية. هي لا ترتدي قمصاناً ملونة وفضفاضة وكل تلك الملابس الإفريقية، لكنها وضعت تلك الأصداف البيضاء في جدائلها. وعرفت كل شيء يجب معرفته عن مالكولم أكس، م.ل.ك، و.أي. ب. الزنوج المشاهير ممن كانت تقتصر أسماؤهم على الأحرف الأولى. وهي لا تزال تملك لافتة مكتوب عليها «أوباما ٠٨» مثبتة في نافذة غرفة نومها. تمكنت من رؤيتها كلما وقفت عبر الشَّارع أنظر إلى منزلها. لم أفعل يوماً، كما تعلم، لم أمرر يدي على جسدها وكل ذلك، لكني أعرف أن لديها وشم صغير على شكل قارة إفريقيا في مكان ما تحت ملابسها. لم ترني إياه يوماً.

قلت ببرود: «ماذا تفعلين؟»

قصدت أن أبدو ظريفاً عندما اتصلت بها. عرفت أنها لن تكون في المدرسة. كانت حامل في شهرها الثَّامن. سوف تلد الطفل خلال أسابيع وتعود لتنهي الشهرين الأخيرين من سنتنا الثانية في بيبودي.

«لا يمكنني التحدث إليك الآن ماريو».

«نعم، أعلم. سمعت ما حدث لآمب».

كانت صامتة. كما لو أنها كانت تحبس أنفاسها. عرفت أنها كانت تبكي.

قالت بعد حين: «أنا فقط لا أعرف لماذا يحدث هذا».

اللعنة، ثم كنا صامتين لفترة أطول قليلاً.

«رأيت المتأنقين».

«من؟ رأيت الأشخاص الذين فعلوها؟»

«لا تقلقي، أنا سأعتني بذلك من أجلك».

«من؟ رأيت الرجال الذين فعلوها؟»

كدت أخبرها أن آمب لم يكن قد فارق الحياة بعد عندما رأيته. فكرت في كيف ثبتوه إلى حاوية القمامة في أحد الأزقة الجانبية من شارع «بلاك ستريت». رجلان وضيعان رفيعان. كان الكلب، سترايهورن، ينتر ساق بنطال أحدهما. ركل الرجل الكلب باهتياج، ثم ركل آمب بنفس الطريقة المسعورة. كانا يتلقفانه ويلكمانه. تمزق قميص آمب. كان ينزف. تمكنت من سماعه يقول: «أنا لن أصدق هراءكم، لن أصدق هراءكم». مؤكداً ذلك حقاً. كما لو أنه لم يكن خائفاً. كما لو أنه كان مسؤولاً حتى لو كانا هما من يختطفان ويدفعان ويرسلان ضربات خرقاء. لم يتمكنا من الإمساك به إلا بالكاد. عرفت أنهما لم يكونا من رجال العصابات، لكني مع ذلك لم أفعل شيئاً.

قلت لستار متشجعاً: «أنا سوف أعتني بهذا الهراء»، لم أدرِ حقاً ما الذي كنت أقوله.

«لا تذهب وتحاول أن تكون بطلاً ماريو».

«لا، ليس الأمر كذلك».

«فقط اذهب إلى الشُّرطة».

«الشُّرطة؟»

قالت وهي تضعني على الانتظار: «أو أذهب إلى منزله، انتظر دقيقة».

فركت جبهتي. فكرت للمرة الأولى أن الاتصال بالشُّرطة ليست فكرة سيئة. لن أقول إنه كان لدي خطط لأعتني بستار بالضبط. كل المال الذي كسبته من العمل

في ايجل ذهب إلى ماري. عشنا في تلك الشَّقة الصغيرة. كانت أمي غريبة منذ وفاة والدتها. كانت تعمل وقتاً أطول، ساعات موحشة. كانت على سلم أولوياتي. من ثم موت آمب الليلة الماضية، حسناً، قلت لك إنها قبلتني كما كانت تفعل أمها: قبلة على كل خد ثم على أنفي. كان محرجاً. انتفضت قليلاً لكن بعدها استرخيت. عرفت أنها كانت حزينة.

قرقع الهاتف ثانية: «ديماريو؟»

«نعم؟ لماذا وضعتني على الانتظار؟»

«اسمع، اذهب إلى منزل آمب وقل لعمه ما رأيته».

«أنا هناك الآن، لا يوجد أحد هنا».

«أنت هناك الآن عند منزل آمب؟»

قلت: «نعم. ما خطبك ستار؟»

قالت: «لا تكلمني بهذه الطريقة».

«أريد أن أراك».

تنهدت: «لا، لا يمكنك أن تراني».

«أنا قادم».

«فقط ابق هناك انتظر شاغ... تعال بعد أن تتحدث معه».

لذا ذلك ما فعلته. جلست على الدَّرج ويدي في جيوبي. لو لم يكن هناك طفل، ربما كانت ستار لتعود معي. لو لم يكن هناك طفل ولا آمب، ربما استطاعت أن تسلِّم لي نفسها كلية. أنا لست سيء المظهر. كان آمب يفوقني في طول قامة قليلاً.

لكن كانت لديه تلك الجدائل الطويلة، في حين لدي فقط الزغب الافريقي القصير، ليس كافياً حتى لتجديله. مرة عندما كنا نتسكع في هايلاند بارك، قالت ستار إنها معجبة بعيني الآسيويتين. أمسكت بفكي ونظرت تماماً فيهما، كما لو أنها تقرأ شيئاً. اللعنة، لم أسمع يوماً بكلمة آسيوي من قبل.

ظنَّ الناس أن لدى جدتي ثمة مورثات آسيوية. كان لها وجه بدين قبل أن ينال منها السَّرطان -كان لها وجه سمين وتلك العينان المائلتان اللتان جعلتاها تبدو كما لو أنها مستيقظة للتو. إذا كنت على جانبها السَّيء، بدا وجهها كأنه يقول: لا تكن مرتبطاً بأحد. أعرف رجالاً انتقلوا للتو وأومأوا عندما رأوها تمر بهم. لكن إذا كنت على جانبها الجيد، نفس الوجه والتعبير، إلا أنه بدا يانعاً حقاً. قد ترد تحية هؤلاء الأخوة تقريباً دون أن تحرك رأسها. هي حقاً لم تكن منجذبة إليهم، هذا مؤكد. احتفظت بمدية كبيرة في صدريتها، حصلتُ عليها الآن.

بعد ثلاثين، أربعين دقيقة، توقَّف شاغ في سيارة «سيدان» قديمة رمادية اللون. كان رجلاً طويلاً نحيلاً. شعره آخذ بالاختفاء. تقريباً لم يكن عليه أن ينحني لينزل نافذة مقعد المسافر.

«من أنت يا فتى، ماذا تريد؟»

لم يبدُ كما لو أنه مهتم بشيء. فقط يشعر بالارتياب كما هو حال أي شخص يجد شخصاً واقفاً على شرفته في منتصف النهار.

«أنا ديماريو، كنت زميل ابن أخيك آمب في المدرسة ».

لم يخرج شاغ من السَّيارة. بدأت أفكر أنه لم يكن هادئاً كما اعتقدت في البداية. بدا كما لو أنه كان يفكر بحل أمر ما. ربما اعتقد أني أحمل مسدساً أو ما شابه. لم أكن أحمل سوى عدة كتب ومطرقة في حقيبة ظهري. ومدية جدتي كنت أضعها في جيبي الخلفي.

قلت لشاغ: «رأيت ما حدث له الليلة الماضية».

كان الناس يقولون إنه لم يتم القبض على من قتلوا آمب، تلك كانت حقيقة في الوقت الراهن. كان الناس يقولون إن للأمر علاقة بالمخدرات، لم يبدُ الأمر كذلك من وجهة نظري. لقد رأيتهم، لكن الكلب الأحمق كان الوحيد الذي شاهدني. نبح والشَّعر الرمادي منتصب على عنقه. لكن لم يكن نباحه المعتاد الوحشي المهدد. كان فيه إلحاحاً. ربما خوف تخيلته. لم يستغرق الأمر برمته أكثر من دقيقة أو اثنتين.

نظفت حنجرتي: «أظن أنهم كانا الشخصان اللذان يجددان تلك المنازل في أوكليد».

تلك كانت نظريتي. لابد أنه بدا جيداً أن أقولها له لكني لم أفعل.

قال وهو يلوح لي من نافذة السيارة: «تعال إلى هنا».

نظر نحو الشَّارع بطريقة جعلتني متوتراً. لكن ماذا كان في وسعي أن أفعل سوى ذلك؟ لم أتمكن من مجاراته هناك وهو ينظر إلي. مشيت نحوه ويدي في جيبي.

«ماذا فعلوا معه؟ هل أخبرت الشرطة؟»

«لا أعرف ماذا فعلوا. لهذا السبب أتيت. لأرى كيف حاله».

كان ذلك صحيحاً إلى حد بعيد. أتيت على أمل أن يكون آمب حياً، على أمل أن الشائعات كانت تكذب. لكن حقاً أنا لم أرغب أن يسأل شاغ لماذا لم أساعد ابن أخيه. لقد رأيت آمب يدافع عن نفسه، كان الكلب ينبح علي. كما لو أنه يقول: سوف يقتلوه، سوف يقتلوه، افعل شيئاً!

تحرر آمب وجرى نحو ظلمة الزقاق والرجال من خلفه. ربما نبح كلبه عليَّ فقط لوقت أطول قليلاً قبل أن يدرك أني لن أفعل شيئاً. التفت بجري خلفهم. لم أتبعهم.

قال شاغ وهو يخرج من السيارة: «حسناً هو ليس هنا».

تمكنت من رؤية ذلك في وجهه، كان يكذب ليرى إذا كنت أعرف أنه يكذب.

قال شاغ: «يجب أن تدخل معي وتنتظره سيعود قريباً ربما».

«لا لدي بعض الأعمال ربما أعود لاحقاً».

قهقه شاغ قليلاً وقال كما لو أنه يتحدث مع نفسه: «نيجا يتحدث عن المهمات». كان يخشخش بمفاتيحه.

«سأعود لاحقاً».

قال: «يا رجل ادخل إلى المنزل»، ثم بصوت أخفض قليلاً: «هناك أمر أريدك أن تفعله».

قلت مندفعاً: «آمب ليس حياً، هل هو كذلك؟».

تنهد: «لا ليس حي. هو ليس حي».

فتح الباب وتبعته عدداً من الدرجات إلى الطابق الثاني حيث عاش هو وآمب ووالدة آمب. لا أعرف أين كانت. تزعق عند تخوم ايست ليبرتي، تنتقي نعشاً. فكرت أن للهواء رائحة مضحكة. رطوبة، ملحية مع حزن ربما. ربما تحبس نفسها في غرفة نومها تحلم أن ابنها لا يزال حياً.

هبطنا رواقاً صغيراً إلى خلوة صغيرة. تعرفت آمب في الوجه الملون بلون الخشب لفتى على طاولة. صورته في صفه الأول أو الثاني. كانت تكشيرته عريضة جداً

أظهرت أسنانه جميعاً. كان هناك زر صغير ذهبي في أذنه. تذكرت أنه كان أول الفتيان من عمرنا ممن حصلوا على ثقب. ارتدى كنزة بيضاء فضفاضة بدلاً من القمصان البيضاء التي كان يفترض بنا أن نرتديها لزينا المدرسي في ديلورث.

أخبرني شاغ: «آمب فعل ذلك الهراء»، مشيراً إلى حيث كانت السجادة الزرقاء السميكة مرفوعة كاشفة عن أرض مثالية من الخشب الصلب تحتها. «أخبرت أمه أنه سوف يصلح هذا المكان بأدواته».

جلس شاغ على أريكة منجدة بنسيج مربع النقش، احتلت المكان برمته في الغرفة تقريباً. رأيت حافة الشرشف مراقة من تحتها، واكتشفت أنه كان ينام عليها.

سأل وهو يسحب كيساً مليء بالحشيش: «تريد أن تدخن؟». كان يستقر في جلسته، لم أكن قد جلست بعد.

قلت: «لا». على الرغم من أني أردت أن أنتشي حقاً. ما أردته حقاً كان شيئاً يرفعني عن الأرض. عبر السَّقف، فوق بين سيركل، جالساً مثل عين ثور وسط حيِّنا. خارج بيتسبرغ. لكني قلت له لا وراقبته يلف سيجارة.

قال شاغ: «قلت إن نيجا ذهب ليلقن الفتيان درساً من أجل السَّرقة».

طلب مني الجلوس، لكنه لم يبدُ مهتماً عندما لم أفعل.

«قلت لأمه أيضاً. غرفته مليئة بهرائهم. بعض مناظير الوقاية المغبرة، مفكات البراغي، قفازات عمل قذرة، أحذية عمل قذرة، مسطار الزوايا. هل تعرف ما هو؟ آمب لم يعرف أيضاً، لكنه جلب واحداً إلى هناك». رن هاتف شاغ على وركه لكنه لم يجب. «لذا أحتاج أن تؤدي لي خدمة، أيها الشاب. نحن يجب أن نقود إلى حيث يعمل الملاعين وأحتاج منك أن تشير لي عليهم».

«لم أنظر إليهم جيداً».

«لا بأس أريدك أن تجرب فقط أشر بالاتجاه الصحيح، تعلم ما أعنيه؟»

مد يده بين وسائد الأريكة. رأيت مؤخرة السلاح تماماً عندما بدأ هاتفه يرن ثانية. هذه المرة أجاب. ابتسم لي ثم وقف وخرج من الغرفة.

جلست على الأريكة ولمست مقبض المسدس حيث برز مثل قرن حيوان. فكرت لثانية في أخذه وكيس الحشيش. وبدلاً من ذلك نهضت، وتوجهت على أطراف أصابعي نحو القاعة وأصغيت. تمكنت من رؤية غرفة آمب. كان هناك حذاء خفيف ورسن كلب على سريره.

«لا أنا ربما سأتوجه إلى نيوارك. أتلانتا. مكان فيه من السود أكثر من هنا».

تمكنت من سماع شاغ يبول في الحمام وهو يتحدث.

«أنت لا تجيد التعامل مع هذا، أنت تعلم ذلك، صحيح؟ لا لا نيجا، فقط أبق هناك حصلت على شخص ما هنا سوف يذهب معي إلى هناك».

فكرت ثانية بالسلاح. قد يرغب شاغ مني أن أقود بينما يطلق من النافذة. أو أسوأ من ذلك، قد يقود بينما يجعلني أطلق. بكل الأحوال، ما رأيته عنى أني عليَّ أن أكون جزءاً مما كان مزمعاً أن يحدث.

حاولت أن أخرج من المنزل بهدوء. واصلت التفكير بأني تمكنت من سماع نباح كلب خلفي. كلب آمب. شبح كلبه. لم أنظر إلى الوراء حتى كنت ألهث حول الزاوية. كنت على بعد عدة حارات من منزل ستار. لكني التفت نحو اوكليد حيث كانت تبنى المنازل الجديدة.

كان هناك امرأة شابة بيضاء البشرة تعمل في باحتها. تزرع زهوراً أو أمر من

هذا القبيل. تشذب الأسيجة. رمقتني، ثم حدقت وأنا أصعد درجات المنزل الفارغ الكبير المجاور لمنزلها. لم يكن من أحد هناك. خشخشت بمقبض الباب وأنا أنظر عبر نافذته نحو الغرف الفارغة الوسيعة. نظرت إلى المرأة البيضاء التي كانت تخلع قفازيها ولا تزال تراقبني. أخرجت المطرقة التي باعني إياها آمب من حقيبتي واستعملتها لأحطم نافذة الباب.

هرعت المرأة ودخلت منزلها. وحاولت أن أنتزع مغلاق الباب لكني لم أتمكن. عبرت الشرفة وطرقت لوح نافذة غرفة الجلوس إلى أن انكسر وانفتح مثل فم هرت أسنانه. كان الصوت عالياً كالجحيم. لم أهتم. أخمن أني جرحت. دمي يتقطر على الأرضيات الخشبية الملمعة بدا تقريباً مثل ممر من القطع النقدية.

أردت أن أنقش اسم آمب في مكان حيث لا يجده أحد. ليس بعد خمسين سنة. ليس قبل أن يسكن المنزل الذي عاش فيه أناس بيض، ثم يؤجر إلى أناس سود فقراء، ثم يجدد من أجل البيض ثانية. أردت أن يخلع الطبقات الصخرية أحد في المستقبل ويجد اسم آمب منقوشاً في رافدة خشبية. لم يكن هناك مكان لأنقش عليه مع ذلك. ما من مكان كتوم. لم يكن المطبخ يحتوي على خزائن أيضاً.

لم يكن يوجد مرحاض في حمام الطابق الأول. تدلت أسلاك من السقوف والجدران. فقط منزل فارغ. قالت جدتي، كانت تقول هذا طوال الوقت عن أن الناس، سواء السود أو البيض: سوف يتقاتلون دوماً على القذارة لكن لا أحد يمكنه أن يمتلكها يوماً. قالت إن الأرض لا يمكن أن تنتمي إلا إلى الأرض. انتمت الأنهار إلى الأنهار، الهواء كان لا يزال هواء، أيا كان من ادعى ملكيته.

في الطابق الثاني وقفت إلى نافذة في غرفة النوم الرئيسة. آجر وسماء، معدن وخشب، إسمنت وقذارة، أنت الآن تعرف ما رأيته من هناك: كل القذارة التي تمنح الهواء شيئاً يتكئ عليه. عرفت أن رجال الشرطة كانوا في طريقهم. وكان عليَّ أن أفعل شيئاً. أقول شيئاً. فكرت أني الآن سمعت صوت الصفارات. فكرت أني تمكنت من سماع كلاب تحاول أن تطابق الصوت. جلست وسط الأرض والمطرقة

في حجري. كان هناك دم على قميصي وبنطالي. لم أكن أبكي. كنت بالكاد أتنفس.

عندما اتصلت برقم ستار ترددت نغمات الاتصال من حولي. لقد تحدثنا على الهاتف لكني لم أرها منذ أسابيع. لم يكن أني كنت خائفاً من آمب أو من كلبه. أنا فقط واصلت التفكير بأنها ستطلب مني القدوم أخيراً. سريعاً بعد أن أصيب آمب، تصورت أنها قد ترغب برؤيتي. وحقاً عندما سمعت أنه كان ميتاً فكرت أنه سبب لأراها. حامل أو لا، سيان. كنت سأكون هناك من أجلها، كنت سأكون معها.

لم تنبس ستار بكلمة عندما أجابت. قلت بعد بضع لحظات: «مرحباً». قلتها فقط كما قلتها لأمي عندما عادت إلى البيت من جنازة جدتي. كأنها سؤال. برفق، ببطء، أحرجتني بنفس الطريقة عندما قلتها حينها.

«مرحباً».

منزل مزدوج

ستيوارت أونان

لد ستيوارت أونان ونشأ وعاش في بيتسبرغ. حصلت مجموعته القصصية «في المدينة المسورة» على جائزة درو هينز الأدبية، وروايته الأولى، ملائكة الثلج، التي تدور أحداثها في بتلر، حولت مؤخراً إلى فيلم نال استحساناً. تقع أحداث العديد من رواياته الاثنتي عشرة في بيتسبرغ، بما فيها أناس عاديين (إيست ليبرتي) و»أميلي، آلوني» (هايلاند بارك) التي ستصدر قريباً.

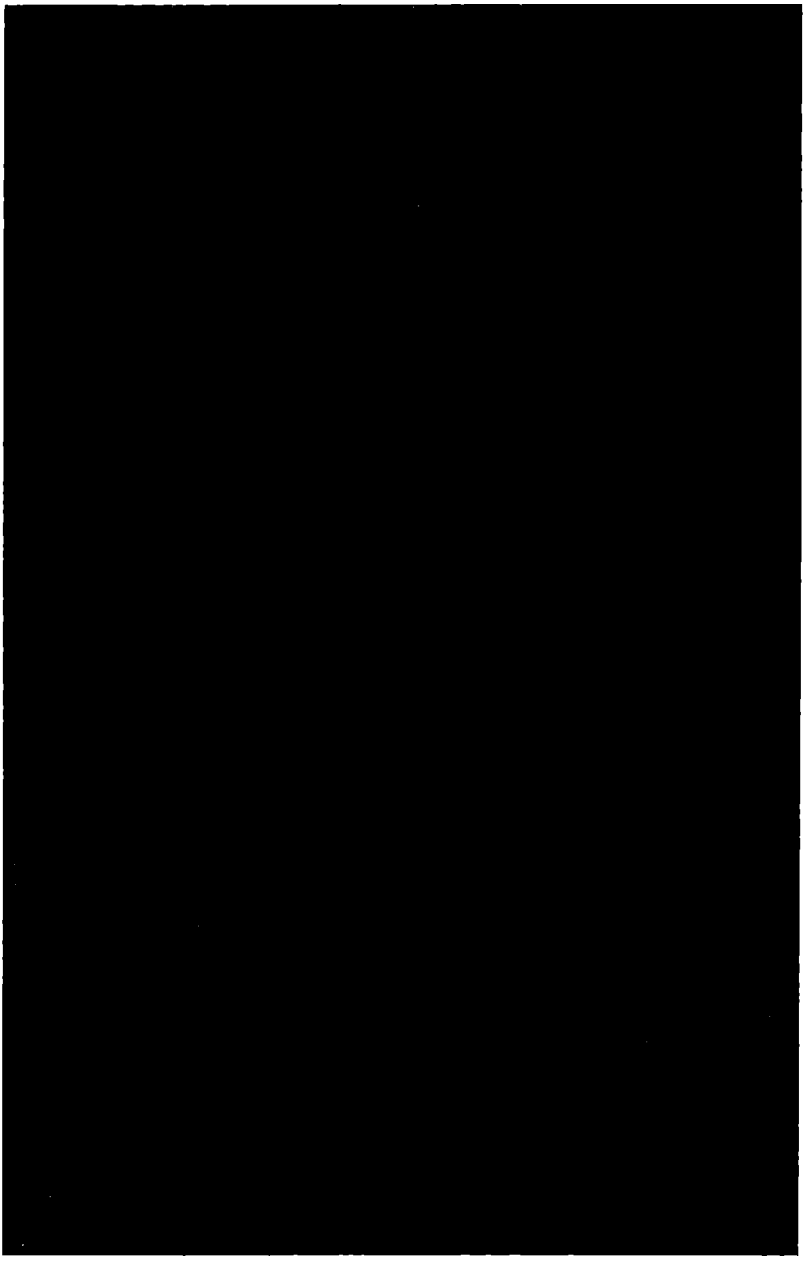

عندما فارقت ايفلين الحياة، اعتقدَت أنها قد تحصل أخيراً على الطابق الثَّاني. لم تكن امرأة أنانية-أم، جدة، اعتادت أن تعمل من أجل الآخرين-لكن في هذه الحالة، بعد أكثر من أربعين عاماً من التعامل مع الهباب وجلبة الشَّارع والناس يزحفون عبر الزقاق ويسترقون النظر عبر نوافذها، شعرت آنا لوسيا أنها أثيبت.

توقعت أن يغادر «ايدي» ويجد منزله الخاص، بدلاً من العيش محاطاً بمتاع أمه القديم. كان قصير القامة وسكير. تقاعد من الأشغال العامة بعجز تام، وايفلين تركت له كل شيء. تصوَّرت آنا لوسيا أنه قد يأخذ النقود ويشتري إحدى تلك الشُّقق الخاصَّة الجديدة في «هايلاند»، طالما أنه أنفق معظم وقته في البارات على امتداد «بين» بأية حال. عوضاً من ذلك، بعد شهرين، جلب إلى البيت صديقة يفوق حجمها حجمه مرتين، وتبلغ من العمر ما يساوي نصف عدد سني عمره.

كانت بين آخر الزبائن في البار قبل أن يغلق أبوابه ليلاً، شقراء، طويلة القامة، لكنها قبيحة، روسية كبيرة الأنف، كانت قد وصلت للتو إلى أميركا مثل عروس أرسلت بالبريد تم إنقاذها عند أول فرصة سانحة. كان ظهر ايدي قد تأذى في المجاري. كان ضخم البطن وأصلع، بالكاد يمكن اعتباره لقطة. بقدر ما يمكن لآنا لوسيا أن تعرف، الفتاة لم تعمل.

لم تطهُ أيضاً. كل ليلة بينما كانت «آنا لوسيا» تحضِّر العشاء لنفسها، كانا ينزلان بتثاقل ويصفقان الباب الخارجي. رأته من نافذتها الأمامية مقطبة، عندما تهادى نحو السَّيارة وأمسك باب الراكب للفتاة، كما لو أنها سيدة، كما لو أنه كان يحبها.

في هذه الحال، كان ذلك أكثر إثارة للحزن. في المستشفى، كانت ايفلين قد طلبت من آنا لوسيا الاعتناء به. وقد بذلت قصارى جهدها، لكن ايدي كان رجلاً ناضجاً،

وبعد كل ما مر به من مشاكل، استحق بعض السعادة، حتى لو كانت من النوع سريع الزوال.

الحصول فجأة على جار جديد، بعد أن عاشت هناك وحيدة معظم أيام حياتها، أربك آنا لوسيا. لم يقدمها ايدي ربما بسبب شعوره بالخزي. وقد فاجأتهما ذات مساء وهما في طريقهما إلى الخروج، لتعلم أن الفتاة تدعى سفيتلانا.

قالت الفتاة: «سررت بلقائك». وصافحتها مصافحة الرجال.

كانت أطول قامة من دومينيك، بخدود مندَّبة وقدر كبير من الحمرة ونهديها يبرزان من قميصها. لن تسمح آنا لوسيا لروزين بمغادرة المنزل بتلك الطريقة حتى لو بعد مليون عام، لكن ايدي بدا سعيداً ومتأنقا ،كما لو أنهما ذاهبين إلى مكان فاخر، وآنا لوسيا تركت لتتساءل عن المكان، تماماً عندما بدأت بتناول بقايا طعامها.

عادا بعد أن أغلقت البارات أبوابها، يضحكان ويحدثان جلبة على الدَّرج. سمعتهما في السِّر، ينتقلان من غرفة إلى أخرى، أصغت إلى حين ثم عادت إلى النَّوم.

في بعض الليالي كان ذلك منتهى الأمر، لكن في ليال أخرى تشاجرا-ليس الأمر مفاجئاً، بالنظر إلى وضعهما-وفي ساعة متأخرة من الليل، استيقظت على صراخ وصوت سقوط شيء ثقيل، انكسر. مثل معظم المنازل القديمة المتجاورة في الشَّارع، كان هذا المنزل مبني من الآجر وجدران من الجص وسقوف مرتفعة، لذا لم تتمكن من أن تعرف عم كانا يتحدثان، فقط سيل من الكلمات صعق قلبها. ثبتت وسادتها الإضافية على أذنها، متصورة الاثنان يتربعان في غرفة جلوس ايفلين، يتبادلان التهديدات والاتهامات، يدمران كراتها الثلجية الثمينة والأطباق التذكارية، ليوضح كل واحد منهما وجهة نظره.

عندما طال شجارهما أكثر مما يحتمل الأمر من وجهة نظر آنا لوسيا، عندما

بديا كما لو أنهما كانا يتصارعان مباشرة فوقها، فكرت فيما إذا كان عليها الاتصال بالشرطة أم لا. احتفظت برقم على طاولتها الليلية، كانت روزيني قد أعطتها إياه. لم يكن الأمر ليستغرق إلا بعض الوقت. كل ما كان عليها فعله هو أن تدق ثلاثة أرقام، ومع ذلك أحجمت كل ليلة، مهما بدا الأمر سيئاً، ليس فقط لأنها لم تتوقع حدوث شيء، لكن لأنهما سوف يعرفان أنها المتصلة.

في الصَّباحات التي تلت المعارك، جازفت بالخروج إلى سفرة الدرج، على أمل أن تشهد على الأذى النَّاجم عنها-عين متورمة، شفة مشقوقة -كما لو لتثبت أنها لم تكن تتخيل الليلة السابقة. لم يُر أي شيء، إلا فيما ندر. نزل ايدي ذات مرة وكانت قطعة شاش عريضة مربعة تغطي جانب عنقه، ربما تغطي خدشاً أو أثر عضة. بدت الفتاة غير ممسوسة، ولو أنه كان من الصعب القول مع ما ترتديه من ثياب ذات أكمام طويلة، وكل تلك الزينة على وجهها. تصرفا كما لو أن كل شيء على ما يرام.

«صباح الخير سيدة ناردیني».

أعلنت آنا لوسيا: «صباح الخير سفيتلانا، هل تعجبك بيتسبُرغ؟»

«أحب بيتسبورغ كثيراً جداً».

«حسناً، لا يمكنك أن تجدي شخصاً أفضل ليريك المدينة. هو يعرفها قلباً وقالباً، بكل ما تحمل الكلمة من معنى».

قال ايدي وهو يقود الفتاة نحو الباب: «ها، لطف منك سيدة ن».

نادت آنا لوسيا في إثرهما: «استمتعا».

ثم وقفت هناك، عند أسفل الدرج تعض باطن خدها، تصغي إلى صوت سيارته وهي تنطلق.

كانت تنتظر هذه الفرصة، لكن مع ذلك لم تكن واثقة. كانت خطتها تتجلى في أن تأخذ المفتاح الاحتياطي الذي أعطتها إياه ايفلين، وتصعد لترى في أي حال كان المكان. بعد وفاة ايفلين مباشرة، كانت آنا لوسيا كثيراً ما تتردد عليه حاملة طبقاً من اللازانيا أو بعض البندورة من بستان آل توماسو، لكن منذ مجيء الفتاة، أوقف ايدي دوماً آنا لوسيا عند الباب، كما لو أنه يخفي شيئاً.

كان المفتاح موضوع في إبريق الشَّاي الصَّغير المصنوع من الخزف الصيني، في خزانة المطبخ، جنباً إلى جنب مع نقود لعبة البينغو خاصتها. لم يكن الأمر يتطلب أكثر من خمس دقائق. وضعت السِّلسة على الباب الخارجي كي لا يدخل أحد وأسرعت تصعد الدرج.

فاح المكان برائحة السجائر وشحم خنزير بائت. لقد أعادا ترتيب كل شيء. في غرفة الجلوس على صوان السفرة العتيق حيث وضعت ايفلين صور عائلتها، كان هناك شاشة تلفاز مسطحة. مقابل أريكتها المخملية الخضراء المغطاة بشرشف مزهَّر عليه آثار حروق. على طاولة القهوة بجانب كأس مكسور، منفضة مملوءة بأعقاب السَّجائر، انتصبت زجاجة ويسكي نصف ممتلئة، كما لو أنها تنتظر عودتهما. على الرغم من أنها شعرت للوهلة الأولى برغبة في سكب محتوياتها في المغسلة، إلا أنها قررت ألا تمس شيئاً، لبثت صامتة كما لو أن أحداً يمكن أن يكون منصتاً.

كان البساط قذراً، لم يكنس منذ وقت طويل. أرض المطبخ دبقة، تكدست الكؤوس على النُّضد. كانت نباتاتها جافة وذابلة. على الأقل ترك ايدي غرفة ايفلين دون مساس-هنا كانت كراتها الثلجية وأطباقها منفية، لكن في مأمن-ولو أنه من الواضح أنه لم ينفض عنها الغبار. كان السَّرير في غرفته غير مرتب، بنطال فضفاض زهري اللون مكتوب على مؤخرته «ريَّان» مثني على لوح السَّرير العلوي.

وهي تلتفت بنية المغادرة، لاحظت بعض النقود على منضدته-لفيفة أوراق مالية من فئة العشرين، مطوية كما لو أنها تنتظر أن تذهب إلى محفظة. تساءلت

إذا كان حقاً على ثقة، أو أنه تركها خارجاً على سبيل الاختبار. ايما كان الأمر، بدا خاطئاً-مثل بنطال الفتاة، يسخر من كل شيء محترم-تقدَّمت نحو المنضدة تزم شفتيها بتركيز، سحبت ورقتين ماليتين من اللفيفة ووضعتهما في جيبها.

لم تتذكر أن ترفع السلسلة، إلا بعد أن أضافت النقود إلى إبريقها.

لم تقل لروزين شيئاً عن زيارتها القصيرة على الهاتف، فقط أعلمتها بأن شجارهما يزداد سوءاً.

«تريدين أن تسمعي الشجار، عليك أن تسمعي فرانكي وأنا نتشاجر على التأمين الأحمق. الناس يتشاجرون مهما كان الموضوع، إنه شأنهم وليس من شأنك».

«هما يشربان ويتشاجران. هذا مختلف».

«أمي، اسمعي ما تقولينه لي. أناس ثملون يتشاجرون. هذه ليست أخبار».

«تقولين لي أن عليَّ أن أصغي لهذا كل ليلة؟»

«أقول لك إن هذا ما يفعله الناس. سواء كانوا كباراً أو صغاراً، بيض البشرة أو سود البشرة، روس أو أياً يكن».

«بالي مشغول على أيدي».

«هذا جيد منك أمي، لكن يبدو كما لو أن إيدي يفعل ما يريد».

«هذا ليس صائباً».

«نعم حسناً، هناك الكثير من الأمور في العالم ليست صائبة، مثل شركات التأمين لكننا لن نغيرها أيضاً».

«أنا فقط أخبرك أني لست سعيدة بهذا الشَّأن».

قالت روزين: «أوه يا إلهي هلا توقفت؟ تم تسجيل شكواك».

وصلا إلى البيت متأخرين تلك الليلة، يترنحان على الدَّرج. انتظرتهما في السرير ليبدأا. حاولت تبرير أخذ النقود قائلة لنفسها إنه في صالحه، وأن ايفلين قد ترغب بخروج الفتاة من منزلها. عزمت آنا لوسيا على الاتصال بالشُّرطة عندما يبدأان، لكن بعد ما بدا أنه صمت طويل-هل فقدا وعيهما؟ سمعت بدلاً من الصُّراخ والتشاجر وقع خطواتهما على السَّقف نحو غرفة نومه ثم تلك الضَّجة غير المستحبة التي لم ترغب في تصورها.

في الليلة التالية، بينما كانا في الخارج، أوثقت الباب ثانية بالسلسلة، وأخذت ثلاث ورقات من فئة العشرين، وتركت ست، من ثم رأت فرصة مناسبة، فمزقت آخر ما بقي من مناديل المرحاض، لذا لم يبق هناك سوى مربع رقيق يتدلى من البكرة.

كان يوم جمعة، وعادا متأخرين وأكثر صخباً من المعتاد. كانا الآن يتشاجران في الشَّارع. واصلا الجدال في الرِّواق، ثم الرواح والمجيء المعتادان فوقها. لم يكن من فائدة ترجى من الاتصال بالشُّرطة، قبل أن تتخذ الأمور منحى مادياً، فتمددت في السَّرير تحدِّق بالسَّقف، كما لو أنها تخشى من أن يهوي فوقها، إلى أن سمعت أخيراً بعد فترة من الهدوء المؤقت صوت دمدمة شخص-ربما كلاهما-يركضان ثم يصرخان وزجاج يتكسر، زجاجات، ربما أوان خزفية، وتحطم قاصف بدا كما لو أن خزانة تقع. نعم، ذلك ما كانت تنتظره. صوت ارتطام آخر، ثم شيء يتحطَّم، ربما طبق. شخص أو شيء كبير يسقط. جلست وأضاءت المصباح ومدت يدها نحو نظارتها، ثم نحو الهاتف. كانت الفتاة تصرخ، تولول، لا تنبس بكلمة على الإطلاق-عندما دقت آنا لوسيا الأرقام، وأرسلت عنوانها بهدوء.

بينما كانت تنتظر وصول الشُّرطة، سمعت صوت شخص يهبط الدرج، وأسرعت نحو النَّافذة الأمامية، فإذ بها ترى الفتاة تسرع بين السَّيارات المركونة، وعبر الشَّارع، تحمل كيساً قماشياً. لم تتمكن آنا لوسيا من ضمان نجاح خطتها، لكنها

كانت ممتنة بأي حال، فكرت أن ايفلين قد تكون ممتنة كذلك.

لم يسمع صوت من الطابق الأعلى. فكرت بالصُّعود، لكن كانت السَّاعة الثالثة صباحاً، وربما لن يرغب ايدي برؤيتها. جلست إلى نافذتها الرئيسة، تنتظر من خلف السَّتائر وصول رجال الشُّرطة مع كشافاتهم.

رنوا الجرس ثم خبطوا على الباب. بعد حين، خرجت آنا لوسيا تشد ردائها إلى عنقها بإحدى يديها، وسمحت لهم بالدخول.

سأل الشُّرطي الضخم: «أنت المشتكية؟»

«هما يتقاتلان ثانية». أشارت ووقفت هناك وهما يصعدان الدَّرج.

بعد عدَّة دقائق نزل الأقصر قامة بينهما وكانت جبهته تتفصد عرقاً: «قلتِ إنهما يتقاتلان، من هما؟»

أخبرته عن ايدي. لا، هي لم تعرف لقب الفتاة.

«هل لديك فكرة عن مكانها؟»

«فرت نحو ليبرتي، تماماً بعد أن اتصلت بكم».

سأل إذا كانت آنا لوسيا تعرف ما الذي كانت ترتديه المرأة. هي لم تعرف بالضبط، لكن أعلمته عن الكيس القماشي وعن لون بشرتها.

قال الشرطي: «حسن أنك اتصلت. هو سيء بكل شكل من الأشكال. لقد أعلمنا ويست بنسلفانيا بالأمر. في هذه الأثناء أود أن أطرح عليك عدداً من الأسئلة، إذا كان هذا مناسباً».

قالت: «بالتأكيد، ادخل من فضلك «.

لم يكن هناك داعٍ لتخبره كل شيء. سبق أن رأى مثل هذا الأمر مرات عديدة. كانا تملين ويتشاجران والفتاة طعنته في صدره بسكين المطبخ.

بكت آنا لوسيا، حينئذٍ وبعد مغادرتهما. صلَّت، يعلم الله أنها لم تكن نيتها يوماً. ربما كان قدراً لكل منهما. مع ذلك بدا مريعاً وغير ضروري. قد تغرق الفتاة من جديد في جحيم غير الموثَّقين. قد يعيش ايدي، لكن قد يحتاج إلى عناية على مدار السَّاعة، نقل إلى مكان مساعدة معيشية في ويلكينسبرغ حيث قد تزوره آنا لوسيا مرة في الشهر جالبة معها اللازانيا الشهيرة.

ما إن رحل حتى رفعت البساط، وطلت الجدران بلون أصفر زاه. استأجرت مجموعة من المراهقين من محل سانت جو ليساعدوها على النقل. كان تملك الكثير من الأشياء، وبعض منها كان ثقيلاً: المقعد بغطائه المزركش، صندوق أمها، الطاولة ذات السطح الرخامي. بأعجوبة، كل شيء لائق. وقفت وسط غرفة جلوسها الجديدة، توجه الفتيان-أكثر قليلاً بهذا الاتجاه، أكثر قليلاً-إلى أن كان كل شيء مرتباً كما ترغب.

محطِّم الذرَّة

ليلا شارا

ليلا شـارا هي مؤلفة «كل شيء سري» و «ابنة قـارئ البخت». تدربت كأنثروبولوجية، مارست عدة أعمال، بما فيها، ديسك جوكي، منتجة برنامج إذاعي، سكرتيرة، نادلة، ساقية، و «عضو طاقم» في سلسلة مطاعم للوجبات السريعة، ومدرسة في مدرسة ثانوية. تدرِّس شارا الانثروبولوجيا في جامعة محلية وتسكن في بيتسبرغ مع زوجها وطفلين، والكثير من الحيوانات الأليفة.

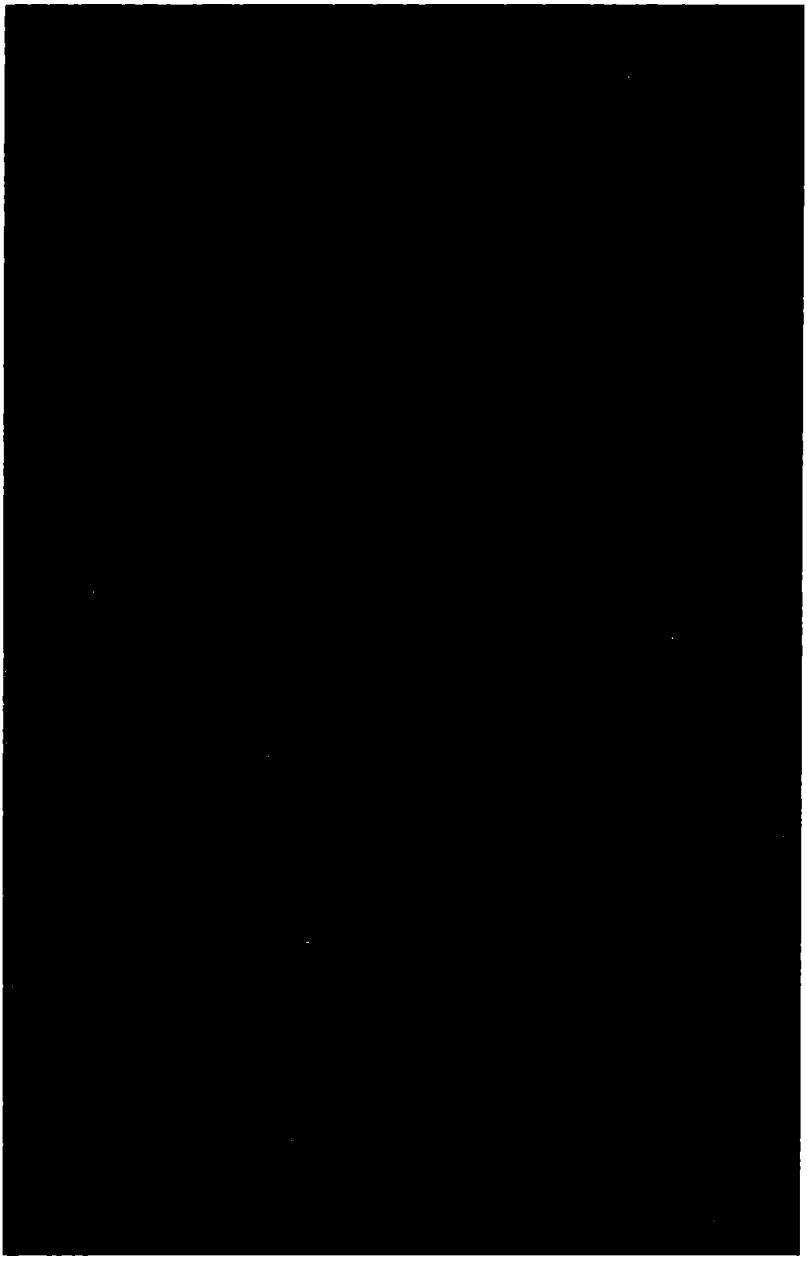

سألته الفتاة المبتلّة بالعرق: «أنت نشأتَ بالقرب من ماذا؟»

فكّر: كانت ساخنة. وكلمة ساخنة مترادفة مع كلمة مثيرة، وتعني كلّ تلك التخيلات عن اللحم البضّ وحرارة الجسد. صحيح أنها بدت مبللة، لكن بدا كما لو أن رائحة كريهة قد تنبعث منها إذا ما دنوت منها كثيراً فقط. كان شعرها كثيفاً ولكنتها متنافرة، هو يعيش في أطلانطا طوال سبع سنوات منذ أن كان طالباً في الجامعة. نشأ معتاداً على أحرف ساكنة جنوبية سلسة وأحرف صوتية انزلاقية.

أزعجته زوايا اللهجة البيتسبُرغية الحادَّة الآن، بالإضافة إلى شعرها المقسى بالبرنيق، الشَّائك، المدبب، المتعرق، الداكن اللون. داخل البار، كان الهواء مشبعاً بالبخار للغاية، لدرجة أنه اعتقد أنه قد يفقد وعيه. تخيل أنه بدا كما لو أنَّه، هو نفسه، خرج للتو من مغطسٍ حار.

قال: «شُيد محطِّم الذرة حتى قبل القنبلة الذَّرية. كانوا يحطمون الذَّرات حتى قبل أن يعرفوا أنهم قد يفجرون العالم بتلك الطريقة».

أجابت: «هاه».

وتمكن أن يستدل على أنها لم تصدقه، نادراً ما كان النَّاس يصدقونه عندما يخبرهم هذه المعلومة الصَّغيرة عن ماضيه، لكنه توقَّع المزيد من شخص ينتمي إلى المدينة.

قال: «يمكنك أن تريه من جادة آردمور. يبدو مثل دمعة مقلوبة رأساً على عقب».

بدت مهتمَّة حين قالت: «هل تعني مخروط الآيس كريم المعدني الكبير؟»

«بالضَّبط».

قالت بانفعال: «لقد رأيته طوال حياتي، ولم أعرف أن هذا هو شكل محطِّم الذَّرة. أنت محظوظ لكونك لا تزال على قيد الحياة وقد نشأت بالقرب منه».

لم ينتظر روني أن يجد لديها الرغبة بمضاجعته، وأحزنه أن يجد في ذلك ارتياحاً بوجه من الوجوه. كان قد عاد لتوه إلى مسقط رأسه، ووسط الخزي من كل هذا، تجلت المشكلة العملية في كونه لا يعرف مكاناً يمكن أن يتعرف فيه على النساء. لكن لم يمضِ على عودته سوى شهر، ومع أنه ارتاد عدة مرات باراً حسبه جيداً في الماضي، لم يكن قد وجد حلاً لهذه المشكلة الدقيقة بعد. لم يكن ثملاً تماماً عندما عاد إلى المنزل الذي عاد الآن ليكون منزله ثانية جزئياً. كان والداه نائمين ويسوده الهدوء. فكَّر شاكراً الله على ذلك، وتناول علبة بيرة من الثَّلاجة.

صعد إلى الطَّابق العلوي، إلى ما كانت فيما سبق غرفة نومه التي حولها والداه إلى مخدع عُلوي، مؤثثة بشاشة تلفاز كبيرة، أريكة، وثلاجة صغيرة. دعاها والده: « كهف الرجل» خاصته، ولم يرغب بإعادتها إلى ابنه. الآن، كان روني ينام في غرفة شبه منجزة في العليَّة، كان الجو فيها حاراً على الرغم من وجود مكيِّف الهواء، لكنه لم يستطع احتمال فكرة الإقامة في غرفة للضيوف، ورق جدرانها مكسو بالبط. كان أفضل ما في التَّحول، شرفة شيدت في غرفة الطابق الثَّاني، تشرف من الأعلى على الفناء الخلفي. خرج روني من الباب الزجاجي المنزلق، واسترخى في أحد كراسي والدته القديمة، من النَّوع المرفق بمساند ضخمة متعفنة بعض الشيء. نهض ثانية بعد حين، وجلب عدداً من أعواد الثِّقاب من المطبخ، ثم أشعل شمعتين ضخمتين عطريتين، موضوعتين على الدرابزين الخشبي العريض. لم يكن البعوض هنا كبير الحجم، مثل ذلك المنتشر في اطلانطا، سواء صدَّق المحليون أم لم يصدقوا، لكنه كان سيئاً بما فيه الكفاية عندما يكون جائعاً.

تمكَّن من رؤية الصُّورة الظلية لمحطِّم الذَّرة في الأفق الواطئ، واضح حتى في الضَّوء الأحمر الخفيف المنعكس من مركز المدينة، على بعد ثمانية أميال. هو لم يسمع يوماً أنه يدعى بالتعبير الأكثر حداثة: معجِّل الجسيمات. كان صغيراً جداً بالمقارنة مع تلك التي يشيدونها الآن. لكن لطالما قيل له إنه كان الأول على الإطلاق، وهكذا كان معذوراً في كونه ليس ذو شأن عظيم نووياً. مع ذلك، كان مخروط الآيس كريم المعدني يرتفع حتى علو ستة طوابق، يقع على قمة مخزن قبيح كبير من مبنى شيد من الإسمنت والفولاذ المتموِّج.

غطَّى البناء برمته مساحة فدَّان من الأرض، تحيط به ساحة متصدِّعة لانتظار السَّيارات، تنمو فيها الأعشاب الضَّارة، مغطية مساحة فدانين آخرين على الأقل. تقشَّر الطلاء البرتقالي في عدة أماكن، وكان يوجد عدد من النوافذ، بدت مثل خلفية لفيلم سيء، ما بعد أبوكاليبسي. مع ذلك، خبأته ويستينغهاوس بعيداً في هذه المقاطعة السَّكنية، على ما يبدو، كي يتمكن كثير من الموظفين من العيش بالقرب والذهاب إلى العمل سيراً على الأقدام. لحسن الحظ، بسبب طبوغرافيا مسقط رأسه، لم يستطع رؤية المخزن القبيح من الشُّرفة، فقط القبة المعدنية نفسها.

كان «فورست هيلز» اسماً مناسباً للبلدة، عملياً، كان كل فناء خلفي منحدراً في اتجاه أو في آخر. برز منزل والديه من منحدر التَّل مثل رف من ناميات اسفنجية على شجرة خرُّوب. يقع مجمع ويستينغهاوس العتيق على يساره، على بعد أربع مقاسم فقط. كان مبنى «تينكر توي ويستينغهاوس» العتيق الطراز، المرسوم على جانبه حرف «w»، بمستوى النظر. كان قد فكر فعلياً في اصطحاب الفتاة المتعرقة من البار إلى هناك، بعد كل هذا الوقت. لقد نسي اسمها الآن، ولم يكن منجذباً إليها إلا بأكثر الطرق دناءة وبراغماتية، فرصة، حتى لو لم تكن جذابة على نحو خاص. فكَّر: يا رجل، لقد مر وقت طويل منذ أن فعل ذلك هناك. متذكراً أنه لم يتجاوز عمر واحدة من الفتيات سبعة عشر عاماً، فكَّر: كان اغتصاباً شرعياً، وكنت أحمق للغاية فلم أعرف ذلك. ربما سرى حظ بعض الفتيات إليَّ، طالما أنه لم يتم

القبض عليَّ يوماً.

كان في المدرسة الثَّانوية مثار إعجاب، عدد لا بأس به من الفتيات اعتبرنه وسيماً، حتى أن ذلك أصبح مقبولاً كحقيقة من قبل الجميع. لكنه لم يكن نجماً في الرياضة، أو في أي شيء آخر، وهكذا جعل نجاحه المهني من عودته إلى البيت للقاء العائلة العاشر متعةً. هو لا يزال يحتفظ بحسن المظهر، لديه زوجة جميلة ومهنة يحسده عليها الكثير من زملاءه السابقين.

أحبَّ أن يردد مراراً وتكراراً بين رشفات البيرة الدافئة: «أنا كاتب رياضي في جريدة «اتلانتا كونستيتيوشن». كان عليَّ الانتقال إلى «صان بيلت»، لكني لا أزال معجباً بفريق الستيلرز».

سارت الأمور على خير ما يرام، حتى أن أحلامه ارتبطت بالنَّجاح الاجتماعي لأسابيع.

لكن بعد أربع سنوات، ألفى بلا زوجة، أو عمل-ثمن تدفعه لكونك في منصب ثانوي في صناعة تخفِّض من عمالتها. كان لا يزال يمتلك صديقاً أو اثنين، ولو أن العدد أقل مما اعتقد.

قالوا جميعهم: الصَّحافة المطبوعة معطلة بأي حال. قالوا: افعل أشياء عبر شبكة الانترنت.

كما لو أن الأمر بتلك البساطة، كما لو أنه كان السَّبيل إلى الثَّراء.

لكن رئيسه في العمل قال: «آسف روني، لكنك لست جيداً إلى درجة كبيرة. نصيحتي؟ جد لك نوعاً مختلفاً من العمل».

كان قد تلقَّى بريداً حول لقاء العائلة الخامس عشر. المفارقة من أن ليس عليه أن يسافر هذه المرة، لم تدفعه إلى الابتسام. حدَّق الآن في محطم الذرات وفكر:

هذه المرة ربما يمكنني أن أجعله يعمل لصالحي.

قالت والدته للمرة الخامسة وهي تسحب من الثَّلاجة حزمة تزن خمسة باوندات من لحم البقر: «الشَّمس ساطعة، يا لها من نعمة».

لقد أمطرت خلال الأيام الثلاثة الماضية. الآن كانت السَّماء فارغة من كل شيء، ما عدا الشَّمس الحارة البيضاء، الأزرق من حولها قاس مثل زجاج سميك. شعر روني بالصُّداع إثر النَّظر نحوها، ذهب إلى البار ثانية الليلة السَّابقة، وهو يعاني من الثُّمالة. لم يكن أيضاً يستحق العناء، لم تتمتع النِّساء هناك بالجاذبية، ولم يكنَّ مهتمات. الآن تبع أوامر والدته، وأمضى الصَّباح يضع الكراسي في الفناء الخلفي، ويساعدها في صنع فطائر صغيرة من اللحم الندي الرخو. أطلقت سراحه عند الظهر قائلة: «فقط لا تحدث فوضى في أي مكان».

تناول علبة مشروب غازي من الثَّلاجة، وصعد إلى الطَّابق العلوي، إلى شرفة الطابق الثاني. جلس وفتح العلبة ونظر إلى محطِّم الذرات متدلياً فوق الأشجار خلف الباحة. بدا مثل دمعة معدنية بدينة هائلة، كانت تنحرف في الاتجاه الخطأ. مثل عملاق بكى وهو واقف على رأسه، فكر: ربما يمكنني أن أجد عملاً كشاعر.

ثم كاد يبتسم مفكراً: ها هو واحد من بضعة أعمال ربما تدفع أجراً أقل من أجر صحفي.

أخذ رشفة من المشروب، كانت بيرة جذرية شديدة الحلاوة. لم يكن قد لحظ ما الذي أخذه من المطبخ، كانت والدته دوماً تحتفظ بكمية كبيرة من المخزون الاحتياطي من الصودا في حال جاءهم ضيوف، واليوم كانوا يتوقعون الكثير منهم. اشترت المواد بكميات كبيرة، منتجات تأتي بكل المذاقات الأساسية: كولا، مزر بالزنجبيل، بيرة جذرية، عنب، وبرتقال. وتعجب كيف يفلتون من العقاب باستعمالهم كلمات تدل على فاكهة فعلية. فكَّر: كان البرتقالي لوناً أيضاً، بالتأكيد. لكن الكلمات دوماً متبوعة بتعديل بالغ الضَّآلة، شراب منكِّه. لطالما كانت البيرة

الجذرية هي عصير جذر الساسفراس المغلي المركز والمكربن. عرف ذلك لأن عمه «لو» كان قد صنع قليلاً منها عندما كان طفلاً. كان لها مذاق كحولي بالنسبة إليه حينها. ولكونه يعرف عمه لو، ربما عمل على تخميرها. كانت المادة في العلبة غالباً عصير الذرة، وبعض المواد الكيمائية المجهولة التي تتراقص على حليماتك الذوقية، وصبغة ما بلون الغائط. رمى بقية العلبة. فكر: ربما يمكنني الحصول على عمل كمتذوق لكولا رديئة للغاية.

من على الشُّرفة، استطاع أن يلقي بنظرة عبر شرائح الدرابزين، ويشاهد الاحتفالات دون أن يُرى. انفتح باب القبو الذي يقع بعد طابقين نحو الأسفل، على فناء قرميدي تبلغ مساحته عشرين قدماً، كانت تنتشر فيه مجموعة سيئة السُّمعة، لكن متينة، من كراسي المسطحات الخضراء، اختيرت منذ ستين عاماً لاجتماعات العائلة.

وضعت شواية تعمل على الغاز بحجم بيانو، في الزاوية القصية للفناء، وكان والده يستبدل خزان البروبان تحتها، وهو أمر طلبت منه والدته أن يفعله في اليوم السَّابق، وطلبت من روني مساعدته جهاراً. كان روني مرتاحاً لأن والده تجاهلها في كلا الأمرين، على حد سواء. لم تبدُ والدته أنها تعلم بصعوده إلى الشرفة، وجلوسه سمح له ألا يكون مرئياً من تحت، إلا إذا اختار أن يبرز رأسه من فوق السياج الخشبي. سمع من خلفه صوت حفيف الباب الشَّبكي المؤدي إلى مخدع الطَّابق العلوي، والتفت، وإذ به يرى ابن عمه غاري واقفاً في العتبة. لم يرَ غاري منذ عدة سنوات، لكن شكله لم يتغير. كان غاري أقصر قامة من روني بعدة بوصات، وكان عادة يفوقه وزناً. لطالما شبَّه روني رأس غاري بحبة البطاطا، ولو أنه أكبر بالطبع، فكر في هذا الآن، طالما أن الشَّبه ازداد وضوحاً مع مرور السِّنين. صعد غاري إلى الشُّرفة يحمل علبة صودا أيضاً، وجلس على كرسي مماثل للكرسي الذي جلس عليه روني، الأسل المطلي بالأبيض، بوسائد مرسوم عليها زهور.

قال: «إذن روني، كيف تسير الأمور؟»

أجاب روني بتلقائية، تم التمرن عليه واتقانه والاستمتاع به عدة مرات في شبابهما المشترك: «عالٍ وطويل، غاري، عالٍ وطويل».

أمال غاري علبته نحو روني الذي رفع علبته بدوره، وقرعا العلبتين مرضياً. تذكَّر روني أنه توجَّب على غاري أن يتوقف عن الشُّرب منذ بضع سنوات. سنتان؟ ثلاث؟ لم يستطع التَّذكر، ولا أمكنه أن يتذكَّر أي من التفاصيل التي روتها له أمه، على الرغم من أنه كان واثقاً تماماً أن الأمر انتهى بغاري في إعادة تأهيل. لم يعد لدى غاري زوجة، وكان الطلاق معقداً بواقعة أبوته لطفلين، أو ربما كانوا ثلاثة، لم يتمكن روني من تذكر تفاصيل ذلك أيضاً. لم يرَ روني أي أطفال يجرون في الباحة الخلفية في الأسفل، لذا افترض أن طليقة غاري تتعهدهم بالرعاية وفكر: هنا وأخيراً يوجد شخص سوف يفهم أيضاً معنى الحظ السيء.

أشار روني إلى محطِّم الذرات: «هل من خطط جديدة لهدمه؟»

قال غاري: «لا، ولا أحد يرغب بشرائه. حاولوا اقناع مؤسسة «السميثسونيان» بأخذه، لكن الشيء اللعين كبير للغاية. وباهظ للغاية لتتخلص منه أيضاً».

«ألا يزال إشعاعياً؟»

«يفترض ذلك. إذا لم يكن ذلك كله مجرد حديث مخيف ليبعد المراهقين».

ابتسم روني: «هل ينجح؟ لم يكن ينجح».

ضحك غاري، واستطاع روني أن يرى أن فمه يفتقر إلى عدد من الأسنان. توفيت والدته إثر إصابتها بأحد أنواع السَّرطان عندما كانا طفلين، الآن مع رحيل زوجته، بدا أنه لا يوجد من يعتني بصحته الفموية.

رشف غاري من علبته. كانت كلمة «كولا» مكتوبة بأحرف زرقاء على خلفية حمراء وقال: «آسف للسماع عن مشاكلك، لكن والدتك سعيدة بعودتك».

«شكراً».

أومأ غاري نحو الدمعة العظيمة المعكوسة في الأفق. أدركها نور الصَّيف، فسطعت مثل الوجه الباهت لورقة ألومنيوم رقيقة.

«هل عدت إلى هناك؟»

«ماذا؟»

«كما تعلم، هل تصحب أي فتيات هناك؟» لم يكن ينظر نحو روني، بل نحو الدمعة الكبيرة.

«لقد مر وقت طويل غاري. لا أعرف أي فتيات متاحات. وتستحقه، إذا كنت تعلم ما أعنيه».

«لكن مع ذلك ألقيت بنظرة، صحيح؟»

التفت غاري نحوه وكان لا يزال يبتسم، متعرق الوجه. تساءل روني إذا كان قد وضع شيئاً في الكولا، بدا غاري تقريباً ثملاً بعض الشيء.

أجاب روني: «بلا ريب».

«بشأن عملك. المبيعات سيئة الآن أيضاً. اقتصاد ملعون».

قال كلمة اقتصاد بلسان ثقيل، وحاول روني ألا يجد ذلك مزعجاً بينما كرر غاري «اقتصاد ملعون». ثم نهض فجأة يطحن علبة الصودا الفارغة بأصابع سمينة، ما جعل الكرسي يهتز ويصدر حفيفاً على نحو غير ممتع.

قال بلكنة نمساوية خفيفة: «سأعود». ثم اختفى عبر الأبواب المنزلقة.

سمع روني أصواتاً منبعثة من أمام منزله، حيث كانت والدته تحيي جاراً أو

قريباً وصل للتو. كان عدد الأشخاص في الفناء في الأسفل يتزايد قليلاً، مع تزايد حجم الأصوات. لم يكن أحد يرفع بصره، كانت معظم العيون ملتفتة نحو الشواء حيث أشرف والده على شواء عدد من النقانق المدهنة. اشتم روني الرائحة وشعر بالجوع.

ظهرت والدته من تحت الشُّرفة، تقود امرأة مسنَّة من ذراعها. تعرَّف إليها: السيدة آش التي تسكن في أحد الطوابق السفلية. نحيلة ومترهلة وشيباء، فكر: أوه يا إلهي. لكن حينها شاهد والدته تمد يداً لترحب بشخص خلف السيدة المسنة آش، امرأة أخرى، لكنها ليست مسنة، ومما استطاع أن يرى منها، لم يكن ممكناً وصفها بالمترهلة أو بالشيباء. كانت طويلة القامة، نحيلة، ولها مؤخرة جميلة، ترتدي بنطالاً قصيراً أبيض اللون، ضيق، وساقيها مسفوعتين، جميلتين، مكشوفتين بين ثنية البنطال والصَّندل، وكان قميص أصفر دون أكمام ملفوفاً بإحكام حول نهديها. كان شعرها بنياً ومجعداً للغاية وكثيف، مرفوع نحو الأعلى في ذيل حصان مشعث على نحو جذاب. فكر: لا بد أن يكون لها وجه موظ، مع جسد مثل ذلك.

عبر غاري من الباب ثانية مصدراً صوت صلصلة، عندما دفع في طريقه الستائر العمودية التي كانت مضغوطة معاً في حشوة هزيلة إلى جانب الباب. كان يحمل ثلاجة زرقاء مدمجة، ألقاها بجانب روني كما لو أنها كانت ثقيلة الوزن. فتحها غاري، وفي الداخل لمع الذهب مثل كنز قراصنة. سحب غاري علبتين متعرقتين من نوع «مايكلوب» وناول واحدة لروني. كان الملمس البارد في يده مبهجاً في حرِّ النهار. جلس غاري ثانية في الكرسي الهامس ومعاً فتحا العلبتين، أمالاهما نحو بعضهما البعض وارتشف كل منهما رشفة. فرغت العلبتان خلال بضع دقائق. بعد عشر دقائق، كان روني يحتسي شرابه الثالث وغاري الرابع. تساءل روني كم من الوقت يمكن للثلاجة أن تصمد، كلما فتحها غاري توهجت من الداخل.

كان روني على وشك أن يطلب من غاري أن يميل إلى الأمام ويتعرف إلى المرأة ذات الجسد الجميل عندما قال ابن عمه: «هل تتذكر جوزيت؟»

استغرقت خلايا روني العصبية بضع دقائق لتتكيف، ومن ثم اصطدمت المعلومات ببعضها البعض: وجه، جسد، رائحة، وصوت.

قال: «جوزيت فويلي».

«نعم. اوه يا رجل. عادت إلى الوطن لحضور جنازة والدتها السَّنة الماضية، وبدت بالضبط على حالها يا رجل. بالضبط. نهداها مثل كرتي سلة».

انتظر أن يجيب روني، لكن عندما لم يتلقَّ جواباً تابع كلامه مومئاً نحو حرف w الكبير الذي تدلى فوقهما:

«أتذكَّر عندما أخذتها إلى هناك، كانت مثيرة للغاية. بكل ما تحمل الكلمة من معنى».

كشَّر بابتسامته التي تظهر النَّقص في أسنانه.

كشَّر روني أيضاً، وإن على نحو متضايق قليلاً. ساعدته البيرة على القول: «نعم. كانت جميلة».

قال بصوت مرتفع: «كم مرة ضاجعتها هناك؟».

«فقط مرتين». وفكَّر أن هذا كل ما تطلبه.

«صحيح، لأن والدها حينذاك حصل على ذلك العمل، حيث انتقلوا إلى مكان ما فيما وراء البحار».

«باريس».

قال غاري: «اللعنة على فرنسا، لم تستطع جذبي».

قال روني دون أن يفكر كثيراً: «إذا جذبك أحدهم قد تذهب إلى شيتسفيل

اللعينة».

إيقاعات قديمة، مثل نداء ورد. فكر: كانت سعيدة جداً، وكان ذلك كل ما استطاعت أن تتحدث عنه. باريس، باريس، باريس.

قال غاري: «أنا الآن أعيش في شيتسبورغ ».

مزحة قديمة أخرى. يقيم غاري في فورست هيلز، على مسافة قريبة من منزل والديه، للبلدة رئيس بلديتها وهكذا هي لم تكن المدينة تقنياً. لكن يقول الجميع إنهم يقيمون في بيتسبرُغ لسهولة الأمر، أو إذا كانوا يتحدثون عن الرياضة.

«ألم تتزوج من شخص هناك وحصلت على الجنسية فرنسية؟»

قال روني: «نعم، اعتقدت أنك تحدثت معها عندما رأيتها الصيف الماضي».

هزَّ غاري رأسه: «لا، هي لم تتذكرني أبداً يا أخي».

كان روني قد أخذ يشعر بالثمالة: «تزوجت ميشلان».

«العجلة؟»

«لا. شخص هو عضو في عائلة تملك شركة تصنيع عجلات».

«اللعنة نعم. هذا صحيح».

شرب روني المزيد، ولأنه كان جالساً باستقامة أمكنه أن يرى من فوق الدرابزين. كانت الفتاة التي ترتدي كنزة بلا أكمام وبنطالاً قصيراً، تتحدث مع عمه لو. ضحكت على شيء قاله لو. لم يكن روني قد تمكن بعد من رؤية وجهها، أمكنه أن يعرف فقط من ميلان رأسها والصَّوت الخافت الذي بدا أنه صوتها، الذي بدا أنه ضحك. وكان لو يبتسم طوال الوقت، فكَّر روني: لابد أن تكون جميلة.

قال غاري: «من أيضاً كان هناك؟ ماري جاليتي؟»

«أوه. نعم».

«وبريندا بيرجامو. نيا بيتراندیس».

قال روني: «ستيسي تريلسكي».

«نعم. شقراء، ظريفة، قصيرة».

قال روني: «نعم، هي ممثلة الآن».

«حقاً؟ لم أسمع بذلك أبداً».

«لقد غيَّرت اسمها، وهي تمثِّل معظم الأحيان في أفلام الرعب. لكن تمثيلها جيد جداً. أصبح اسمها ستيفاني توماس».

«هذه هي؟ يا إلهي لم أكن أعرف».

أضاف روني: «التحقت نيا بجامعة بنسلفانيا بعد حصولها على منحة تعليمية كاملة، ثم ارتادت كلية بيطرية هناك. لقد ألَّفت عدداً من الكتب. حتى أني رأيتها على قناة «سي سبان» ذات مرة، تتحدث عن واحد منها. أمر يتعلق بمرض جنون البقر».

«لا، اللعنة».

كانت الفتاة المجهولة لا تزال تتحدث إلى لو، لكن السَّيد كراي الذي يقيم في المنزل المجاور، كان قد انضم إليهما. كل ما استطاع روني رؤيته هو قفا رأسها، لكنه استطاع أن يعرف من الابتسامات العريضة على وجهي كل من الرجلين المسنين أنها لا بد أن تكون جميلة.

قال: «برياندا بيرغامو مذيعة أخبار الآن في نيويورك. أظن أنه فرع تابع لمؤسسة «أي بي سي»».

استطاع أن يشعر بأن تماسكه يتداعى، جنباً إلى جنب مع ترابطه وقدرته على الكلام بوضوح. كان يفصح أكثر مما كان ليفعل لو لم يكن ثملاً.

فتح غاري علبة.

«لم يسبق أن سألت يوماً، لكن ماذا فعلت؟ أعني، هل أخفتهنَّ بقصة بونليس بيرني؟»

«لا غاري. يا يسوع».

«لم أسمع يوماً عن أن شبحه شوهد في أرجاء المنطقة، لكن لو كنت مكانك، لكنت استعملته. قد تظن أنه سكن المكان.. هل تعلم ما الغريب في الأمر؟ لطالما ظننت بأن الرجل يكبرني سناً بكثير. لكنه لم يكن سوى في السابعة عشرة من عمره عندما توفي، لذا هو لم يكبر أبداً. غريب».

أومأ روني. لقد شعر بالأمر نفسه إلى حد كبير، على الرغم من أنه فكر بأنه قد يكون قد حط من كرامته لموافقته غاري في الرأي بقوة كبيرة.

قال غاري: «تخيل السقوط من مكان مرتفع، حتى أن عظام جسدك كلها قد تتحول إلى دقيق».

«أفضِّل ألا أفعل، شكراً».

«لم يعرف أحد يوماً ما الذي كان يفعله هناك في الأعلى».

قال روني: «كان أحمق. ألم يكن ثملاً؟»

«نعم».

عصر غاري العلبة بيده السَّمينة، وحدَّق نحو حوافها الحادة المتغضنة، كما لو أن في داخلها قطع نقدية معدنية.

مكتبة
t.me/t_pdf

«سمعت أن دماغه كان يخرج من أذنيه».

قال روني ممعناً النظر في هذه الصُّورة رغماً عنه: «لا أعرف. كنت في الرابعة من عمري تقريباً».

كان يبذل قصارى جهده ليخفي شعوره بالغثيان. لم يتمكن من أن يعرف إلى أي حد كان مقنعاً. عرف أن غاري سوف يمضي بذلك إلى أن يغرقا كلاهما في قصص رهيبة ونكات فادحة، وكانت معدة روني تبدو ضعيفة بما يكفي من شدة الإسراف في شرب البيرة، حتى أنه عرف أن هذا قد يدمر أمسيته.

كان على وشك أن يسأل غاري عن أولاده فقط ليغير الموضوع، حتى لو كان اهتمامه بهم أقل من اهتمامه ببونليس بيرني، لكن حينها سأل غاري: «إذن أين ماري جاليتي؟»

شعر روني بأن مفاجأته بدت مثل غضب وقال: «اللعنة غاري، هل تهتم لأي شيء سوى كرة القدم؟»

بدا غاري متفاجئاً، لكن روني تعهد أن يكون ساخطاً للحظة.

« كانت على متن مكوك الفضاء اللعين. منذ ثلاث سنوات. كانت في كل الأنباء الملعونة: ماري جاليتي من بيتسبُرغ. أنت تعلم كيف يفعلون. هي من قبيل العالمة».

«أوه. لا اللعنة. أنت على حق. أنا لا ألقي الاهتمام اللازم لأمور مثل تلك. لكن

أنا لست كاتباً رياضياً ظريفاً. ليس لي علاقة بالصُّحف وهذا الهراء».

انتظر روني وكان على علم أن غاري سوف يهتم من أجله، ويقر بمسؤوليته حتى لو أن روني هو الذي تجاوز حدوده.

واصل غاري واثقاً بما فيه الكفاية: «جاءني والدي بالأخبار. شاهد كل الأخبار. القنوات المحلية بأي حال. القناة الرابعة». كانت ترتسم على وجهه الآن ابتسامة سقيمة، ثمل ومداهن، وهذا جعل روني يشعر بالسُّوء، لذا ارتشف رشفة أخرى. أضاف غاري: «تينك الفتيات كنَّ متأخرات عني في المدرسة، لذا لم أعرف يوماً أي واحدة منهن حقاً فيما عدا نيا. لكن لم يكن لديها ما تقوله لي، وهذا ليس من الأمور التي يعرف والدي عنها (محطة سي سبان) وما شابه».

«نعم، حسناً، ما كنت أتابعها بنفسي كثيراً فيما عدا...»

توقَّف، حجب ذلك بارتشاف الشَّراب. كما أمل، تولى غاري الأمر عنه ثانية، لا يزال غير مستوعب أهمية الأمر عن تلك النساء.

قال غاري، عائد إلى الغبطة بالنيابة: «ما عدا أنك مارست الجنس معهن جميعاً. أنت أقمت علاقة معهن في ضوء محطم الذرات الفضي».

كان جيداً وثملاً عندما استطاع أن ينفصل عن غاري وينضم لبقية الحفل في الباحة الخلفية. لم يكن هناك من أطفال تقريباً، وهذا كان منعشاً، لكن أيضاً جعل الاجتماع وقوراً على نحو غريب، في شبابه، كان يوم الطهو في الهواء الطلق يعج بهم. حضر عدد كبير من نفس الأشخاص، لكنهم الآن أكبر سناً، ومعظمهم كانوا دون أطفال بنحو أو بآخر. رأى ابنة لو، ابنة عمه ميليسا، تصغره بأربع أو خمس سنوات ولوَّح لها.

لطالما كانت معجبة به، أو على الأقل ذلك ما أخبره إياه غاري منذ بضعة أصياف. كان روني قد وجد الفكرة مخيفة، ليس فقط لأن رابطة الدم تربطهما، لكن لأن لها

فك بارز، بشرة رديئة، وما من نهدين يمكن ذكرهما. كانت قد أنجبت منذ ذلك الحين، لذا كان لنهديها بعض الجاذبية الجنسية، لكن كانت لا تزال مألوفة.

حيته بسعادة بالغة، قائلة إن ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات في الداخل مع والد الطفلة، وهو رجل من المدينة، عرف روني أنه سبق أن التقاه، لكن لم يتمكن من تذكر أي شيء عنه. وعد روني وعداً غافلاً أن يلقي عليهما التحية لاحقاً، لكن تمكَّن من تحقيق هدفه المبدئي الذي تجلى في الحصول على معلومات عن المرأة المثيرة التي لا يعرف وجهها.

قالت ميليسا: «هل تعني دانا آش؟ هي انتقلت للتو للعيش مع والدتها. طلاق سيء. ما من أولاد».

لم يبدُ على ميليسا علمها بأنها وصفت بالضبط حالة روني. لبهجته، صاحت ميليسا: «دانا! هل التقيت بابن عمي روني؟ هو عاد الآن أيضاً».

كانت أكبر مما اعتقد، ربما يفوق عمرها أربعين عاماً، لكنها بدت عظيمة، على النحو الذي يتمكن من خلاله عدد كبير من نجوم السِّينما أن يبدو مثاليين في الأربعين أو حتى في الخمسين من عمرهم، أحياناً أكثر إثارة مما كانوا في عشرينياتهم. هو لم يعرف لذلك سبباً، ربما بنية جيدة أو مورثات ميمونة. فكَّر: ربما فقط المال. بدت مثل النقود أيضاً. البشرة مسفوعة بما فيه الكفاية لتبدو ذهبية، الشَّعر أشقر بما فيه الكفاية ليبدو حقيقياً، البشرة مشدودة بما فيه الكفاية لتبدو كما لو أنها كانت بنتيجة تمرين شديد، ما من عمليات تجميل. ابتسمت له وكانت فكرته المتعقلة تشجيعها على المبادرة بالاقتراب. في البداية تحدثا حديثاً عفوياً بمحاذاة الشِّواء، في ظل نجم العم لو السَّاطع. تبادلا الأخبار، بعض منها يعرفانها سلفاً عن بعضهما البعض. علم أنها سافرت إلى «بيت» ثم انتقلت إلى سان فرنسيسكو، حصلت على عمل مديرة لمستشفى، تزوجت من طبيب، وسكنت في منزل كبير يطل على المحيط. لم يتحدث أي منهما عن الطلاق. كانت أكبر منه سناً بما يكفي فلم يتشاركا الكثير من المعارف على الرغم من أنهما نشأا في الحي نفسه.

ثمَّ نادت السَّيدة آش بصوت امرأة مسنة: «دانا!»، وابتسمت دانا ابتسامة سريعة لروني ثم نحو لو وابتعدت إلى حيث كانت والدتها تجلس محاطة بثلاثة أو أربعة من المسنين في ثياب الجولف الزاهية. ومع ذلك شعر أن ثمة قبول لبق عبر بينهما، أبقى عينه عليها وعندما دخلت المنزل، فقط بعد ثلاثين دقيقة، تبعها دون أن يلحظ أحد.

كانت في المطبخ، تنظر إلى صورة مثبتة بواسطة مغناطيس على شكل حبة فريز على باب الثلاجة.

قال روني: «كلب أمي الأسود. بيبر. مات الكلب منذ ست سنوات».

قالت: «هذا لطيف».

مع ذلك بدت جيدة، حتى بعدما استعاد رشده إلى حد ما. كان رأسه يصفو أخيراً بعد كمية البيرة التي شربها مع غاري، ولم يستطع تصديق حظه. التفتت لتنظر إليه، ثم أشاحت ببصرها، وراحت تجيل نظرها في الغرفة. تبعت عيناه عيناها واستطاع أن يرى أنهما كانا فعلا وحيدين ولو فقط للحظة. استدار نحوها وثم انحنت إلى الأمام وقبلته على فمه، سريعاً لكن بشدة، قبلة جدية. انسحبت وحدقت فيه بعينين بنيتين مشعتين وقالت: «لا أحد يمكن أن يعرف. أنا خارجة مع صديقات الليلة. لقد عدت للتو. لا أريد أن تعرف أمي أي شيء».

أومأ ثم سأل: «هل تعرفين الطَّريق المؤدي إلى محطِّم الذَّرات؟ حيث يبرز قرب ملعب البيسبول؟»

ابتسمت ابتسامة عريضة تكاد تكون ضحكة: «أوه يا إلهي. نعم». أخفضت صوتها وتابعت: «بعد ساعتين اجلب نبيذ وسوف أجلب أكواباً. واحترس من اللبلاب السَّام».

كانت مثل مناورة عسكرية في دغل. كان الربيع قد بدأ للتو، لذا لم تكن كل

من نبتة حشيشة اللبن ونبتة فرجينيا المتعرشتين كثيفتين كما قد تكونا في شهري تموز وآب. مع ذلك، كان الدَّرب مظلماً وموحلاً إلى حد ما، لم لو يكن هناك حظر ضمني على الكلام، لكان ألقى بنكتة عن أنهما قد يستعملان منجلاً. هنا وهناك عبرا بأجمات توت العليق البري، تذكر أن ماري جاليتي أحبت أن تأكل التوت الناضج في الطريق لصعود التلة.

كان السِّياج السِّلكي على قمة طلعة، شديدة التَّحدر مثل كل منحدرات التلال في المنطقة. كان السِّياج على حاله، وهذا كان صادماً. حتى البقعة التي استعملها غالباً في الماضي لم تكن قد رتقت، حيث العقد المعدنية المطلية باللون الأخضر مست الأرض فقط بدلاً من أن تحفر فيها عميقاً.

كان السِّياج أيضاً لا يزال مائلاً في نفس الأمكنة. كل ما احتاجه كان هزة قوية، وكانت الفجوة كبيرة بما فيه الكفاية لتندفع خلالها. فكَّر: لم يتغير شيء، كم ذلك غريب؟ كان قد جلب كمَّاشة صغيرة في حقيبة ظهره، على أمل أن تكون كافية لإمالة السِّياج السلكي للدخول منه، كان يصلي أنه سوف لن يحتاج إلى قطاعات والده. ببساطة لم يكن هناك من سبيل لتهريبها من المنزل. الآن تبين أن حتى الكماشة لم تكن ضرورية.

كانت خلفه، لا تحمل حقيبة ظهر، فقط كيساً من النايلون قالت إنه يحتوي على عدد من أكواب بلاستيكية ووجبة خفيفة. هو لم يعرف فيما إذا جلبت معها عدداً من الواقيات الذكرية أم لا، لكنه يملك البعض في جيبه. هو، على حد علمه، لم يتسبب بحبل أي امرأة في حياته، وهذا كان جيداً. لم يكن واثقاً إذا كان من الممكن أن تحمل وهي في هذه السن. لكن طالما أنه لا يعرفها جيداً، كان هناك دوماً إمكانية وإن ضئيلة، لأنها كانت قلقة فيما يتعلق بساعتها البيولوجية، ورأته كمانح ممكن للنطاف. فكَّر: أنا فقط أريد لبذاري أن تنسكب حيث لن تفعل أي شيء سوى أن تستلقي هناك، مدركاً أن الاستعارة غريبة، مفعمة بالتورية، وكاد يضحك. فكَّر بمرض لم يقلقه يوماً على الإطلاق.

قالت من خلفه: «أنت على وشك أن تضع يدك على خصلة من اللبلاب السَّام».

كانت محقَّة، ارتعشت الأوراق ذات الرؤوس الثلاثة في الريح الخفيفة من أنفاسه وهو يرفع يده عن الجزء الواهي من السِّياج.

كانت تتحدث بصوت خفيض لكنه ليس بالهمس، لم يبدُ أن هناك أحد في المكان. حاذرَ من اللبلاب السَّام، رفع السِّياج إلى الأعلى فارتفع بطواعية حتى استطاعا أن يعبرا من خلاله إذا انحنيا. تقدمها في الطريق ثم أمسك مصراع السِّياج السِّلكي لها، وحالما عبرت أعاد السِّياج بعناية إلى مكانه، طريقة لطالما كان يتبعها. لبثا صامتين وهما يشقان طريقهما عبر ساحة انتظار السَّيارات، عبر أسفلت شديد التصدع وغير ممهد، بدا كما لو أن زلزالاً قلب الأوساخ السفلية.

كان الليل رائعاً وصافياً، ونجوم متألقة بمضاء في الأعلى والوهج الأحمر للمدينة مرئي فوق الأشجار جهة الغرب. ساحة انتظار السيارات الفسيحة برمتها يمكن أن ترى باستدارة واحدة من الرأس، وكان واضحاً أنهما كانا وحيدين. كانت الأصوات الوحيدة أصواتاً بعيدة: أزيز وحدة مكيف الهواء خارج المنزل القريب، دراجة نارية تنطلق بصوت مرتفع لتسرع على جادَّة آردمور، فقط على بعد تقاطعين ولكن عن عالياً فوق طلعة تغطيها الأشجار، مفرقعات نارية تطلق بقوة على طريق اسمنتي. كلها أصوات بعيدة، غير مؤذية.

حينها أمسك بيدها ونظر في عينيها. الآن كان وقتاً حاسماً، كان عليه أن يتأكد من أنها تواصل التفكير بأن هذه مغامرة رومانسية مسلية يتقاسمانها وليس فقرة قذرة قد تتحول بسهولة إذا لم يتم التعامل معها بأيدي حذرة وخبيرة. ابتسم وابتسمت وشعر بالارتياح.

قال بصوت رقيق: «لنصعد إلى المنصة». مشيراً إلى الدرجات المعدنية الصدئة التي بدأت في الظلال عند قاعدة محطِّم الذَّرة، الجاثم على مستطيل كريه مصنوع من فولاذ متموج وإسمنت.

همست: «إنه كبير حقاً عندما تكون بالقرب منه تماماً».

سأل: «هل أنت خائفة من العلو؟».

«ليس حقاً. لكني لم أعد طفلة كما تعلم؟ أنا في حالة جسدية جيدة للغاية لكن مع ذلك، كل تلك الأدراج».

«لطالما كانت متينة للغاية. حتى لو ازداد حجم الصدأ منذ وجودي هنا آخر مرة، كان الحديد سميك حقاً. لابد أن تكون جيدة».

شقَّا طريقهما نحو قاعدة الدَّرج، ووضع يدا ليعثر على بداية السِّياج. كان خشناً بسبب الصدأ وانتظر إلى أن اعتادت عيناه على الظلمة وتمكَّن من إمعان النظر ليرى إذا كان الدرج المعدني تدهور خلال ذلك العقد من الزمن منذ أن صعده آخر مرة. كانت الظلمة شديدة فلا يمكن أن ترى بوضوح، وعلى الرغم من أنه كان يحمل كشافاً لم يرغب باستعماله إلا إذا اضطر لذلك، كان هناك احتمال كبير من أن يراه أحد الجيران إذا ما كان قريباً من النافذة. هز السِّياج لكنه لم يتحرك، لذا وضع قدمه على الدرجة الأولى. بدت أيضاً قوية، الآن كانت عيناه قد ألفتا الظلمة بما فيه الكفاية فتمكن من رؤية محيط الدرج الرمادي الثابت الذي يصل حتى نتوء القبة. صعد درجتين ثم التفت ومد لها يده، أمسكت بها.

كانتا منصتين: واحدة عند الجزء الأعرض من الإجاصة المقلوبة لقمة محطم الذَّرة، وواحدة أصغر عند القمة أشبه بمنصة مسيَّجة. انتهت الدرجات في منتصف الطريق نحو المنصة الأخفض، ليحل محلها سلم، بدا أيضاً في وضع جيد، لا يزال مرفقاً بحزم، وهكذا بقية الصعود نحو المنصة الأولى لم يكن أكثر صعوبة مما عهده.

بعد أن نزل عن السُّلم مدَّ يده نحو يدها وساعدها بقية الطريق على الأرض المعدنية. لحسن الحظ، كانت من الفولاذ الصَّلب، وليست شبكة من الأسلاك

المعدنية، وإلا لم يكن لينجح أبداً في الصُّعود إلى هنا، لا يوجد كيس نوم سميك بما فيه الكفاية ليجعله مريحاً. كان غياب الشَّمس قد أضفى على التلال برودةً، وهكذا كل منهما غير ملابسه منذ الأصيل، كلاهما يرتديان الجينز وأحذية رياضية وقمصان بأكمام طويلة. كان قميصها أسود وبسيط، وقميصه كان رياضياً من قمصان فريق ستيلرز.

أخرج غطاءً من حقيبة الظَّهر، كان الاحتياطي الذي احتفظ به في صندوق تحت سريره، لذا لم يكن من المحتمل أن تفتقده أمه حتى لو دخلت الغرفة بغرض التجسس. فرد الغطاء على أرض المنصة المعدنية، ثم مد يده إلى ظهره ثانية ليخرج زجاجة النبيذ الكبيرة التي استطاع الحصول عليها من نزهة الطهو في الخارج. سحبت دانا كمشة مناديل من الكيس البلاستيكي هامسة باعتذار عن كونها «مهووسة بالنظافة»، وأحبت أن يكون في وسعها أن تمسح يديها. وضعت المناديل في جيوب بنطالها، ثم أخرجت من الكيس البلاستيكي كوبين بلاستيكيين مطوقين بزهور بنفسجية صغيرة، فصلتهما وناولتهما لروني، ففتح الزجاجة ممازحاً حول واقعة عدم وجود فلينة. ملأ كوباً وناوله لها. عندما صبَّ كوبه شربا نخباً بصمت، لم يصدر الكوبان صوتاً عندما تلامسا.

قال: «أظننا في مأمن الآن».

ضحكت بخفوت.

«إذن ما الذي جعلك تفكر بهذا المكان؟ هل تجلب جميع النساء اللاتي تلتقيهن إلى هنا؟»

هز رأسه مرتشفاً رشفة أخرى من النبيذ المنكَّه بطعم الورق وقال: «فقط المميزات من بينهن». ضحك أيضاً، وهو يشعر بالهواء يلفحه، يرى النجوم على سجادة الأشجار في الوادي تحتهما والتي كانت في الحقيقة أضواء الضواحي الشرقية، فرساي الشمالية، وتورتل كريك. أسماء غريبة لأماكن ليست شديدة

الغرابة التي صنعته. «الحقيقة هي أني لم أكن هنا منذ خمسة عشر عاماً، منذ سنتي الأخيرة في المدرسة الثانوية».

«حقاً؟ أظن أني حقاً مميزة».

ضحك ثانية ولم يخبرها أنه لم يكن في الوطن منذ ذلك الحين مدة كافية ليصبح الأمر ذا شأن بأية حال.

«ألم تتسللي يوماً إلى هنا؟ ربما في تحدٍ ما لصعود القمة؟»

قالت: «أنا لا أقبل التحديات. بالتأكيد كنت هنا. الجميع يأتي إلى هنا عاجلاً أم آجلاً. لكن منذ وقت طويل جداً. وحتى عندما كنت طفلة صدقت كل القصص عن الإشعاع».

كان على وشك أن يذكر شبح بونليس بيرني، لكنه أعاد النظر في ذلك. كان شعرها لا يزال مرفوعاً في ربطة ذيل الفرس المنتفخة الظريفة تلك وقال: «أحب أن أقبلك».

أجابت: «أحب أن أقبلك أيضاً. لكن ليس بعد».

أومأ واستند إلى الوراء، مستريحاً على المعدن المقوس خلفه.

سألت: «هل أنت واثق من أنه لم يعد مشعاً؟».

قال: «ليس لدي أدنى فكرة. لكني لست مهتم بإنجاب الأطفال، لذا لا أظن أنه يهم كثيراً».

«مع ذلك، لا تريد أن تموت شاباً من أجل سبب غبي مثل ذلك-لأنك استندت إلى بناء صادف أنه سممك».

قال على الرغم من أنه لا يعرف حقاً: «أظن أنه محمي. لا أستطيع أن أصدق أنهم كانوا ليدعوه هنا إذا كان ينشر الإشعاع في أرجاء الموقع برمته».

«حسناً، هم لا يتوقعون وجود أشخاص يتدحرجون هنا».

كان هناك ابتسامة في صوتها، واستطاع أن يعرف أنها لم تكن قلقة حقاً، لذا قرر تغيير الموضوع.

«سأخبرك عن خرابي إذا أخبرتني عن خرابك».

«هل هو حطام قطار؟»

صب لهما المزيد من النبيذ قائلاً: « كلانا عدنا للتو للعيش مع أهالينا. لم أفعل ذلك لأن ذلك جعل حياتي أكثر جدارة بالعيش. بل لأنه توجب عليَّ أن أفعل ذلك. لا أريد أن أجمِّل الأمر نفسه بالنسبة لك، لكن على الأرجح أنت لم تعودي إلى الوطن لأنه مطمح حياتك أيضاً».

ضحكت ثانية، كشف صوت ناعم محبب عن أسنان مثالية نيِّرة في الوهج الناعم لضوء الشارع على الجانب القصي للمبنى من خلفهما. أشع حول الهيكل المعدني الضخم مثل ظل معكوس.

قالت: «أضاع شهادته الطبية. محاولات ابتزاز كثيرة من عدة شركات أدوية. احتيال طبي صغير. هو الآن في تاكوما، لم أكن مهتمة باللحاق به».

قال مبتسماً: «يا رجل، هذا بارد».

«ليس بارداً كالحياة في حي فقير في سان فرنسيسكو. ماذا عنك؟»

«قصة مشابهة. لكن أخلاقياً لم أرتكب أي شيء خاطئ. لا أقصد إهانة زوجك السابق».

«يسمح لك بأن تهينه كما تشاء».

«شكراً لك. خسرت عملي للتو، تخفيض العمالة، الاقتصاد». فكر في غاري ثم حاول ألا يفعل.

قالت «نخب الاقتصاد الملعون». ولفظت الكلمة الأخيرة على نحو مناسب وشربا نخباً ثانية.

جعل نسيم دافئ خصلة بنية ترقص بحذاء أذنها اليسرى عندما أضافت: «إذن كم عدد الفتيات اللاتي جلبتهن إلى هنا بالضبط؟»

توقف، ثم فكر: سوف تضحك لكن لا بأس: «إحدى عشرة».

أخذ نفساً عميقاً. كان الهواء مشوباً برائحة الكبريت المنبعثة من مصنع فولاذ الوحيد متبق في برادوك، على بعد عدة أميال. هو لم يتذكر متى ملأت المصانع الأرض وجمدت السماء بالنار والدخان. لكن فكر: قد تفعل. كانت الفكرة مجفلة قال: «هناك أمر يتعلق بذلك، أمر مثير».

«ما هو؟»

سمع ثانية الابتسامة في صوتها. فكر: سأفعل معها هنا كالأيام الخوالي. سوف لن تكون الطريقة الصحيحة لكن لا بأس، واحدة من مزايا أن تكون راشداً هو فهم فرح الإشباع المؤجل.

«الأمر المشوق يتعلق بالفتيات، جميعهن جرت لهن أموراً بعد أن صعدن معي إلى هنا».

«ماذا؟»

شابت صوتها بعض الحدة، ربما من الخوف، وأدرك كم قال ذلك على نحو

رديء. هي لم تعرفه حقاً وقد تظن أنه قصد أمراً سيئاً لذا سارع إلى القول: «لا، لا، أنا أعني أموراً جيدة».

أفرغ الكوب ومد يده نحو الزجاجة.

«حقاً أمور جيدة. مثلاً أثرين فجأة أو فعل آباؤهن، أو حصلن على منحة تعليمية، أو دخلن الفرع الذي يرغبن به في الجامعة، حتى لو لم يكنَّ يتوقعن ذلك».

نظر إليها وكانت تنظر، لكن كان من الصعب تفسير قسماتها حتى مع أن بصره ثاقب الآن لأنهما أمضيا الكثير من الوقت في الظلمة.

« حدث كل مرة. حصلت كل واحدة منهن على ما أرادته حقاً، أرادت إحدى الفتيات حقاً أن تكون رئيسة مشجعين وتم اختبارها بعد أسبوعين على نحو غير متوقع، بعض منهن الأمر الجيد حدث لهن بعد وقت أطول بقليل، لكن جميعهن، كل واحدة منهن حصلت على حياة عظيمة منذ ذلك الحين، حتى الآن بأي حال، كل واحدة».

لبثت صامتة إلى حين، واستطاع أن يشعر بقلبه يدق أسرع قليلاً، وانتظر دون أن يملك أدنى فكرة عما قد يكون عليه رد فعلها ثم قالت: «أنت تساعدني، هل هذا ما تقوله؟»

ثم كانت تضحك، وكان في بادئ الأمر منزعجاً قليلاً، بل مجروحاً، لكن ثم شاركها الضحك عندما أضافت: «أنت تعويذة حظ سعيد، هذا رائع جداً».

وضع ذراعه حول كتفيها، وسمحت له بذلك. توقع أن تلقي برأسها على كتفه، لكن بدلاً من ذلك تناولت جرعة أخرى وأفرغت الكوب، ثم رفعته له. مد ذراعه ليصب لها ثانية. الهواء برد وبدأ يتحرك أكثر من حولهما، وكان هناك سحب رمادية تظهر هنا وهناك في السَّماء، سحب صغيرة ببطون زهرية اللون من المدينة

في الأسفل بعيداً. التقط الضوء المحيط أسنانها البيضاء المستقيمة وهي تكشر له ثم قالت: «ذلك مدهش. مدهش حقاً».

قال والارتياح يحكم قبضته عليه: «أعرف». وأدرك كم تشبث بشدة بهذه الحقيقة حول نفسه، حقيقةً لم يسبق له أن تقاسمها مع أحد، حتى زوجته. بالتأكيد، لم يسبق أن أتى بزوجته إلى هنا. الآن وقد تركته في اللحظة الحرجة، كان مسروراً: «أنا مرتاح لأنك لا تظنيني غبياً. لا تفعلين، أليس كذلك؟»

كان يشعر بأثر الخمر الآن، ثملاً للمرة الثانية ذلك اليوم، وفكر: من الأفضل أن أبطيء إذا كنت أريد أن ينجح كل شيء لاحقاً.

أضاف: «خطر لي أنه كان حظاً بالنسبة لي أيضاً، على الأقل حتى عهد قريب، وفكرت: حسناً، إذا كنت سأكون متوهماً، ربما أيضاً أقطع الطريق إلى آخره. ربما جلب لي الحظ أيضاً، بوضعي على الدَّرب الصحيح، أو شيء ما. وأنا واثق من أني قد أكون على الدرب الصحيح ثانية. لذا ربما يمكننا أن نحصل على شيء ما منه».

فكر: أنت ثمل، كفَّ عن الكلام.

انزاحت فجأة مجفلة إياه. وضعت يدها على كتفه واستعملتها لتسند نفسها وهي تقف. تمايلت قليلاً وأدرك أنها كانت ثملة أيضاً، انتقلت يدها من كتفه إلى جانب محطِّم الذَّرة وهي تحاول أن تتوازن. ثم سحبت يدها بعيداً وهي تنظر إلى القمة حيث ضغطت يدها على المعدن كما لو أنها تتوقع أن ترى أثرها في الضوء الكابي.

قال: «إنه ليس إشعاعياً».

على الرغم من أنه لم يعرف في واقع الأمر إذا كان هناك أي خطورة من جراء لمس الحديد العاري. لقد فعل ذلك مرات كثيرة فيما مضى، ولم يتمكن من تخيل وجود شيء سام حول المكان، لكنه لم يعرف شيئاً عن الإشعاع، بل عن

الرياضة، بحق المسيح، عن معدل الضربات، وخدع القبعة، والمهن التي صنعت بمآثر استثنائية من القوة والتنسيق، وفقدت بتمزيق الأعصاب والإدمان. فقط ليس بعد الآن. أنت فقط لست جيداً إلى درجة كبيرة.

نهض مثبتاً نفسه بنفس طريقتها، يده على المعدن المقوس الدافئ. فكر: إنه دافئ لأنه تعرض لأشعة الشمس طوال النهار، وليس لأن ذراته تتقد.

قالت: «أريد أن أصعد. تقول كل كتب المساعدة الذاتية التي قرأتها إن عليك أن تجازف لتصل إلى أي مكان. أنت تصنع حظك. سوف نمنح الحظ الجيد لبعضنا البعض. لنجازف، لنصعد».

قضيبان أفقيان أفضيا من المنصة إلى أسفل السلم العلوي، أمسكت القضيب العلوي وهي تخطو على السفلي ثم بدأت تشق طريقها نحو اليسار قبل أن ينهض روني على قدميه تماماً.

قال: «دانا»، مستعملاً اسمها للمرة الأولى، صورة لها تتعثر على بعد نحو أربعين قدماً نحو الأسفل على الأسفلت المتصدع في عقله غير الراغب، ربما دماغها يخرج من أذنيها.

تجاهلته وصعدت السلم دون أن ترخي قبضتها، بينما نظر روني أسفل بخوف متنامي. ثم بدأت تصعد ببطء أولاً ثم زادت من سرعتها عندما تحول السُّلم إلى درجات وهو يتقوس نحو القمة. كان هناك درابزين على كلا الجانبين فلمسته بخفة فقط كما لو أنها لم ترغب أن تتسخ يديها أكثر مما يجب. عندما كانت جزئياً خارج مرمى النظر، توقفت والتفتت قليلاً لتنظر نحوه في الأسفل، جسدها فقط صورة ظلية سوداء إزاء السماء الملونة باللونين الزهري والرمادي. كانت الريح تهب بقوة أكبر الآن، وبدا شعرها يلوح نحوه من حدود ذيل الفرس البري. نادت بنعومة تحمل الريح صوتها بعيداً عنه: «تعال روني، كن تعويذة الحظ السعيد لي».

وهكذا تلقف السياج الأفقي، ممتناً أنه لم يكن يخشى المرتفعات حتى وهو في كامل رشده، على الرغم من أنه عرف أنه إذا نظر أسفل، أو فكر كثيراً بما كان يفعله، لتغير ذلك. مشى جانبياً إلى أن بلغ السلم، فقط ربما خمس عشرة قدماً، ثم نقل ثقله على السُّلم نفسه، وشعر بارتياح عميق لأنه بدا متيناً. لقد أصدر صريراً قليلاً فقط عندما أرخى بكامل ثقله عليه، وهكذا أخذ يصدق أن أياً منهما لن يتبع الدَّرب الطائر لبونليس بيرني. صعد روني أعلى وأعلى متجاوزاً نقطة تقوس السلم إلى درجات، عندما استقر، كان التغيير محيراً، جاعلاً أمر معرفة مركز توازنه مضللاً، لكنه واصل المضي إلى أن بلغ القمة أخيراً.

كانت المنصة عند القمة أكبر بقيل من عش غراب، مع مكان لا يتسع إلا لوقوف شخصين بارتياح. كانت محمية بسياج معدني يصل حتى ارتفاع الخصر، وكانت تمسك به بكلتا يديها، ظهرها إلى الحافة، مواجهة إياه، لذا عندما استطاع الوقوف حراً على الدَّرج يتنفس بصعوبة إلى حد ما، لم تفصله عنها إلا بضع بوصات. عرف أن المنظر كان مذهلاً، كان في صباه يفضل البقاء في الأسفل إذا كان في صحبته أحد، بسبب ضيق المكان هنا في الأعلى، وحتى ليلاً يستطيع رجال الشرطة بسهولة أن يرونك في القمة إذا ما نظروا. لكنه تذكر الآن أنه قد أحبَّ ذلك، أحبَّ الزحف إلى هنا بنفسه في بعض الليالي عندما كان وحيداً أو في صحبة فتاة جريئة على نحو خاص، لم يطل البقاء يوماً، وكان الصعود مخيفاً دوماً، لكنه كان جديراً بذلك.

أفلتت دانا السِّياج، ووضعت ذراعيها حول خصره، وقبلته بشدة على فمه، لسانها يملس أسنانه. ثم مدت لسانها تمص لسانه بضراوة ثملة أثارته بطريقة لم يعرفها منذ المراهقة. انسحبت وضحكت بنعومة شديدة لم تسمع مع هبوب الريح، لكنه استطاع أن يشعر بها تشع منها، فقط جعلتها أكثر فتنة وإثارة وسخونة وهذا ما كان بحاجة إليه. قالت واستطاع أن يميز صوتها في الريح التي عصفت بالنجوم فوق رأسيهما: « كان هذا المكان تعويذة حظي السعيد أيضاً. ربما لم تكن أنت روني. ربما كان المكان نفسه».

التفتت تدفع وركيها على السياج، وهو ضغط نفسه على ظهرها، ضغط نفسه في مؤخرتها، في خلفية فخذيها.

كانت تقول: «روني أنا لم أفكر يوماً في ذلك من قبل، لكنك كنت على حق. كل ما هو جيد بالنسبة لي بدأ هنا».

حف جسدها بجسده وهي تلتفت مواجهة إياه ثانية، وكانت تحمل في يدها منديلاً، وكل ما استطاع التفكير فيه كان الاستمناء، في حين احتاجت شيئاً لتقي نفسها من أن تصبح لزجة كلياً. تمكن من أن يشتم رائحة القهوة في نفَسها الدافئ عندما قالت في فمه: «اعتقدت أنها كان مجرد صدفة، حظ سيء. لكنه كان مثل تضحية أو شيء ما. منذ عشرين عاماً. هل هذا رقم مهم؟» ضحكت وحاول روني أن يفهم ما كانت تقوله. واصلت: «ربما عشرين عاماً هو الحد، أنا لم أقصد حدوث شيء، لكن ربما لهذا السبب كل شيء سار على نحو جيد جداً بعد ذلك. حصلت على كل ما أردته».

ثم أدرك روني أنها كانت تتحدث عن بونليس بيرني، وشعر بيديها مثل مكبسين على صدره، تضربان بقوة شديدة مؤلمة، ومن ذا الذي يتوقع من امرأة أن تكون شديدة البأس بحيث تتمكن من إيلامك إلى هذه الدرجة؟ ثم شعر كما لو أنه كان يسبح، غير أنها كانت سباحة في الهواء بدلاً من الماء. ضرب شيئاً بدا حاداً مثل طلقة، ثم عاد حراً ثانية، يسقط وكان كما لو أنه في جولة في موكب احتفالي، إذ أنك تعرف أنه خطأ رهيب حالما يبدأ بالحركة، لكنك لا تستطيع الخروج منه، وحتى خلال الظلمة استطاع أن يراها، حتى الآن، ترمي له بقبلة، وتمسح الحاجز عند قمة الدمعة الهائلة المقلوبة قبل أن يلتقي بالأسفلت المتصدع.

صلاة استسقاء

نانسي مارتن

نانسي مارتن هي مؤلفة لثمان وأربعين رواية من فئة رواية الألغاز، التشويق، الرواية التاريخية أو الرومانسية. رشحت لجائزة أجاثا عام ٢٠٠٢ عن أفضل أول رواية غموض، «كيف تقتل مليونيراً» ربحت جائزة رومانتيك تايم عن أفضل رواية غموض. مع نشر «سيدة الخداع الطاهر» عن دار مينوتور عام ٢٠٠٩ أنشأت سلسلة ألغاز تجري أحداثها في بيتسبرغ وشخصيتها الرئيسة «روكسي أبروزو». تعيش مارتن الآن في بيتسبرغ وهي عضو مؤسس لكتاب «بين».

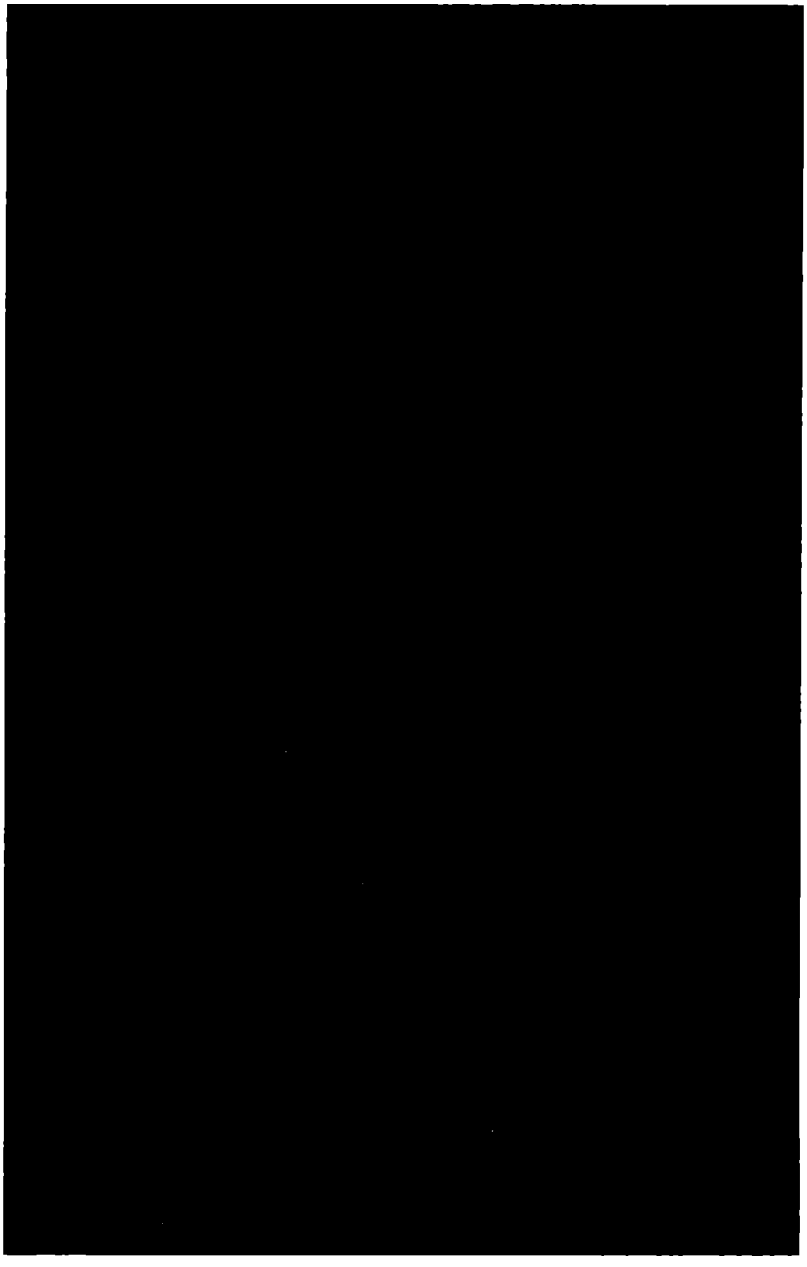

عندما ارتفعت مياه الفيضان، توجهتُ إلى متجر البقالة، لأن ذلك ما يفعله الناس العاديون. يشترون الحليب والخبز ومناديل ورقية للمرحاض، وتشتري الفتيات الجيدات أيضاً حاجات لجيرانهن.

عندما عدت من المتجر حوالي السَّاعة العاشرة صباحاً، ركنت السَّيارة في حوض السُّفن، وتلقَّفت كيس البقالة من مقعد المسافر. اندفعت بقوة وركضت عبر السَّاحة، راجية أني بدوت مثل شخص عادي-من لا يشغل فكره شيء سوى اجتياز العاصفة. تساءلت، قبل أن أصل البوابة التي تفضي إلى مكان انطلاق القوارب، كم جرف الفيضان.

سحابة عطلة نهاية الأسبوع، تسارع إعصار استوائي شنيع فوق الخليج، وعاث فساداً عبر لويزيانا، قبل أن يتجه نحو المسيسيبي. حمل زخم العاصفة طقساً ثقيلاً وصل حتى «أوهايو ريفر فالي»، وأخيراً استقر هنا في بيتسبُرغ، حيث فاحت من الطوفان رائحة كما لو أن المحيط تساقط لمدة ثلاثة أيام دون توقف. ما إن ارتفع منسوب الأنهار الثلاثة حتى بدأ علماء الأرصاد الجوية على التلفاز يعوون حول الفيضان الذي حدث عام ١٩٣٦، ما جعل جميع سكان المدينة يحتشدون في متاجر البقالة لشراء المؤن.

انزلق حذائي الخفيف القديم عند أعلى الممر الانسيابي، وتشبثت بالبوابة المفتوحة لاسترد توازني. كان مركبي الذي أسكنه لا يزال هناك، سلاسله مشدودة بإحكام إلى مرابط رصيف الميناء، لكن الماء كان قد ارتفع مسافة قدم أخرى على المنحدر الاسمنتي خلال السَّاعة التي استغرقتها في الذهاب إلى المتجر والعودة منه. الآن جرف نهر «أليغيني» أكواماً من الخردة والحطام، بمحاذاة المراكب القليلة المتبقية المربوطة عند حوض السُّفن. عامَ وجار كلب فارغ بالقرب، قاطراً جزءاً

من سلسلة. تمايل نصف «سانتا» بلاستيكي على معمعة الماء البارد العكر. تدحرج مع التيار إلى أن ارتفعت يد ترتدي قفازاً في الهواء، كما لو أنه يهتف لزورق نجاة.

حدقت بسيل القمامة المندفع على الفيضان وقلت: «أوه، يا إلهي».

من منبع النهر، ظهرت فجأة شجرة ضخمة من الاندفاع المؤلف من جذور موحلة، جذع سميك، أغصان وكل شيء-تتوجه مباشرة نحو حوض السُّفن. التقطت أنفاسي عندما ارتطمت الشجرة بالهاينز، وهو طرَّاد خشبي قديم عند أول منزلق. تردد صدى الرعدة على طول رصيف الميناء، انفلت الهاينز من مرساه. لما كان غير مزود بالرجال. دوَّم المركب نحو القناة. تفتَّقت فجوة مسننة في بدنه، وانصبَّ ماء عكر بني اللون فيه، يدحرج المركب نزولاً.

فرَّ مالكوه كما هرب الجميع تقريباً، وكانوا غائبين فلم يروا سيدتهم المسنة الكبيرة تندرج في النهر. جرفها التيار السَّريع بمحاذاة باحة الإنقاذ القديمة ومصنع الفولاذ المغلق نحو السَّد. وفيما كنت أراقب، اصطدم المركب بالسَّد وتصدَّع. انجرف سطحه العلوي البهي على القناة واختفى، لكن البقية، الأشغال الداخلية القبيحة للمركب القديم-علقت هناك عند الحافة، تموج وتئن مع الفيضان. غرقت أخيراً في الماء العكر لتنضم إلى النفايات الصِّناعية الراكدة أسفل هذا الامتداد من النهر. كان هناك مزبلة تحت مائية مليئة بالرعب، لم أرغب بالتفكير فيها.

ظلت الشَّجرة عند الحوض، مع ذلك، اشتبكت تحت سطح مياه الفيضان بجانب مركبي. أوقفها العائق المستتر مثل مرساة انزاحت بخفة فقط مع إيقاع الماء المرتفع.

هرعت على درجات الإسمنتية نحو رصيف الميناء. وثبَّتُّ عدداً من المزالق من حيث ربط مركب الهاينز، ركب مركب عائلتي على الفيضان عالياً. لم يكن رشيقاً على الماء أو جميلاً مثل الهاينز، ولو بقدر ضئيل، لكننا استعملناه للتسكع مع اتجاه مياه النَّهر نحو الملعب لانتظار الكرات الطائرة في ليالي الصَّيف الدافئة، لذا

كان لا يزال صالحاً للإبحار. فكرت بأنه سيكون في مأمن وهو مربوط إلى رصيف الميناء هذا. اعتقدت أننا كلانا سنكون في مأمن.

تلقَّفت سياج المركب وقفزت نحو رصيف الميناء. شعرت باندفاع السَّيل تحت قدمي المتداعيتين. أمسكت الدرابزين المبلل، وتسلقت حول مؤخرة المركب لأنظر نحو السِّياج المقابل. ترنَّحت الشَّجرة في التيار هناك، فقط على مسافة قصيرة.

من المنزل المجاور، خرج «رالف بوتر» إلى ملاذ عتبة مقصورته. كان حافياً وعاري الجذع، على الرغم من برودة الطقس، يرتدي بنطال جينز ينزلق على وركيه. كشَّر ونعر عبر المطر.

«إنه وقت الكتاب المقدس لوري. نحن آخر من بقي! من الأفضل أن تحزمي أمتعتك وتجدي غرفة في فندق».

صرخت: «هل أنت مغادر رالفي؟»

ضحك وهزَّ رأسه. رفع فنجان قهوته لي-ربما كي يساعده على أن يستفيق من تمالته.

«سأذهب بسفينتي!»

كلام عظيم، لكن ذلك كان رالفي. جاء إلى البيت من «بغداد» وفي عينيه نظرة مجنونة. عرفت أنه تاجر قليلاً بالمخدرات ليكسب قوت يومه، لكن بخلاف ذلك، تسكَّع حول حوض السُّفن: يشرب، يصيد السَّمك، وأحياناً يكون يائساً للغاية.

صرخت: «ماذا عن هذه الشَّجرة؟ يمكن لها أن تمحونا جميعاً!»

نادى ضاحكاً: «صلي لينهمر المزيد من المطر، السَّبيل الوحيد كي تغادر تلك الشَّجرة هو مزيد من الماء!»

«سوف نغرق جميعاً!»

مزيد من الضَّحك: «أو، تعلمين أن عدداً أكبر من المراكبيين غرقوا بسبب البيرة وليس بسبب الفيضانات!»

كان محقاً، بالتأكيد. وجدت جثث معظم المراكبيين الغرقى وكانت سحَّابات بناطيلهم مفتوحة.

«هل نمتِ ليلة أمس؟»

«نمت مثل طفل رضيع! لم أسمع مطلقاً صوت رعد أو برق. أنت؟»

«لا، لم أنم طويلاً».

بتعقُّل، سحب بقية ساكني مجتمعنا الصَّغير في حوض السُّفن مراكبهم من الماء، قبل أن يبلغ النَّهر رسمياً مرحلة الفيضان، عندما بدأت تثور ثائرة أكثر الأنقاض ثقلاً. جاء البارحة رجال الإطفاء ليرسلوا تحذيراتهم وقالوا: «اخرجوا الآن لأننا لن نعود لإنقاذكم لاحقاً».

أطاع جميع الزبائن الدائمين ورحلوا قبل حلول الليل، فيما عدا رالفي المجنون، وأنا.

«إذا أصابك الهلع تعلمين بمن يمكنك أن تستنجدي، صحيح؟»

استعرضت تكشيرة وأومأت: «هل لديك مؤونة؟»

«قد استعمل بعض القهوة».

رميت له علبة. التقطها بيد وضمها إلى صدره العاري. فوقنا، توقفت عربة نقل خفيفة سوداء عند حوض السُّفن وانزلقت على الأسفلت الزلق. خرج من الشاحنة

رجل يرتدي لباس العمل وسترة فرائية، هاتف خلوي إلى أذنه. أنهى المكالمة، ثم ركض عبر ساحة انتظار السَّيارات. دفع البوابة التي تركت مفتوحة بعد أن هرب آخر مراكبي على عجل.

صرخ باسمي وخلع قبعة معطفه. كان «نولان ماك كيليب». رفع رالفي حاجبه وتوارى في مركبه.

تمتمت لنفسي: «ماذا الآن؟» لكني رفعت يدي ولوحت لنولان.

تخطَّى منحدر المراكب الاسمنتي، حيث ماجت الرغوة والأنقاض على المنحدر، وتوجه نحو موطئ زلق. عوضاً عن ذلك، نزل الدرج وفشخ على نحو عازم على الممشى الخشبي، الريح من خلفه. ثم رأى الشجرة الضخمة، تركب الماء على نحو خطر بالقرب من مركبي.

صرخ فوق هدير النهر: «هل أنت مجنونة؟ سوف تنجرفين!»

صرخت: «إنها مغامرة! هل تساعدني بالسلاسل؟» نجحت ببعث بعض البهجة.

«ماذا في وسعي أن أفعل؟»

«سوف أرمي هذا لك. خذه إلى أشجار الصنوبر تلك واربطني؟»

أومأ ورفع يديه ليتلقى الحبل.

رميت كيس البقالة في المقصورة ما عدا قهوتي، ثم ربطت عوامة إلى حبل ملفوف من النَّايلون ثم رميته ببراعة-مهارة لا تنسى أبداً مثل ركوب الدَّراجة. التقطه نولان بغير اتقان، فهو ليس مراكبي، ثم كافح على الضِّفة الموحلة ولفَّ الخيط حول شجرة صنوبر. ربط عقدة متشابكة لكنها متينة. كررت العملية، وربط الخيط الثاني إلى شجرة أخرى. عاد على الضفة يفرك القذارة عن يديه، ولم يكن هناك شيء

لفعله سوى دعوته للبقاء.

ناديت: «هل تريد أن تأتي؟».

لكني سمعت افتقار نبرة صوتي إلى الحرارة. إذا أحس بها أيضاً فقد تجاهلها.

قفز نولان عن رصيف مبلل إلى رصيف متحرك، وأمسكت بذراعه لكنه لم يحتج لمن يثبته. استقر بخفة وأخذني في عناق-تجربة لأنه ولع بطرق الحديد والعمل في الحدادة في مرسمه. لديه عضلات الآن، وأكتاف بدت رائعة لتتمسك بها. شعرت بالأمان للحظة وأنا مطوية في هيكله الدافئ.

لكن حينها نظر إلي عن كثب واتسعت عيناه: «يا يسوع ما الذي حدث؟»

«لا شيء. كنت أحاول أن أشغل المضخة، لكن الرافعة ارتدت علي». بدأت أبتعد واستأنفت: «خطأ سخيف. يبدو أسوأ مما أحس به».

لاطف نولان خدي بيده الدافئة: «حبيبتي».

هززت رأسي لأتفادى لمسته. ابتسمت نحوه لأتشرب وخزة ذلك الرفض الضئيل، وأملت ألا تبدو ابتسامتي زائفة.

لم أخلع ممطري في المقصورة وقلت: «ادخل قبل أن تتبلل. إنه ليس بالكثير، لكنه بيت».

فتح سترته الفرائية، نفض المطر عن شعره، ونظر حوله. حاولت ألا أتخيل ما فكَّر فيه. بدت الحجرة مثل شقة صغيرة لطالب مهمل بعد التخرج. أو ربما لهارب مطارَد. سرير غير مرتب في فجوة في الجدار، ومطبخ مكوم بأكثر قليلاً من: طبق حار، ثلاجة صغيرة، ميكروويف، وأطباق في المغسلة. كان لضوء الصَّباح الرمادي أثر قليل في نشر الدفء في المقصورة.

كان شديد الاختلاف عن منزل العربة المحوَّل، حيث عشت قبل أن يبدأ كل شيء. في عقار والدي، كنت أملك إدارة الأرض ونصف المنزل المتنقل كمرسم. أشرفت شقتي على حوض للسباحة، وكانت مؤثثة بملابس أمي المنبوذة النَّفيسة، ولوحات لأصدقاء وأقارب. ليلاً، وأضواء صغيرة بيضاء تلمع في الأشجار، كان مكاناً أنيقاً للحفلات، عندما كانت تنتابني الرغبة في أن يكون لي أصدقاء كي نشرب معاً ونتحدث.

كم بدا ذلك بعيداً الآن، حتى لو أن المكان لم يكن يبعد سوى مسافة ميل أو اثنان عن المنزل المركب.

نظر نولان نحو حامل لوحاتي وعلب الألوان التي كانت مكنوزة غير مستعملة في زاوية، مع شبكة من العوامات والمصدات. اكتملت الصُّورة بزوج من علب بيرة مهشمة في الفوضى.

التفت نحوي مقطباً: «لوري، لا يمكن أن تكوني جادة بشأن البقاء هنا».

قلت: «أعرف ما أفعله. لقد ركبت الزوارق طوال حياتي».

«لكن ما الهدف من البقاء؟ هذا الطوفان خطر».

«إنه حيث أعيش الآن، إنه بيتي».

«لكن انظري، أمك اتصلت بي. هي هلعة للغاية».

«اتصلت بك من بين كل الناس؟ لماذا؟»

«قلقت، لهذا السَّبب. أنا أيضاً. البقاء هنا جنون».

«أنا لست حمقاء. سوف أغادر إذا ازداد الأمر سوءاً. قهوة؟»

قال نولان: «ليس مجرد الطوفان. قالت إن دنيس اتصل بالمنزل».

التقطت كيس البقالة ودفعت جانباً بعض الأطباق لأفرغ له مكاناً على نضد المطبخ. ثم تلمست بحثاً عن ركوة القهوة أحاول أن أبعد الذعر.

«قالت إن دنيس كان ثملاً على الهاتف معها، هل كان هنا؟»

«أي أحمق سيأتي إلى هنا في طقس مثل هذا؟» جمعت بعض الظُرف ومنحته ابتسامة مهزوزة من فوق كتفي.

قال نولان وهو لا يزال متجهماً: «نحن نخشى على سلامتك».

قلت باستخفاف: «وأنا كذلك. ولهذا السبب ذهبت إلى الشُرطة. هل تمانع إذا سخنت بعض القهوة بدلاً من تحضير قهوة جديدة؟»

«لا أهتم. لوري...».

«انظر، أنا أثمِّن قلقك. حقاً. لكني لست عاجزة. لماذا يعاملني الجميع كما لو أني ضعيفة؟ سوف تعتني الشُرطة بدنيس. علينا أن ندع القانون يأخذ مجراه».

أمسك نولان بذراعي وسحبني نحوه: «انسي أمر القهوة، تحدثي معي».

نظرت نحو وجهه القلق، حاولت أن أتذكَّر منذ متى أعرف نولان. كان في دائرة معارفي منذ قبل ما أستطيع أن أتذكر-ابن عائلة أصدقاء في دائرة اجتماعية مخلخلة. عندما توفي جدي، وكنت أبلغ من العمر ستة عشر عاماً، جاء بوقار إلى الجنازة مع والده -كلاهما في بدل وربطات عنق-ورأينا بعضنا البعض باهتمام خفي. بعد شهور هرب لي شراباً من البار في حفل زواج قريب في نادي ريفي فاخر. عندما أعطاني الكأس لاحظ نولان الطلاء تحت أظافري وذهبنا إلى الخارج لنتحدث عن الفن في هواء المساء والموسيقى تعزف.

ذهب أخوته الأكبر سناً إلى التجارة والقانون، لكن نولان نشأ فنياً ووجدانياً. مع عين بصيرة وشغف أيضاً. تطور لعب الركبي نحو صنع أجهزة خلوية ضخمة من الفولاذ -اشترتها الشَّركات لتعرضها في مقراتها الرائعة. انفصلت طرقنا أنا وهو، لكن كان هناك إمكانية بيننا إلى حين.

راقبني نولان بملامح هادئة للغاية: «أخبريني الحقيقة، هل جاء دنيس إلى هنا لرؤيتك؟»

«لا بحق السَّماء».

لم أستطع أن أكون واثقة فيما إذا صدق أم لم يصدق.

ترك ذراعي وقال: «أمك تقول إن هناك سلاح على المركب، هل هذا صحيح؟»

«ليس لدي فكرة، ربما كان منذ سنوات لكن بالتأكيد ليس الآن».

«لدي واحد إذا احتجته».

ذلك فاجأني لكني قلت: «لن أعرف كيف استعمل مسدس».

نظرة نولان لم تهتز.

«أجريت بعض الاتصالات بعد أن اتصلت بي والدتك. تحدثت إلى أخيه. لوري، دنيس اتصل من هذا المكان الليلة الماضية».

فجأة لم أستطع التنفس.

« كيف تعرف ذلك؟»

«كان لديه تطبيق على هاتفه النَّقال-جي بي اس. وكذلك أخيه. قام بالاتصال لوري. هل رأيته؟»

«بالتأكيد لا».

«لكن الاتصال».

«ربما أتى إلى حوض السُّفن».

دون تأكيد، نظرت من النافذة وحاولت أن أتذكر. كم طويلاً تركت السَّتائر مفتوحة ليلة الأمس؟ استجمعت شجاعتي وقلت: «نولان، لا أريدك أن تتدخل في هذا».

«في ماذا؟»

«دنيس وأنا».

«يا يسوع، هل عدت إليه؟»

«يا الله، لا».

«إذن لماذا...؟»

«من فضلك، لا أريدك أن... دنيس سوف يذهب أخيراً، لكن حتى ذلك الحين يجب أن تبقى بعيداً».

أمسكني نولان من مرفقي بيدين ملحتين، قال: «يمكنني المساعدة لوري. سوف أكسر عنقه إذا اذاك ثانية».

ابتسمت. على الرغم من ضخامته لم أستطع أن أرى نولان يؤذي أحداً. كان حلواً للغاية. أحياناً لدرجة تؤلم أسناني.

لكن دنيس؟ كان قد انجرف في المدينة مثل قرصان من نيويورك وخدع تاجر لوحات محلي بإعطائه حصة في المعرض. ثم بدأ الخداع. لم يكن ممكناً إثبات شيء

بالتأكيد، لكن كان هناك وكالات مسروقة، فنانون مخدوعون، مشترون غاضبون. تقاعد مالك المعرض بسرعة وهرب إلى فلوريدا. شخصية دنيس الحيوية وجاذبية جنسية لا تنكر-لكل من الرجال والنساء، تكشفت-جعلته يستمر مزيداً من الوقت.

كان قد بدأ يتودد إليَّ قبل أن تبدأ مشكلته الحقيقية. جعلتني سمعة عائلتي-جميعنا رسامون لا سيما والدي، مصور أشخاص ومدرس في الجامعة-نوع من دم أزرق في صف المدينة الإبداعي، شيء احتاج إليه دنيس ليواصل المضي. محترميَّة، هذا ما كنت قد جلبته إلى اللعبة. وقد جلب-حسناً، شيء كنت قد تجنبته منذ حب عاصف تهاوى منذ سنتين. جنس أولاً. النوع الذي جعلني أفقد عقلي. وأكثر إثارة أيضاً-إغواء بعد آخر ليورطني أكثر في عالمه. لكن أدار دنيس سريعاً المعرض إلى الأرض وأخذ سمعتي الحسنة معه. أول مرة ضربني كانت في عيد الشكر. إحباطه فار. بطريقة ما كانت مشاكله المالية كلها بسببي. كسر لي سني-مذلة بقدر ما هي مؤلمة. سأل الدكتور فينغولد هناك في عيادته: «هل أنت في مشكلة لوري؟» كانت عيناه الرقيقتان قلقتين خلف نظارته ذات الإطار المدور. كذبت عليه. قلت له إني وقعت عن السُّلم وأنا أركِّب شجرة عيد الميلاد.

تدخلت عائلتي أثناء العطلات معبرة عن اهتمام لطيف ورعب. أمر زاجر، ألحوا. لذا ذهبت إلى مخفر الشُّرطة وتوردت خجلاً طوال الوقت وأنا أروي للضباط الجامدين قصتي القذرة. طرحوا أسئلة رهيبة. عن الجنس، هل أحببته أولاً ثم غيرت رأيي؟ ماذا أيضاً؟ قلت لهم بقدر ما استطعت أن أحتمل، وعن أنه بدأ يضربني. التقطت الشُّرطة صوراً لكدماتي، اعترفت بأنه هددني بأن يفعل الأسوأ.

الأمر الزاجر لم يوقف دنيس، مع ذلك. كنت قد اتصلت بشرطة النجدة وأوقفوه مرتين-المرة الأولى أثناء حفلة الليلة الثانية عشرة حيث راقب أصدقاء مذعورين-وهذا لم يفعل سوى أن زاد من غضبه مني. بدأت تنتاب أمي نوبات الخناق. ما استطعت فعله هو الانتقال إلى منزل أهلي لأنقذها. لذا أتيت إلى المركب وأملت

أني استطعت أن أحل الأمور بنفسي.

قال نولان بصوت خشن: «هل رأيته الليلة الماضية لوري؟ يمكنك الوثوق بي».

«لا».

«لأنه...»

رأيت تغيراً في وجه نولان. سألت: «ماذا؟ ما الخطب؟»

أدار نولان رأسه بعيداً: « كان يفترض به أن يلتقي بي الليلة الماضية ليعطيني شيئاً».

«يعطيك ماذا؟»

بعد نبضة قلب قال نولان: « كان يملك صوراً».

«من صالة العرض؟»

«لا».

لم أستغرق وقتاً طويلاً لأعرف ما قصده. صور، ابتزاز. الكلمة جعلت داخلي ينثني بالألم. كنت قد جلبت القبح إلى حيوات كثيرة. أولاً دنيس ذهب إلى عائلتي والآن إلى نولان، مهدداً أن يري أمي ما أصبحت عليه. كل هذه القباحة لأني اشتهيت أن أمشي على الجانب الجامح.

قلت: «أرادك أن تدفع له ثمن الصور».

«نعم».

«عني».

«نعم».

عرفت بالضبط أي صور كان يقصد. ذات ليلة منذ وقت طويل، عندما كان دنيس لا يزال مشاغباً ومسلياً على نحو لذيذ، التقط بعض الصُّور في السَّرير. بعد أن شربت كمية كبيرة من النبيذ. عندما لم يكن الموضوع بحاجة إلى قدر كبير من الإقناع. أظهر دنيس شيئاً في أدركت حينها أنه كان يكمن في داخلي طوال الوقت.

قلت وجهي يتقد: «هل أراك إياها؟»

بدا صوت نولان أجوف: «فقط واحدة».

«حسناً آمل أنها كانت صورة جيدة».

اقتحمت الباب وصفقته على عقبه. على رصيف الميناء، ابتلعت هواء منعشاً لأقاتل الغثيان. كان الماء أقسى من قبل لكن المطر قد توقف قليلاً. تشبثت بالسِّياج لأتوازن. فكرت: تدحرجت الشَّجرة بعيداً عن المركب، ربما الأمر الذي أعاقها تحرك أيضاً. قاتلت الغثيان الذي هرع من داخلي، خرج نولان من المقصورة ولم يقل شيئاً.

هو لم يفكر بي يوماً بنفس الطريقة ثانية قط، هذا كان مؤكداً. لم أكن يوماً الفتاة الجميلة في نادي الكانتري، أرتشف المشروبات الكحولية على الشُّرفة وأتحدث عن الانطباعيين. ينفض حشرة عن فستاني الأصفر، ظناً منه أني كنت من الفتيات اللاتي يمكنه أن يصحبهن إلى بيت عائلته.

بعد فترة قلت: « كم كنت ستدفع له؟»

«لا يهم».

«ذلك النوع من الأمور لا يتوقف أبداً، كما تعلم. ادفع له مرة وسوف يعود من

أجل المزيد إلى أن تفلس».

يضع نولان برفق يده على أسفل ظهري. لمسته تبدو كما لو أنه أراد أن يذهب للرقص.

«دعيني أصحبك إلى منزل أمك، فقط لعدة ليالي حسناً؟ عندما يستقر الطقس يمكننا...»

قلت: «لا».

«أريد أن أساعد».

«لا أحتاج إلى المساعدة»

«ليس صحيحاً».

«ليس منك». نترت ودوَّمت.

سحب يده بعيداً وشدَّ قابضاً عليها.

«أنت لست الوحيدة التي تملك جانباً مظلماً لوري. ربما أنا لست من تظنين أيضاً».

فقط لو كان، لكانت انتهت مشاكلي.

عاد رالفي إلى خارج مركبه عبر رصيف الميناء من مركبي. ارتدى قميصاً وحذاء، لكن ذلك لم يمنحه مظهراً أكثر احتراماً من قبل. كان يرتدي قبعته بالعكس، وشعر مدهن يبرز حول قفا عنقه. جعل استعراضاً كبيراً ممططاً ذراعيه فوق رأسه ومتثائباً. بنطاله الجينز ينزل على وركيه ويظهر خط من شعر على بطنه.

ثم نادى: «هل كل شيء بخير هناك لوري؟»

سألني نولان: «من هو؟».

«نحن بخير، رالفي!»

نظر رالفي نحونا.

«هل يزعجك صديقك؟»

«هو كان على وشك المغادرة «

«لوري-»

قلت بصوت خفيض: «اذهب نولان. لم أطلب منك المجيء. لا أريدك هنا. لا أريدك أن تزيد الطين بلّة».

أجاب نولان: «فات الأوان». لكنه التفت مبتعداً. أخرج مفاتيح سيارته من جيبه. «هل ستتصلين بي إذا كان عليك الخروج سريعا؟ يمكنني أن أكون هنا خلال نصف ساعة. سوف أوصلك إلى البيت».

لن اذهب إلى البيت أبدا، كدت أقولها بصوت مرتفع. قد يكون مثل جر براميل من السم عبر الباب الأمامي.

لكني قلت: «شكراً لك».

«هل هاتفك النَّقال مشحون؟»

«اذهب، نولان. سأكون بخير».

ذهب ونظر من فوق كتفه مرة، بارتياب مأخوذاً برالفي ثانية. من أجل كل ما عرفته، تساءل إذا ما كنت قد أتخلى عن دنيس، ورفضته أيضاً، من أجل أشباه رالفي الآن، يسكن في مركب ويسكر كثيراً. تعاطى المخدرات، بال في النهر عندما

شعر بالحاجة، أكل نقانق «سليم جيمس» على العشاء وربما لم يسمع يوماً عن الانطباعيين.

عندما ركب نولان شاحنته، أدار المحرك وتراجع من مكان وقوف سيارته، تحدب رالفي على سياج مركبه وحط على رصيف الميناء بحذائه الخفيف. كتب على قميصه الفضفاض «ستيلرز» بأسود باهت وأحرف صفراء.

قال: «عشيق قديم؟»

«أظن أن في وسعك أن تدعوه هكذا».

« تعنين أنه لم يعد كذلك؟»

«ليس بعد الآن».

«لديك الكثير من هؤلاء، أليس صحيحاً؟»

امتلك رالفي في جسده نوعاً مرناً من القوة وابتسامة رخية سعيدة. ربما كان مثيراً ذات يوم، قبل أن يتدهور حاله. انحنى بمرح على سياجي، يتشرب اندفاعة المركب بذراعيه. لكن نظرته كانت مفعمة بشيء أكثر غموضاً من معاكسة بريئة.

قال عندما لم أجب: «الماء ما زال يرتفع».

«أرى ذلك».

«أتوقع أنه سيعلو بعض أقدام قبل أن يتوقف».

«نعم».

«إذا هطل المزيد من المطر، حينئذٍ سوف يجرف كل شيء. ربما نحن أيضاً، لكن كل شيء آخر بالتأكيد».

أوماً نحو الشَّجرة، لا تزال تركب تيار النهر بمحاذاة رصيف الميناء. انثنت الأغصان، الأوراق القليلة المتبقية تتلوى كما لو في النزع الأخير.

جرى الماء من حول الشَّجرة موحلاً بني اللون، مليئاً بالطمي من منبع النهر، لذا كان يستحيل أن ترى تحت سطح النهر.

لكن أخيراً سوف يصفو الماء والمنظر نحو القاع سيكون سالكاً. ستكون سيارة دنيس مرئية بوضوح.

الليلة الماضية، عندما اختفت السَّيارة في الماء العكر عند نهاية منحدر انطلاق المراكب، اعتقدت أنها رحلت إلى الأبد. لكن وأنا أخنق دموعي، شاهدت وميض إشارة الدوران لساعات. عند حد معين توقف الضوء عن الوميض مثل نبضة قلب-قصر في الدارة أخيراً. أو ربما انقلبت السَّيارة، تدفن الضوء في الوحل. أيا يكن خلدت أخيراً إلى النوم.

لكن هذا الصَّباح رأيت تموجات على سطح النهر حيث غرقت السيارة. عندما اصطدمت الشجرة بالسيارة الغارقة فكرت أنه: ربما، فقط ربما، قد تدفع الشَّجرة السيارة في القناة، عميقاً في النَّهر حيث لن تُرى يوماً أو يعثر عليها. إذا تعزز تيار النهر، إذا واصلت الشجرة الدفع، ربما سوف تنجرف السيارة ويطويها النسيان.

إن لم تنجرف، قد يتم اكتشاف السيارة عندما ينحسر الفيضان ويعود الجميع لوضع مراكبهم في النهر ثانية.

كنت في عسر. عميقاً.

قال رالفي: «نحن بحاجة فقط إلى يوم ماطر آخر. ثم سوف يجرف سيارته بعيداً. لن يراها أحد أبداً».

كشر لي، وشعرت بأن قلبي يترنح.

سأل بأسلوب دارج: «هل أطلقت عليه الرصاص أولاً؟»

«نعم». ازدردت ريقي بشدة.

هزَّ رالفي كتفيه: « كنت ثملاً الليلة الماضية، وربما نمت مثل صخرة، لكن أمر ما أيقظني. لابد أنها بندقيتك. خرجت ونظرت. رأيت كل شيء. كنت تجرينه إلى سيارته، تقحمينه خلف المقود، تضعين جهاز نقل الحركة على وضع الحياد. أين السِّلاح الآن؟»

«في السيارة».

زلق رالفي خصلة رطبة من شعري خلف أذني، ولمسته توانت هناك.

«هل مات عندما دفعت السَّيارة على المنحدر؟»

«لست واثقة».

إذا ما بقي دنيس حياً وقتاً كافياً ليتصل من السَّيارة الغارقة-ربما بصورة ملحة يتصل بينما يغلف الماء البارد جسده النازف-حسناً، لم أتمكن من التفكير في ذلك.

اندفع النهر من حولنا بهدير كتيم ولكنه إيقاعي. مصغية إليه قررت أنه بدا مثل نبض الله.

خلع رالفي قبعته وقرعها على رأسي. كان يبتسم لي.

«لا تقلقي حبيبتي. إذا استمر هذا المطر سوف تنجرف السَّيارة نحو السَّد وتضيع في كل الهراء هناك. لن يجدها أو يجده أحد على الإطلاق».

لفني بذراعه، حك حنجرتي بأنفه، ودس في أذني بخر بيرته الأولى. تجاهل رعدتي.

«لندخل إلى حين، هاه؟» زلق رالفي يده في مؤخرة بنطالي الجينز وأمسك

بمؤخرتي.

«سوف تحبين ذلك، صحيح؟ سوف نتحامق قليلاً، أنت وأنا. لنتعرف على بعضنا البعض بشكل أفضل. وكل ما علينا فعله هو أن نصلي أن يستمر هطول المطر، صحيح؟»

قلت: «صحيح».

انقراض طفيف

بول لي

ولد بول لي في هوليوود، كاليفورنيا. التحق بجامعة كاليفورنيا كطالب جامعي وحصل على شهادة الماجستير في الفنون الجميلة من جامعة بيتسبرغ أثناء إقامته في بلومفيلد وفريندشيب وأحياناً في «ساوث سايد». حالياً يعيش في كوينز ويعمل على تأليف رواية.

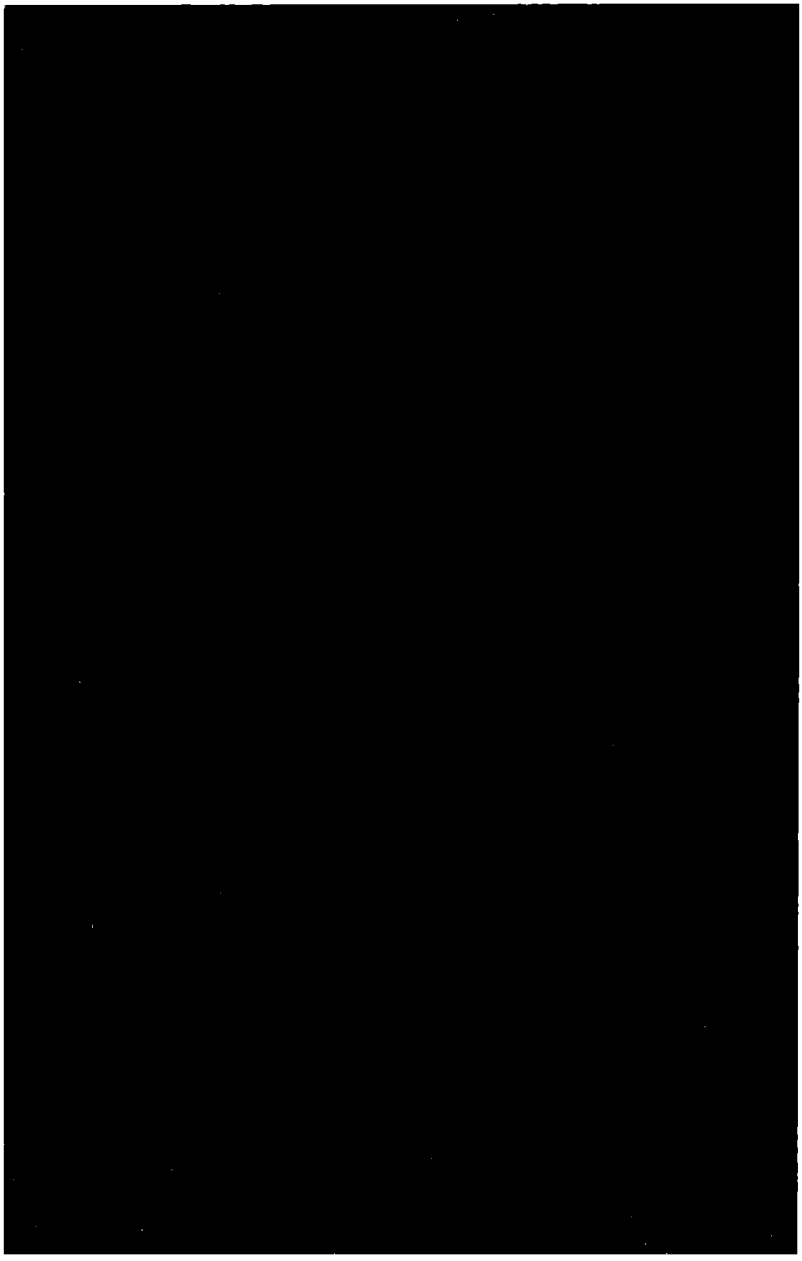

بدا ذلك النَّهر الذي ثابر على الجريان بلا اسم في أحلامه، أنه الأنهار كلها دفعة واحدة، أسود وتواطؤي وواسع. حمله على امتداد درب سريع تحت قبَّة سماء مرصَّعة بالنجوم، ومع أنه عرف أن الماء مثلج، شعر به كما لو أنه مجرد من الحرارة. كان صورة ظليَّة مسلطة على الماء، تتجه إلى مكان غريب ومنطقي، قاس وأليف. وكيف احتشدت النجوم فوقه بهدوء شديد، وهو يفترش سريراً يغرق في النوم ...كيف توقَّدت صغيرة وباردة ونيِّرة، في تلك الظُّلمة المدلهمَّة، مثل حبيبات من نار متحجرة تناثرت في حقل، عندما جذبه النهر عبر التراب في متتالية من توق ووجل شديد، لا حدَّ له.

كان يعمل في غرفة متنامية البياض، عندما نقلت له آخر الأنباء عن الابن البكر لعائلة غروسكي. كان الوقت ظهراً، وكانا يعملان على طلاء منزل قديم فارغ آخر في كاريك، انتقل سكانه أو ماتوا. كانت الأرضيات مغلفة بالبلاستيك. شحب لون الجدران الداخلية، حتى أصبح بلون الدهن الحيواني، ورغم سماعه الأخبار واصل مارك العمل، كما لو أنه لم يسمع شيئاً، يعيد غمس البكرة ذات المقبض الطويل في الوعاء، ويدهن الجدران القديمة بخطوط شفافة من أبيض متقطر، غليظ القوام، طبقة كثيفة من زمن معكوس.

كان الدهان الآخر يقول جانبياً من حيث كان جاثماً على السِّيبة: «لم يتمكنوا من إيقاف دماغه عن الانتفاخ».

بدا غير مستخفٍ بصمت مارك، بل كان يحترمه بعض الشَّيء، كان قد ذهب أيضاً إلى «كاريك هاي» منذ سنوات، وكان لا يزال متشبثاً بالهيمنة المتبقية لأقدمية مارك بسنة واحدة، ووضعه السَّابق كلاعب هوكي في المنتخب-التسلسل الهرمي المراهق الأكبر سناً. كان يقول: «حزين حقاً على تلك العائلة».

كانت قد سرت شائعة عن أن زكريا غروسكي كان ثملاً على غير عادته، وهو يقود إلى البيت عبر «ماونت أوليفر»، منذ ثلاث ليال. لم يسمع مارك إلا عن كونه اصطدم بشجرة وانقذف من سيارته، لكن البقية بدت واضحة له كما لو أنه كان يجلس بجواره: الأخ الناجي المعاق، الخاطب والمتعلم، انجرف على طريق أسود سريع ضد مشيئته تقريباً، مصابيح السيارة تتمايل بجموح حول منعطف حاد، مدفوعاً في الليل بالسُّكر وبقوانين الصُّدفة العشوائية البهيمية. كان كما لو أن مارك كان شاهداً على زكريا الواعي لكونه مقذوف ورأسه في المقدمة عبر الزجاج المكسور، ليرمى في الثقب الذي حفرته كشَّافات السَّيارة في الظلمة، كما لو أنه سمع صوت ارتطام جمجمة زكريا بشيء قاس، صخرة أو جذع شجرة، عند حافة تلك الغابات.

سمعها كالصَّوت نفسه-ليس صوتاً مماثلاً، لكن الصوت نفسه متكرراً-مثل الصَّوت الذي سمعه عندما توفي الأخ الأصغر، عندما قتل مارك عن غير قصد ليفي غورسكي منذ ثمان سنوات. كما لو أن السنوات الثمانية كانت وادياً، وحسبه الآن أنه كان يسمع صدى الأثر الأولي، غير منقوص، من الجانب المقابل. حزين على تلك العائلة. ومن هنا استطاع أن يرى الليل المبرم يهبط على الوادي. ليفي البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، يرتعش نحيلاً ونصف عار بحذاء النهر، وجهه مضاء بالكشَّاف، شارب زغب أسود منقوع في الوحل ومخاط مدمَّى. وتحت تلك النجوم الفسيحة التي بدت متناهية في الصغر عن بعد، بجانب شريط مائي الذي كان نهر المونونجاهيلا: حركة واهية للغاية فقط. شعاع الكشَّاف المائل، هيئة صغيرة تسقط إلى الخلف، رأس هش يلقى على حافة صخرة في مكان ما في الظلمة. لو لم تكن تلك الصخرة هناك. أو لو لم أكن هنا.

لو لم يكن مارك براون هنا كان ليكون في السَّادسة والعشرين من عمره، كوريٌ يعيش وسط ريف يعج بالكوريين، ربما يرتاد مدرسة كهربائية، كما كان يخطط منذ سنوات، وربما لا يعرف عن بيتسبرغ إلا من خلال هاينز وورد. ربما كان ليفي جورسكي لا يزال حياً، ربما لا يزال فاسداً، وزكريا جورسكي ربما ما كان ليكون مصاباً

بموت دماغي. لكن بدلاً من ذلك، تبنَّت مارك عائلة أميركية، قبل أن يتعلم الكلام، ونقل من كوريا إلى بيتسبرغ، وجلب إلى هنا ليكون الفتى الصِّيني في كاريك ويحمل لقباً ألمانياً. وبدلاً من ذلك نشأ على أصابع السَّمك والفطائر، ونجا من كل أنواع البلطجة والسُّخرية، متعلماً أخيراً أن يسخر من ثلة الأولاد الآسيويين الذين تعرَّض لهم بوحشية أكبر. وبدلاً من ذلك نشأ رياضياً، وبشعر قصير وعنق عريض، ولعب الهوكي، لم يكن لاعباً نجماً يوماً، لكن دوماً صلب بما فيه الكفاية ليبقى بين اللاعبين على أرض الملعب. أسرف في شرب البيرة والنبيذ مع أفضلهم. ومع ذلك عن حدٍّ معين، كان لا يزال يستشعر، حتى في أناس عرفهم منذ الطُّفولة، أنهم ظلوا يلاحظون لديه لمسة من الحياة الزائفة-وأنه بالنسبة إليهم، كل كلمة أميركية مصاغة على نحو مثالي، خرجت من فمه، ظلَّت طوال السَّنة تمثِّل دهشة صغيرة، المنتج الغريب لحرفية غريبة، كانت تحدث في مكان ما خلف ذلك الوجه.

وكان هذا الانتقال القاري على قدر من الأهمية، وراء الضَّربة التي قتلت ليفي جروسكي-ليفي، ولد أجرب كان يشاع عن أنه تناول مرة كمية من البراز مقابل عشرين دولاراً، دعا آبيجيل، وهي فتاة بيضاء وصديقة مارك، بشكل غير مباشر، بال»جوك «، بعد أن دوّمت ودعته بآكل البراز، لأنه ضغط نفسه عليها بطريقة مخلة بالآداب وهو يمر في القاعة. مارك لم يفش بشيء، عندما روت الحادثة له في وقت لاحق من تلك الليلة. عكس ظاهرياً فقط اشمئزازها العابر. لكنه الآن شعر بأنه ينجرف في تيار يتحرك بسرعة، تيار أخطأ في اعتباره غضباً ذاتياً، تيار بدا أنه يحمله إلى-ومن ثم يتركه بعد بضعة ضربات-اللحظة التي وجد فيها نفسه بجانب النهر، بجانبه اثنين من رفاق الهوكي، ثملاً من شرب النبيذ والكشَّاف متزن فوق رأس ليفي.

كانوا سابقاً قد عثروا على ليفي يدخن بمفرده في الظُّلمة قرب منزله، اندفع الفتيان الثلاثة بخشونة، عن قصد ووحشية، بعد أن قادوا عبر «ماونت أوليفر» على متن شاحنة نثنائيل. كان الربيع لا يزال في أوله، ذات ليلة عندما بدت الريح قطعة من الشِّتاء الآفل. كانوا قد أجبروا ليفي على الجلوس في المقعد الخلفي مثل

أعضاء في عصابة إجرام، وأسرعوا نحو متنزه «ريفرفرونت»، ينزف من أنفه طول الطريق، واسحق يكاد يغني عن كيف سيضربونه حتى يفقد الوعي، ويتركونه عند النهر ليتجمد. لكن مارك فهم لاحقاً أنه كان مدفوعاً نحو مشهد موت ليفي، ليس بوفرة العنف الفتي، لكن بقوة ذلك التيار الوحشي الذي برهن على أنه يمتلك من القوة ما يكفي ليجرف الفتيان الثلاثة الآخرين معه، قوي بما فيه الكفاية ليرسل شقيق ليفي الأكبر إلى حتفه، بعد ثمان سنوات.

كانوا قد ركنوا الشَّاحنة قرب جسر «بريمنغهام»، في شارع مهجور كئيب تصطف فيه المخازن. في طقس أكثر دفئاً، لربما شاهدوا سيارة أخرى مركونة أو اثنتين، آثار لمراهقين اختبأوا في الظُّلمة بغية تدخين الحشيش أو لعب الورق، لكن في هذه الليلة كانوا بمفردهم. دفعوا ليفي نحو ضفَّة النَّهر، ضحيتهم يصرخ يتلوَّى أولاً، لكن بعد أن تلقى صفعة قوية، بهدوء ترك جزمته تنجرّ فيما بدا محاكاة ساخرة لمقاومة سلمية، ثم أخيراً يتعثر محني الرأس: الطاعة الواعية اللطيفة لشخص ما، لمن يفوقونه عدداً وقوة، الذي لا يمكنه إلا أن يأمل أخيراً بأن يشعر المعتدون عليه بالملل من دعته. جرى النَّهر مفتوح على اتساعه أمامهم هادئاً وساكناً، تلتف حوافه في موجات شعثاء شبيهة بالكلاب، على القذارة، وبعد أن شغلوا الكشاف التفتوا و أبحروا على شريط البرية الهزيل الأسود على امتداد المياه وهم يدفعون ليفي عاري الصَّدر في الأجمات، تلسعه الحشرات ، ينسحب العالم المتحضر فيما يبدو من خلفهم بهدوء من الوجود، أربعتهم يتسلقون عبر تلك الظلمة الغابية إلى أن توقفوا بعد حوالي عشر دقائق عند بقعة نائية بما فيه الكفاية بدت فيما بعد معدة سلفاً، ومارك، قبل أن يرغب بذلك، تأرجح بشدة عند ليفي ورماه على القذارة المرصوصة بشدة، ربما حتى متفاجئاً مثله بالأثر المتصل لذلك الجهد الحقيقي الأول غير المكبوح ليبتلي بضرر بشري. علق هناك بعض الصَّمت عندما ارتطم بالأرض ثم أخذ الثلاثة يركلون ويخبطون على الهيئة الجاثمة في الظلمة.

ذكرى هذا ظلت لمارك مثل إحساس ممزق وحسب: خربشة الكشَّاف على مؤخرة ليفي الملتوية، لهاث الإجهاد، القباع الحلقومي عندما كانوا يركلونه بقسوة

في بطنه الطري. أرغما رأسه إلى الانتصاب ودفعا كمية من ملاط النهر في فمه، يدعونه بآكل البراز، ثم ضربوه ثانية جميعهم، كل واحد منهم غير راغب أن يكون أول من يتوقف. وبغرابة، لم يتمكن مارك حتى من تذكر فيما إذا شعر بغضب على تهجم ليفي بينما كان يهاجمه، أي بقية من ذلك انفجرت في حرارة فجة جعلته في الأصل عازماً على ضرب هذا الفتى الأبيض حتى يتوب. كان كما لو أن سجل تلك الحرارة العقابية، إذا كان يوجد حقاً من سجل، قد انطمس بالنهر الجاري، تاركاً للذكرى فقط عنف بارد عديم العاطفة، بل أكثر توحشاً في عدم إراقته للدماء. وعند النهر سلم الأربعة أنفسهم بدون قصد في طقس عنيف إلى ذلك المنطق الأعظم الذي كان متعنتاً في تدرجه.

وإزاء هذا العنف سحب مارك ليفي إلى قدميه للمرة الأخيرة-غدت قدرته على التحرك كسولة وثملة، انخدش جذعه المرتعش، وأصبح زلقاً من العرق والوحل، الأربعة في تلك اللحظة صورة لهيئات مصغرة شوهدت عبر واد من ثمان سنوات-ودون تفكير جلبت عقب الكشاف على رأسه. سقط ليفي-بدا أنه سقط على ظهره مسافة تفوق طول قامته عمقاً، بقوة تفوق وزنه المتهاوي ثقلاً. سمعوا الصَّدى الكليل اللحمي للخبطة التي أوقعته، ثم لا شيء.

-قتلناه.

-مارك لقد قتلته.

في الحال، بدا أن التَّيار الذي أتى به إلى هنا يهجره، لينزح بعيداً في هدير أخير، ويكشف عن هدوء كامن لم يكن يعرف أنه لم يكن يسمعه، الهدوء الحاضر أبداً للقذارة والنُّجوم وأجسادهم حية تماماً. أُخفض مركب في مكان ما على المياه. أرجحوا الجسد كيفما اتفق في النَّهر وغادروا، خائفين كالجحيم ولم يرهم أحد. فيما بعد لم يشك بهم أحد. فقط لاحقاً، بدأ مارك يكتسب فهماً غير ناضج عن أن التيار لم يغادره على الإطلاق، حسبه أنه مندمج في دورة أكبر، دورة لم يعد فيها آلية نشطة، بل شيء متسكع، عاجز، صغير للغاية، ومندمج للغاية فلا يشعر بما

يغلفه كشيء منفصل عن عربة الوجود نفسها.

كان يقود شاحنة الشَّركة نحو «ساوث سايد» بعد العمل، لا يزال ثلج الأسبوع الماضي منكمش على حواف الطَّريق. كان السَّخان يصر. كانت شاحنة قديمة مطلية بدرجة مبهمة من درجات اللون الأسود، شيء فولاذي يصدر جلجلة ودخان مع راديو معطل ومقاعد متصدعة من مادة الفينيل، وأحرف باهتة على الجوانب. كان حاجب الرياح بارداً، تحفُّه الشَّمس مع آخر شعاع من أشعة النَّهار المائلة. في الأحوال العادية، كان ليستقل الحافلة إلى البيت، لكن اليوم كان قد تطوع أن يغلق المتجر، ثم أخذ الشَّاحنة عندما رحل الآخرون ولم يكن يملك فكرة عن النتيجة أو الغرض إلا بالكاد.

قاد الآن وهو يفكر جزئياً بالذَّهاب إلى بار، لكن كان يفكر بمقتل ليفي ورؤية كل شيء من حوله، العالم برمته كما عرفه، ما تركه القتل خلفه في يقظته. واحد من مدرسي العلوم خاصته، أحب أن يقول لمارك عن أن في وسعه أن يمضي قدماً في الحياة، لو استعمل نفسه فقط، قال مرة إن دورة الكون مثل لعبة بلياردو كونية. وكان مارك يفكر في هذا الآن، بكرات ترتد مراراً وتكراراً في صدفة تتضاعف إلى ما لا نهاية. مفكراً: مارك، قتلته. في آبيجيل، وكيف انفصلا بعد ذلك بوقت قصير، كيف كان عليها حينها الارتداد، إلى أن تقدم زكريا لخطبتها، كيف اعتقد مارك أن ارتدادها قد توقف حينها. مفكراً كيف قتل الارتداد زكريا الآن أيضاً، وعالماً الآن أن ترددها سوف لن يتوقف أبداً-وأنه ذات يوم قد لن يكون ممكناً عزوه إلى القتل، لكن فقط لأنه قد يتجاوز حدود الحسابات البشرية والذَّاكرة.

وفيما هو يقترب من بارات «الإيست كارسن»، وجد نفسه ينعطف نحو الشَّارع الضَّيق الذي يقع فيه مركز الرحمة للعيادات الخارجية في «ساوث سايد»، حيث كان زكريا ممدداً في مكان ما، ميتاً. وجد بقعة مهجورة بجانب الحاجز ومن الشَّاحنة الواقفة نظر نحو واجهة المبنى ذا الأبراج، عن غير قصد، فقط يفكر في ذهول خفيف، أنه هنا حيث يمكن أن تكون عائلة الجروسكي قد امحت أخيراً. كان

يتذكر الرسم الكلاسيكي للتطور البشري، ينهض القرد تصاعدياً نحو التأليه الذي كان بشراً، وفي عقله تصوَّر خط أسلاف عائلة جروسكي بالطريقة نفسها: تنبثق السُّلالة، واحداً تلو الآخر، عبر ألفية معتمة في موكب خطِّي عازم وغير منقطع، فقط لتنطفئ فجأة بالقوة الثانية ليده التافهة والمرتابة. مسحوقة إلى غير رجعة. قد يكون هناك فروع بكاملها من أشخاص لن يأتوا الآن إلى الوجود أبداً، من لن يعرفهم العالم كي يفتقدهم. كانت الفكرة متعذِّرة على الفهم تقريباً بالنسبة له، في خرابها البسيط.

بعد مرور عدة دقائق، أطفأ المحرك وجلس في الصَّمت الناجم بعنف، يستشعر التَّجمع الصَّغير للغسق المقبل، بدأ لونه القرمزي يدمِّي الهواء على نحو لا يكاد يُذكر. واصل التحديق نحو المستشفى، كما لو أنه بالتحديق قد يرى زكريا. توقَّع في أية لحظة أن يعيد إقلاع المحرك ويقود نحو البار، لكن توقعه كان يفتقر إلى الإرادة، كما لو أن قرار المغادرة سيتخذه شخص آخر سواه.

عندما خرجت لم يتعرف عليها في الحال. كانت مجرد هيئة أخرى تنبثق من المبنى، ضئيلة في انتفاخ سترة بيضاء مثل شيء ينتفخ على الرصيف. كانت تحيط بها نفحة من الارتياح، أمر لاحظه عند أناس آخرين خرجوا، نوع من الحرية، لكن عندها بدا متعمداً بعض الشَّيء، الزفير المبالغ به لتشهد عليه بنفسها، كما لو باختلاقه، الارتياح الفعلي، ومن ثم قد تتبعه الحرية الفعلية. تتبعها غافلاً عندما مشت باتجاهه، لكن لم يتعرف إليها على أنها آبيجيل، إلا عندما خطت أمام الشَّاحنة لتعبر الشَّارع. راقب بضع لحظات دون حراك، ودون تفكير، قبل أن يخرج فجأة من الشَّاحنة ويتبعها.

كانت تسير على عجل، نحو التقاطع التالي عبر منطقة الجلوس الصَّغيرة مقابل المستشفى، وتبع كما لو مسحوباً بتيار الهواء، دون أن ينادي، دون أن يعرف ما قد يقوله عندما يلحق بها. هما لم يظلا مقربين بعد انفصالهما منذ سنوات مضت. بدت علاقتهما الغرامية التي استمرت ربما سبعة أشهر، شيئاً من مادة حقيقية

بمعايير المدرسة الثانوية، العلاقة الرومانسية الأولى المقنعة لكل منهما، وربما كانت لتستمر لولا القتل. تذكرها كما لو أنها ومضة مستدامة من الحرارة إزاء البرد، تبدأ في الدفء المتضائل لصيف متأخر وتفرقع في الربيع، في إزهار تام فقط في الخريف والشتاء. بدت أنها تمتلك منطقها غير المنطوق، الذي به كانت تصدعاتهما العنيفة تنعم بنفس حميمية لحظاتهما العطوفة.

وصلت جدالاتهما في الممرات إلى مستويات من العنف تاخمت السُّخرية، أشبه بدراما المراهقين التي كانا فيها ممثلين واعيين سراً، أصبحا مشهورين في حرم الجامعة بسبب مشاجراتهما العلنية، وبسبب حبهما المعلن على حدٍّ سواء. يلتهب الخد من صفعة، وموسوم بأثر أحمر شفاه في الوقت نفسه-جعل الأداء المسرحي من نفسه علامة لعلاقتهما، وبدا حاسماً لنجاتها المستمرة، وقد يكون هذا ربما تسبب برد مارك العنيف السابق على إهانة ليفي، لأنه لم يكن بينهما يوماً أي مجال لحل وسط.

كانا قد انفصلا بعدها بوقت قصير. عندما تبعها الآن كان يفكر بكيف لم يتحدثا أبداً خلال السَّنوات، يبدو أنه يدرك ذلك للمرة الأولى تقريباً. كانت قد أصبحت مظهرا ثابتا في الحي بالنسبة له، شخص رآه باطراد محتوم في أرجاء كاريك وايست كارسون، وفي العملية كانت قد دخلت ذلك العالم الغريب من أشياء كانت مألوفة سابقاً والتي وقعت في غموض جلي. كان قد سمع من أصدقائه عن إصابة والدها بسرطان الدماغ -شعر ذات صباح بصداع شديد، ليدفن بعد خمسة أشهر-وارتباطها بزكريا، لكن بخلاف ذلك نادراً ما فكر بها مباشرة، بدلاً من ذلك تذكر آبيجيل وذلك الفصل من ماضيه على أنهما أثر مفرد غير ناضج للون زاه وحرارة. تبعها مسافة قصيرة أخرى مكتوماً بالسنوات، كان هناك أجزاء من الرصيف لا تزال مكسوة بقشرة جليدية، لكنها سارت بسرعة وتهور. عند الزاوية، عبرت الشارع نحو أول بار متاح، حانة ناصية سيئة السمعة ذات عتبة مسقوفة بالأبيض، ودفعت بابها الملطخ بآثار الأيدي.

توقف متريثاً على الجانب المقابل، لكن خلال دقيقة عاودت آبيجيل الظهور، تحمل كيساً ورقياً ثقيلاً بكليتي يديها. حينها رأته واقفاً في الجهة الأخرى من الشَّارع، وسرعان ما أشاحت ببصرها كما لو أنها لم تره، وتلك كانت عادتهما. لكنه الآن ثبت نظرته، لم يأتِ بنأمة عندما عبرت إلى جانبه، ترن زجاجات البيرة في الكيس، وأخيراً نظرت إليه عندما لم يعد ممكناً تجنبه، ملامحها قاسية لكنها عاجزة عن إخفاء ريبتها إخفاء تاماً.

قالت بتهكم: «مارك».

هو لم يكن قد نظر إليها من هذه المسافة القريبة منذ ثمان سنوات، لكنه لم يشعر بجاذبية عاطفة قديمة، فقط تذكُّر غريب للألفة. بينما معظم الناس الذين عرفهم، بمن فيهم هو نفسه، كسبوا بعض الوزن حول الفك منذ المدرسة الثانوية، أصبحت آبيجيل أكثر هزالاً، تسكب النحول عديم الشكل لشبابها لرهافة بدت أخف وأضعف وأكثر حدة، تمنح انطباعاً عن عظام آخذة بالتجوُّف. لم تتزين اليوم، وكان لوجهها ذلك المظهر الفج لنساء نادراً ما يظهرن دونه.

قال: «سمعت. عن زكريا».

أمعنت النظر فيه للحظة دون أن تنبس بكلمة. هو لم يكن صديقاً لزكريا الذي كان يكبره بعامين، وكان بعيداً في جامعة بنسلفانيا عندما توفي ليفي. ولا كان مارك قد قرر تفسير ظهوره المفاجئ في هذه الزاوية الفارغة، ولا يزال مرتدياً ملابس عمله، سرواله وحذاؤه ملطخين بالطلاء الجاف. لكنها لم تبدِ نية للسؤال، وبدلاً من ذلك بدت أنها تحاول أن تستنتج من وجهه. كانت نبرتها مطمئنة وخالية من السُّخرية عندما أجابت: «إذن أنت تعلم أني ارتبطت بشخص بليد حينها».

انزاح متعثراً وقال دون تفكير:» كنت أفكر بما يمكنني رؤيته». غير واثق فيما إذا سأل لأنه لم يتمكن من التفكير بشيء آخر ليقوله، أو لأن هذا ما دعاه للمجيء.

رمقته بنظرة غريبة. ثم قالت: "تريد أن ترى زاك؟». لكن حينها غادرت النظرة وجهها، كما لو أنها رأت أن تساؤلها لم يكن يستحق العناء. نظرت إلى المستشفى. «حسناً أريد أن أشرب واحدة من تلك هناك أولاً. ثم إذا كنت لا تزال راغباً سآخذك لتراه».

في طريق عودتهما حمل الكيس عنها. كانت منطقة الجلوس في الخارج مقفرة. اختارت أحد المقاعد الكستنائية اللون الأبعد عن الطريق، ثم أخرجت زجاجتي بيرة من الكيس، وناولت واحدة لمارك. جلسا وشربا من الزجاجتين الخضراوين، عندما أخذ الضوء يتلاشى ببطء، تتبخر أنفاسهما وتبرد في الهواء. لحين، لم يتحدث أي منهما، فقط جلسا ينظران إلى مدخل المستشفى، عندما أزالت آبيجيل اللصاقة عن زجاجتها ورمتها على الأرض. احتشد الصَّمت بينهما في كومة سرية، أولاً محدثاً ثقلاً محسوساً، ثم يزداد جسامة بالشخصية، إلى أن بدا أنه يحاكي الصَّمت المزمن الذي كسر سنواتهما الرومانسية السالفة، ليردد الصمت المفاجئ الذي أعلن موت ليفي عند النهر، ليتخيل الصَّمت الذي لا سبيل إلى معرفته والذي كان يدور الآن في رأس زكريا، إلى أن أصبح الصَّمت أخيراً ثقيلاً للغاية كي يستمر، بدا أنه ينهار على نفسه، وتحدث مارك بصورة انعكاسية كما لو أنه يستجيب لقانون مادي:

«أتذكَّر عندما ذهبت إلى جنازة أخيه وزكريا ذهب إلى النعش». لم يكن ينظر إليها لكنه واصل الحديث. «حتى تلك اللحظة كان متماسكاً-كما تعلمين. الأخ الأكبر عاد من الكلية، يصافح الجميع ويتولى المسؤولية. لكن عندما حان دوره للذهاب إلى النعش والنظر إلى صورة ليفي، كان كما لو أن الأمر برمته تداعى. كان فقط واقفاً أمامه لثانية أو اثنتين، لكن حينها ارتفعت يداه إلى وجهه وتقريباً صفع نفسه، وفجأة كان منحنياً عليه ويرتعش. وكنا جميعاً جالسين هناك نراقبه. وبعد حين كان على والده أن يأخذه بعيداً ولم نره ثانية أبداً».

لم تقل شيئاً لبعض لحظات، تاركة كلماته تزداد غرابة في الهواء.

قالت أخيراً: «حسناً لا أعرف لماذا ذهبت إلى تلك الجنازة بأي حال».

تردد مارك وشرب جرعة من البيرة.

ثم رقت نبرتها: «دعنا لا نبدأ بهذا، هذا النوع من الحديث، الموتى يدفنون موتاهم. ليس بعد».

«لا بأس».

عاد الاضطراب إلى صوتها ثانية: «أعني أنت لم تعرفه حتى، أو تعرف ليفي حقاً. يا إلهي، لم أرك منذ سنوات».

نظر إليها الآن: «ماذا تعنين؟ أراك هنا طوال الوقت».

قالت دون أن تلاقي عينيه: «ربما رأيت شخصاً آخر».

«هل تقولين إنك لم تلاحظي الرجل الصيني يتسكع في أنحاء كاريك؟»

أطلقت تنهيدة مألوفة وقالت: «أنا لا أقول شيئاً، مارك».

أنهت زجاجة البيرة ووقفت في الضوء المتلاشي. ميز تشنجاً مضطرباً في وقفتها، ما بدا للحظة أنه يرصد السنوات الثماني السابقة في شيء يمكن فهمه.

سألت: «هل لا تزال ترغب برؤيته أم لا؟»

شرب آخر جرعة من البيرة وتبعها إلى الداخل، تاركين زجاجتيهما الفارغتين على المقعد.

عندما وصلا إلى الغرفة التي تضم زكريا، أخذت آبيجيل الكيس الورقي من مارك ووضعته في الرواق عند حافة الباب المفتوح، ثم أشارت عليه بالدخول. دخل ليجد والدي زكريا جالسين على صف من ثلاثة كراسي على امتداد الجدار بجانب السرير الذي يتمدد عليه زكريا، كما لو أنه نائم.

عندما دخل رفعوا أبصارهم نحوه، كان تعبير الجد يدل على عدم إدراك مبهم، شيء متوحش بشكل بعيد في عجزه، والوالدان يبتسمان بشكل انعكاسي، الابتسامة الكليلة والمنهكة التي كانا يتمرنان عليها لأيام، ربما يظنونه واحداً من العاملين في المستشفى. بدوا صغاراً ومتضرعين في كراسيهم بجانب زكريا، الذي كانت هيئته المادية ممددة على السَّرير، يبدو حجمه يساوي حجم ثلاثتهم مجتمعين. ظهرت آبيجيل خلف مارك لكنها تريثت عند إطار الباب قائلة: «هذا أحد أصدقاء زكريا».

أومأ الوالدان له ولا يزالان يبتسمان ولا يقولان شيئاً.

تقدَّم مارك نحو السَّرير. لم يكن قريباً إلى هذه الدرجة من زكريا سوى عدة مرات، وفقط بالمصادفة يمر به سريعاً في الردهات بين الصُّفوف، أو لاحقاً يتنافس معه على لفت انتباه السَّاقي في بار ماريو. كان رأسه تقريباً مضمداً على نحو مضحك، يكشف الشاش عما بدا قدراً ضئيلاً من الوجه، من الجفنين، حتى أسفل الشفة السفلى. لكن حتى على هذا الحيز الضئيل من الجلد، كان الزجاج الأمامي المحطم والصدمة القاتلة واضحين تماماً: كان وجهه مثل جانب عشوائي من إجاصة مكدومة، ممزقة على نحو ممتاز وحائلة اللون، مشوهة بنعومة، عيناه المغلقتان متورمتين وتبدوان مختومتين بالشَّمع. سرى زوج من الأنابيب من الآلة ليتجمع في فمه، غازات محيية تغذى بالإكراه.

هدر الجد فجأة على لا أحد: «من يكون؟» تتلقف عيناه المشوشتان مارك فيما بدا نوع من رعب مبهم.

ربتت الأم على يده وتمتمت: «صديق زاك».

نعر الجد.

نظر مارك نحو آبيجيل التي كانت تستند على إطار الباب. لم تكن تنظر إليه أو إلى أي شيء آخر في الغرفة. بدلاً من ذلك، كانت نظرتها مثبتة على ثمة نقطة بعيدة

خلف الجدران، وكانت قدماها تقرعان بثبات على الأرض، تنبيان عن التململ. لكنها بدت هادئة تقريباً بوقوفها وسط العتبة ، وكانت لتكون صورة لسكون أنثوي رسمت في هذه اللحظة، وقدمها المربتة أخمدت بالألوان الثابتة. عندما لاقت عينيه ازداد وجهها تصلباً، يكسر الوهم. رمته بنظرة تطلب المغادرة.

نظر ثانية نحو زكريا، مأخوذاً مرة ثانية في كل ذلك الانعدام القاتل للقدرة على الإصلاح، يراه الآن -كتلة ميتة من نسيج حي-كالأداة الكليلة لإمحاء عائلة غورسكي الأخير. ثم خطا مارك مبتعداً. نظر الجد نحوه كما لو أنه يراه للمرة الأولى، وقال مندفعاً: «من هذا؟» -الأب المضمحل المغبر يسجل ربما في بصيص متقطع فقط مجموع فشل ذريته المبرم. هذه المرة لم يجبه أحد.

عاودت الابتسامة الضعيفة المهذبة الظهور على وجهي والديه، عندما رأيا أن مارك كان يهم بالمغادرة، وفجأة شعر أنه متقزز بمزيج من الذنب والشفقة والاحتقار والاشمئزاز. أدرك أنها كانت ابتسامة متعجرفة. كانت ابتسامة مستسلم متعجرف، ابتلاع سقيم وتعبير مكشر من عجز كلي، بؤس خاص عنيد. واصلا الابتسام بشكل مرعب، يبتسمان بجانب ابنهم الميت ومارك تراجع بعد آبيجيل يدمدم بوداع ما.

في الخارج، كان الليل قد اكتمل. شعَّت النجوم باردة وصافية تقريباً، ترن لمارك ببعض الألفة العميقة، بعض الغموض المألوف على نحو عميق. ذهبا ليجلسا في الشَّاحنة، ليشربا ما بقي من البيرة، وأدار مارك الإشعال ليشغل السَّخان. تلجلجت الشَّاحنة بعناد، ثم انطلقت بهدير معدني ضخم، ثم تردت نحو اهتزازها الثابت المتكاسل. جلسا في الظلمة يشربان.

سحبت آبيجيل قدمها على المقعد وضمت ركبتها. قالت بهدوء تقريباً لنفسها: «لم يعد في وسعي التحمل، فقط الجلوس هناك والتحديق به، إنه كما لو أننا كنا نحاول أن نحدق به حتى نكف عن رؤية أي شيء هناك».

قال مارك وعقله في مكان آخر: «نعم».

كم جامدة مشاعر النجوم التي شهدت على القتل، تلك النجوم تلك الليلة قرب النهر. وتذكر تلك النجوم، كان يفكر عارفاً إنها كانت تتشبث بنفس تلك السماء السوداء طيلة ثمان سنوات، لم تتغير.

مارك، هل أصابك الجنون لقد قتلته

ارمه في النهر،

علينا أن نمسك بساقيه.

أسرع

هو لم يفهم العلم خلف خريطة السَّماء المفرودة، لكنه عرف أن النجوم فوق المستشفى الآن، لم تكن نفس النجوم من تلك الليلة، هو لم يتعرف عليها. كان يفكر: أتذكر نجوم تلك الليلة، وهي لا تزال هناك فقط لأني أتذكرها، إذا ما نسيتها سوف تكف عن الوجود.

جلس هو وآبيجيل في الشَّاحنة، صامتين بالريبة. عرف أنه عندما ينهيا شرب صندوق البيرة المؤلف من ست زجاجات، سوف لن يكون هناك سبب آخر لبقائهما، قد تغادر آبيجيل الشَّاحنة لتذهب وتصبح أرملة، ومارك قد يقود عائداً إلى المتجر، ربما يتوقف عند بار ليثمل، وبالنسبة له هذا بدا ناقصاً، ولو أنه لم يتمكن من أن يشرح ما كان ينتظر. لكنه لم يتحرك ليغير هذه الدورة، فقط جالس ويفكر بصمت، وإذا ما وجدتُ في ذاكرة تلك النجوم كما وجدوا في ذاكرتي، إذن في وسعهم أن يتذكروني فقط لأني أتذكرهم. وإذا توقفت عن تذكرهم. يفكر أخيراً، نعم لو أكف عن تذكرهم حينها سوف يتوقفوا عن تذكري. ثم قد يكون كما لو أن ذلك الليل لم يحدث البتة. كما لو أنه لم يقتله.

وحينها كان شيء ما ينشط فيه بهدوء. صامتاً، عشَّق تروس الشَّاحنة، وأقلع نحو الشَّارع في قرار منفصل فقط ليقود ببساطة. لم تسأل آبيجيل إلى أين هما ذاهبين، متقبلة بصمت تبادلي، وعندما انعطف غرباً نحو «ايست كارسون»، حدَّقت من النافذة كما لو أنها لم ترَ الشارع التجاري ألف مرة من قبل، كما لو أنها جديدة على البلدة، كل أضواء النيون المتشابكة الحصرية المتدلية على المباني، متحدية وملفتة ومتحفظة. لفترة تغلغل الضوء الزهري في الشَّاحنة مع شيء عاطفي، تلميح كهربائي ناعم من زمن مر وذكرى مرَّت. ثم تسرب مبتعداً عندما خرجا من الشَّارع، وبدا الليل أنه ينبثق مجدداً من حولهما. اتجه الطريق شمالاً، وسرعان ما كانا يقودان على نحو موازي نحو «مونوجاهيلا» وعندما مرا بملتقى النهرين، حدقا بالبوينت كما فعلا دوماً هنا، وكما قد يواصلا فعل ذلك بقية حياتهما: منظر المدينة برمتها، رهن إشارة الأنهار، تتجمع في غمرة العمارة في فيض واحد من المياه. ومن ثم مرت خلفهما، المدينة تظلم مثل ركام من جمر ينطفئ، ومن ثم كانا يقودان على طول نهر «اوهيو» تحت سماء معتمة، النجوم تدور، وسرعان ما كانا منفصلين عن المياه بمجرى واحد من السكة الحديدية.

تحدثت آبيجيل، وهي لا تزال تنظر نحو النهر الذي يجري طويلاً ومعتماً بجانبهما. قالت فقط بصوت مسموع فوق هدير الشاحنة: « كنا نبحث عن بيت، كنا كل عطلة نهاية أسبوع لنخرج وننظر إلى المنازل، ومرة عرضنا سعراً من أجل أحدها».

سأل مارك عندما صمتت: «أين؟»

«كاريك. بالتأكيد كاريك. كان بالفعل مهتماً بالأمر برمته أكثر مني. لم يرغب أن نتزوج ويتوجب علينا أن يعود إلى نفس الشقة». ثم أضافت: « كان ليكون أباً جيداً».

أومأ مارك، ولو أنها لم تكن تنظر إليه لترى ايماءته. ازدادت ظلمة الطريق باطراد، النجوم أكثر صفاء. تذكر أنه رآها مع زكريا ذات أصيل في عطلة نهاية

أسبوع، ليس منذ وقت طويل، يتشاوران أمام منزل مع امرأة ترتدي بنطالاً أحمر. لم يكن قد فكر بشيء حينها، لكنه شعر الآن كما لو أنه قد سرق نظرة نحو مستقبل منسوخ، كونه مطلعاً للحظة على عمليات القدر غير ممكنة التحمل التي تبدل دورتها باستمرار.

قالت: «يجب أن أخرج من بيتسبرغ. أنا لا أرغب أن أرى تلك المنازل ثانية، وهي جميعها في كل مكان في كاريك. لا أستطيع البقاء هنا».

عبرا الجدول إلى «ماكيس روكس»، انفتح طريق صغير يتبع قوس النهر. حاد مارك نحوه، يجلجل عبر سكك القطار، ثم اجتاز الطريق على أول باحة مرصوفة بالحصى تقع على ضفة النهر، لا تزال مرقعة بالثلج وتتناثر فيها زوارق مزودة بمحركات رثة راسية. أوقف الشَّاحنة وخرج إلى الليل، وجهه مرفوع نحو السَّماء، والحصى ينطحن تحت جزمته. ثم كانت الريح تهب بشدة عبر الماء لكنه لم يشعر بالبرد.

خمسة أميال مع اتجاه التيار من حيث أودع مرة ليفي جورسكي في المياه، كان يحدق بالنجوم الآن ليرى فيما إذا قد يتعرف عليها، مفكراً إن لم تكن نفسها، ثم عندما أموت، سوف تموت ذاكرتي، وذاكرتها عني سوف تموت معها. لمعت بشكل أوضح هنا، كما لم تلمع من قبل، كل واحدة منها ثقب حي في الليل، لكن عندما نظر وأمعن النظر بدت تزداد غموضاً في الترتيب، إلى أن وجد أنه لم يعد في وسعه أن يرى فيها شيئاً، لم يتمكَّن من التعرف فيما إذا كانت مألوفة أو غريبة، إلى أن بدت مجرد نقاط عديمة المعنى من الضوء ينتشر مسطحاً وتافهاً عبر السماء.

كان قد ترك المصابيح الأمامية مضاءة. لفترة جلست آبيجيل في الحرارة الخابية للشَّاحنة، تراقب هيئته يتحرك ثم يبتعد في الظلام. بدا محجوباً فيه، هيئة مذوَّبة على نحو باهت، كسولة وأولية في السَّائل المعتم. تمكنت في الشَّاحنة من سماع صوت الريح تطرق على النوافذ بطاقة حيوانية، وحشية، وغير مرئية. نادته أخيراً وهي تخفض النافذة قليلاً: «ماذا تفعل؟»، لكن بدا أن صوتها يحلق بعيداً في

الاتجاه الخاطئ.

ظن مارك أنه رأى شيئاً يعوم بصمت على المياه وهو واقف على العشب غير المشذب المجاور للنهر.

سمع آبيجيل تقول في الظلمة: «قتلته، ألم تفعل؟»، يكاد صوتها لا يكون مسموعاً في الريح.

تجمد، شيء ما رهيب ينتشر في صدره.

تمتمت: «هل قتلته؟»

عندما التفت رآها تخرج من الشاحنة في البعيد، وتمشي نحوه عكس اتجاه الريح، وشعرها يطير إلى الخلف، تمسك بيرة في يدها. للحظة كانت مضيئة بتوهج في مصابيح السَّيارة. خطت عن الحصى على الأسفلت بينهما، وحينها رآها فجأة تنزل على رقعة ثلج، تسقط من غير ترتيب لكن بطريقة ما تصون انطباعاً عن الخفة، مثل طائر وقع على الأرض بهبة ريح. عندما عاد إليها كانت لا تزال جالسة على الأسفلت ويدها تمسك بمعدتها. كان فمها مائلاً ومتصلباً حين قالت: «اللعنة على الجليد».

تناولت جرعة عنيدة من بيرتها التي كانت قد تمكنت بوجه من الوجوه من حفظها، قبل أن تسمح له بمساعدتها على النهوض. ظلت يدها على معدتها وفمها ظل متصلباً.

قال: «هل أنت بخير؟».

هزت رأسها.

«يمكنني أن أعيدك».

هزَّت رأسها ثانية، ومشت بتصلب تتقدمه نحو النهر. انضمَّ إليها حيث وقفت على العشب تحدق بالأشجار السوداء المتناثرة على جزيرة «برونوت».

قالت أخيراً بصوت يعلو على صوت الريح: «أنا حامل».

بدت الكلمات تسرع نحو نقطة بعيدة خلفهما، بسرعة مئة ميل في السَّاعة.

أضافت: «أنا لم أخبره حتى. لم أخبر أحداً».

نتأت الجزيرة مثل نمو خبيث وسط النهر.

قالت: «من الواضح أني سأتخلص منه»، ثم تجرَّعت جرعة أخرى من البيرة، كما لو لتعيد النقطة إلى مكانها. عندما عادت الزجاجة إلى جانبها، مدَّ يده ليأخذها منها، محاولاً في اللحظة الأخيرة أن يموه الجهد بعدم اكتراث، كما لو أنهما كانا يتشاركان الزجاجة. سمحت له بذلك، لكن عندما رفعها إلى شفتيه وجدها فارغة تقريباً، سخنت آخر جرعة من البيرة من حرارة يديها. نظرت إليه بغرابة، ثم ابتعدت عنه، تتجول عكس اتجاه التيار بجانب الماء الأسود، تماماً بعيداً عن متناول أمواجه المزقة.

بدأ شيء ما يتَّخذ شكلاً مبهماً في مؤخرة عقله. أدار الزجاجة الفارغة عالياً في يديه، ثم سحب ذراعه وقذفها من عنقها. لم يتمكن من رؤيتها تطير، لكنه ظن أنه تمكن من سماعها ترن لبضع ثوان، الاحتكاك الهامس للهواء بالزجاج، إلى أن حجبتها المياه. عندما رفع بصره كانت آبيجيل أكثر الأشياء وضوحاً في المسافة القريبة، سترتها الشتوية البيضاء تلتقط وشل الضُّوء الذي وفرته سماء الليل. وبدا بدا كافياً، الآن، كان لمعانها الشَّاحب والبارد كافياً ليسحبه، ليسمح لنفسه أن يكون مسحوباً، أن يثير شيئاً حقيقياً أو متخيلاً في دمه.

قال: «آبي». متحركاً نحوها يشعر ببعض الجذب الأثري عندما لفظ الاسم، المقطعين اللفظيين الأولين اللذين كانا فيما سبق شائعين على شفتيه. نظرت إليه

وهو يدنو. محجوبة بالعتمة، كانت الميزة الخاصة للخطوط المحفورة على وجهها في هذه الأيام ممحوة.

عندئذٍ، قبل أن يتمكن من المتابعة، سألت أخيراً: «لماذا أتيت اليوم؟».

لم تكن نبرتها قاسية، أو اتهامية، بل متطلبة بهدوء، ومتروية.

تردد ثم أجاب: «لا أعرف».

مفكراً بالاسترخاء الرهيب على وجه ليفي الموحل بعد أن سقط، الوجه الفارغ يتضح تحت شعاع الضوء الومضي مثل قمر في القذارة. استدرك: «لا أستطيع الشَّرح في الواقع».

«حاول».

أطلق نفساً من الخيبة: «أتمنى لو في وسعي أن أخبرك».

«إذن أخبرني».

«لا يمكنني. لو عرفت لكنتِ فهمت».

كانت هادئة، تبدو أنها تحترم هذا الرد بما فيه الكفاية فلا تواصل ثانية.

ثم حلَّت طراوة على صوته: «لكني أريد أن أراك».

آمن بهذا الآن، مع أنها لم تبدُ حقيقة في نظره سابقاً. وقفا جنباً إلى جنب، وهو يكافح ليستجمع شجاعته ويخضع مقاومته. وحينها لفها بذراعه بسرعة، كما لم يفعل منذ المدرسة الثانوية. زلق ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بقسوة إلى حدٍّ ما، وتمكن من أن يستشعر، عبر سترتها السميكة، شكل خصرها الذي كان مألوفاً، عندما ارتجفت من الريح. لم تقاوم وجذبها أقرب إليه.

قالت ذاهلة: «كما تعلم، حتى لو كانت طريقة رحيله رهيبة، ومفاجئة، لا أزال أفضلها على طريقتك في الرحيل. تصمت فقط دونما سبب، كما لو أنك خرجت فقط دون أن تخبرني».

كان هناك مرونة في صوتها الآن، على الرغم من بعده. فكَّر مارك، وآبيجيل مضغوطة إلى جانبه، أنه تمكن من اكتشاف تيار قدره يتبدل ثانية، ينبثق الآن مع قدرها وقدر جورسكي. بدأ، دونما تفكير حتى، يخطط للمستقبل، مستقبل بدا يتجلى أمامه عند حصيلة حياته: قد يتعلم أن يحب آبيجيل ثانية، قد يكون أباً لابن زكريا كما لو أنه ابنه، قد يرتاد مدرسة كهربائية ويشتري لهما منزلاً. قد يجعل من نفسه شخصاً مفيداً ومنتجاً. في عقله، هذا كان قراراً بنسبة أقل من كونه وثيقة عمر قد يقبلها دون مقاومة بل بامتنان.

قال: «أنا آسف».

سألت بغموض: «حقاً؟».

ومع ما بدا دافعاً وداعياً، جذبها نحوه بأقصى قوة في الظلمة، ثم ضغط فمه على فمها بتهور، مقبلاً إياها بحماسة قاسية وعديمة العاطفة ومريرة، كالضَّرب تقريباً. استجابت بداية بلطف، تضغط بجفاء فارغ، لكن بعد لحظات شعر بفمها ينفتح تحت فمه، يصبح عديم الشَّكل بالأسى فجأة. حتى عندما أدرك أنه كان عديم النفع أمسك بقفا عنقها وواصل معانقتها بعناد، إلى أن حررت نفسها وهي تبكي، محزن أخيراً، نشيجها ممزق وحلقي ولا يشبه بكائها أثناء شجارهما منذ وقت طويل. لم يكن هناك ما يقال، ولم يقل شيئاً عندما ابتعدت عنه، وتراجعت نحو الظلمة، تبهت هيئتها الباكية ثم تختفي.

انغلق باب الشَّاحنة خلفه في البعيد. كانت الريح تنزلق بشدَّة على سطح المياه، فيخشوشن متكدراً، وبدا النهر عريضاً وطويلاً وهائجاً بالحياة، مقدَّر له أن يجري ويتكدس في إدامة لا نهائية وغافلة. ووقف مارك على ضفته يتنفس بهدوء. لم يرَ

شيئاً يعوم على وجه المياه الآن، ما من جثث، أو أشباح، رأى فقط المياه تغرق في المياه وتتجمع على السَّطح.

لاحت النجوم في الأعلى. تتجمع على امتداد حزام مجريّ، لا تبدو ساكنة الآن، بل تنجرف بتكاسل في صورة متغيرة أبداً، رافضة الخضوع. وفكَّر مارك دون أن يصدق: كيف أن لكل واحدة من تلك النقاط موقعها في الكواكب، وعوالمها المتعاقبة. فكر دون أن يصدِّق، في أشكال الحياة المبهمة جميعها، التي لا بد أنها تبزغ من ترابها، تخيل أشكالاً ظليلة منتصبة على ضفاف نهر غريب، في بيتسبرغ الغريبة، كل واحة يحمل الثقل الرهيب لجريمة قتل صغيرة-جرائم وحيوات وسلالات زائلة، مثل حلم يتحلل بالوعي. توقف عند هذه الفكرة، يحاول أن يسحب منها نفساً من العزاء، لكن الصورة كانت ضعيفة جداً. وهو واقف في الظلمة، بدا أن نظراءه المتخيلين ينسحبون من المعقولية، ليتناقصوا في الليل، إلى أن أخيراً لم يعد هناك سوى النهر والريح ووزر قتل ليفي جورسكي، قريبٌ ومصمٌّ ولا يقبل الجدل.

مكتبة
t.me/t_pdf

عندما جاء جوني إلى البيت يخطو متثاقلاً

ك.س. كونستانتين

هناك سبع عشرة رواية منشورة لـ ك.س. كونستانتين من قبل أربعة ناشرين مختلفين. يصر ناشرون، موزعون، وكتاب مراجعات على رأيهم في كونها «ألغاز» لأن الشَّخصيات الرئيسة غالباً ما تكون من رجال الشرطة وأحياناً يتم توقيف واحدة أو اثنتين من الشخصيات. لقد تخلى عن محاولة إخبارهم عكس ذلك. نشرت له أيضاً قصتان في مقتطفات أدبية حررها أوتو بنزلر. قصته المدرجة هنا هي قصته الثالثة وربما الأخيرة لأن القصص صعبة والمردود سيء.

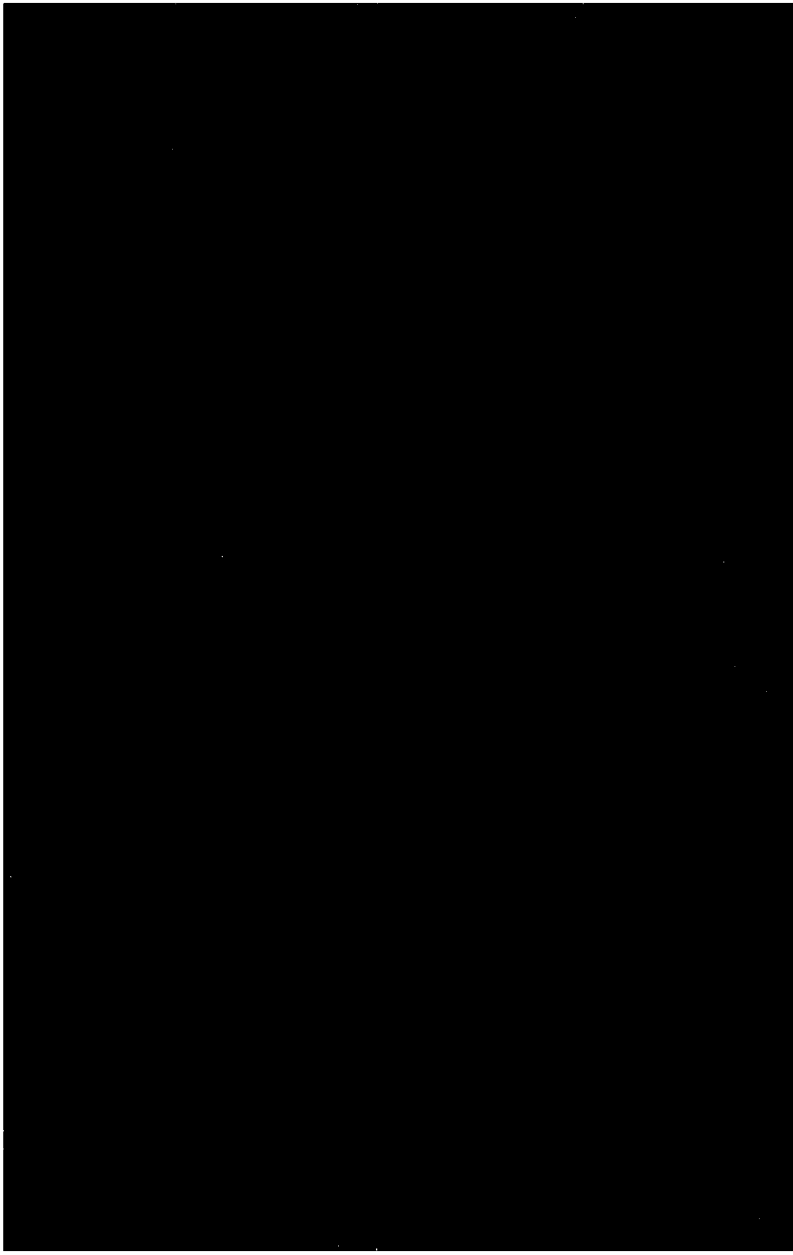

تخرَّج جوني جيمبا من المدرسة الثَّانوية في السَّادس من شهر حزيران عام ١٩٤٤، في ذات اليوم الذي اجتاحت فيه قوَّات الحلفاء النورماندي. التحق بالجيش بعد أسبوع، مصمماً على قتل اليابانيين أو النَّازيين، سيَّان. كل ما احتاجه كان سلاحاً وطلقات. قال جميع معارفه: ينبغي علينا أن ننال منهم قبل أن ينالوا منا. وافق جوني في البداية، لكن عندئذٍ تذكَّر بيرل هاربر وفكَّر: هم بالفعل نالوا منا، ألم يفعلوا؟

بعد تدريب أساسي، استقل سفينة حربية إلى إنكلترا، يحمل على كتفه بندقية «م ١ جاراند»، تماماً مثله مثل جميع من كان على متن السَّفينة، فيما عدا ضباط الصَّف. لكن بعد تدريب لمدة شهر في إنكلترا، عندما حطَّ رحاله أخيراً في فرنسا أواخر شهر أيلول، أمر الرقيب الأول جميع أفراد الفصيل بتسليم بنادقهم. ثم وزَّع عليهم جميعاً بنادق صغيرة. لم يفهم جوني. كانت البنادق الصغيرة لضباط الصَّف: الرقباء الأوائل، الرقباء التقنيون، الرقباء. فيما عدا ضباط الصف في فصيله، لم يكن أحد آخر جندي من الدرجة الأولى حتى.

قال لهم الرقيب الأول ألا يقلقوا بشأن نوع السِّلاح الذي يحملون. فالألمان إما أسرى أو جرحى أو قتلى. سوف لن يتوجب عليهم أن يقتلوا أياً منهم. ثم قال لهم الرقيب الأول إنهم كلفوا بتسجيل الموتى.

لم يسمع جوني ولا أي شخص آخر يوماً بتسجيل الموتى. أراد أن يعرف ما يكون.

قال الرقيب الأول: لا تقلق. سوف تعرف قريباً جداً.

قال لهم قائد فرقته أنهم سوف يحتاجون إلى حزم النقل الميدانية الكاملة. طالما أنهم لم يفعلوا شيئاً في فرنسا سوى الوقوف والانتظار، كل ما توجب عليهم فعله كان تناول حزمهم وحملها. أراد جوني أن يعرف وجهتهم وما كانوا سيفعلونه عند

وصولهم.

قال له قائد الفرقة: سوف نعرف عندما نصل. هناك شاحنة قادمة من أجلنا. سوى ذلك لا أعرف أكثر مما تعرفه.

صعدوا إلى مؤخرة الشَّاحنة تماماً عندما أخذت تمطر. أمطرت طوال السَّاعتين اللتين واصلت الشَّاحنة فيهما المسير، ولم تزد سرعتها أبداً عن عشرين ميل في السَّاعة. غمر الوحل محاور العجلات أحياناً. مرة توجب عليهم الخروج والدفع. انزلق جوني واثنان آخران وسقطا على ركبهم في القذارة، من ثم تلوثا بالوحل عندما تحركت العجلات أخيراً.

تماماً عندما فكر جوني أنه من غير الممكن أن يزداد تبللاً، قذارة، أو بؤساً، سمع صوت سلاح المدفعية. كان يظن إنه الرعد خلال الدقائق القليلة الأخيرة. كان عليه أن يعرف أنه ليس صوت الرعد، لأنه لم يرَ البرق. والآن كان الصَّخب يزداد حدَّة. أعلى وأكثر وضوحاً. كانت الانفجارات تتوالى مثنى وثلاث ورباع، لا يفصل بينها سوى ثوان.

شعر جوني بقرقرة في معدته، جفَّت حنجرته فجأة وبدت كما لو أنها تنغلق. كان تنفسه يزداد صعوبة. قال لنفسه: أنا بخير. ما أشعر به حسبه إنه الخوف. الجميع خائف مثلي. قد لا يظهرونه، لكن الجميع ينظر نحو مصدر صوت الانفجارات ولا ينبس أحد بكلمة.

انتاب جوني نفس الشعور عندما تحدَّث إليه «بيلي بريستاش» عن ركوب النهر في زورق عمه. ظل يردد على مسامع جوني إنه كان سيجدف مباشرة في أعقاب الباخرة التي كانت تتجه مع مجرى النهر. في البداية اعتقد جوني أنه كان يمزح، لكن كلما قال جوني إن هذا جنون، كلما ضحك أكثر.

قال جوني: رذاذ الماء الذي تخلفه الباخرة خلفها الذي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام

وأنت تجدف في ذلك وسوف يقذفنا مثل فلينتين. سوف ينقلب هذا الزورق على رؤوسنا.

قال بيلي: هنا بيت القصيد أيها الأحمق. إنه أفضل من كينيوود. أكثر تسلية من الريسر أو جاك رابيت. لا سيَّما لأن القبطان ينظر نحونا مباشرة، وفي أية لحظة سوف يطلق الصَّفارة. لكن هذا كل ما يمكنه فعله. هو يعرف أننا سوف نفعلها، وهذا يزعجه للغاية، لكن لا يمكنه فعل شيء سوى أن يصفر بصفارته. اسمعه، ها هو يمضي، هاها! وها نحن نمضي!

وذهبا إلى هناك! جدف بيلي سريعاً قدر استطاعته جاهلاً ما ينتظره، ابن العاهرة المجنون. وانقلب المركب بهما تماماً مثلما توقع جوني أنه سيحدث. غطس جوني نحو اليسار لأنه لم يرغب أن يكون تحت المركب عندما انقلب نحو اليمين. طارت المجاديف مثل زوج من عصي الأيس كريم، وجوني تخشَّب من الخوف لأنه لم يفكر في أخذ نفس عميق، ولم يعرف الطريق نحو الأعلى، ولا بد أنه ابتلع قدرا كبيراً من الماء. يعلم الله ما الذي يحتويه.

ظهر جوني أخيراً على السَّطح، ليس له أي فضل في ذلك، فقط حظ أحمق. عندما أعادا المركب إلى وضعه وصعدا فيه سأل بيلي إذا كان جوني قد ابتلع أي من سمك «اليغني» الأبيض.

أجاب قائلاً إنه لم يسمع يوماً بذلك النوع من السَّمك.

-يا مسيح لا تعرف شيئاً، هل تعرف؟ ذلك مطاط أيها الغبي. هو في كل مكان في النهر. ربما ابتلعت سمكاً أسود أيضاً.

-ماذا؟

-روث، أحمق. غبي مثلك، حتى أني لا أعرف لماذا أنا صديقك.

قال جوني: أنا لست غبياً كما تظن. السَّنة الماضية فقط حصلت على درجتي بي.

-درجتا بي! شيء حسن من أجلك! لكن هذا هراء مدرسة، هذا لا يجعلك ذكياً.

-هذا ليس ما يقوله والدي، أو أمي. قالا لي أن أواصل الحصول على درجات مثل تلك، قد أتمكن ربما من الالتحاق بمعهد كارنجي التقني وأصبح مهندساً.

-مهندس! اذهب إلى معهد كارنجي التقني فيمكنك أن تتعلم قيادة قطار؟ يا فتى سمعت كل شيء الآن. عد إلى القذارة واسدِ لي معروفاً. تظاهر أنك لا تعرفني.

قال جوني: هذا يناسبني. منذ حوالي خمس دقائق اعتقدت أنك كنت ستقتلنا.

-حسناً، هل أنت ميت الآن؟ ها؟ لا تبدو لي ميتاً. اللعنة، أنت لا تميز حتى بين الجد والهزل. تلك كانت تسلية، أيها الأحمق.

-لا لم تكن!

-اذهب إلى البيت، إلى أمك وأبيك. لكن لا تنس ما قلت. منذ الآن فصاعداً لا تعرفني ولا أعرفك. كارنجي التقني. أيها المسيح الرب.

تذكر جوني المحادثة كما لو أنها حدثت ذلك الصَّباح، قبل أن يصعد إلى الشَّاحنة.

بعد خمسة عشر دقيقة من وصولهم إلى حيث كانوا ذاهبين، وإلى حيث قيل لهم ماذا سيفعلون وقد بدأوا بفعله، تقيأ جوني مرتين حتى الآن. كان مسروراً بالفعل لأن التقيؤ جعل عينيه نديتين، حتى الآن، لبعض الوقت على الأقل، لم يتمكن حقاً من رؤية ما كان يحاول التقاطه، أن يطابق مع قطع أخرى وأجزاء التقطها سلفاً. ثم تقيأ ثانية. كان كل ما خرج آخر مرة رضاباً.

كان كل يوم شبيهاً بالذي سبقه. يستيقظ جوني ويسير إلى خيمة الطعام ويحاول أن يأكل. وكان لا يكاد يخرج ليبدأ بالتقاط القطع حتى يتقيأ فطوره. التقط المزيد

من القطع. حاول أن يطابقها مع قطع أخرى. ثم تناولوا طعام الظهر وحالما بدأ جوني بالعمل، تقيأ طعام الظهر. زاد التقيؤ سوءاً إلى حد كبير، حاول جوني ألا يأكل. لكن بعد يوم تقريباً، أمسك به قائد فرقته وأمره أن يأكل.

قال قائد فصيله: كل أو مت. إن لم تأكل سوف تموت أخيراً، الجميع يعرف ذلك.

لذا حاول جوني أن يأكل ثانية، حاول بشدة لكن لم يصمد أي شيء وضعه في فمه.

أو إن لم يتقيأ مباشرة، كان خلال فترة قصيرة ليخرج من الطرف الآخر ليناً، إلى أن انسلخ جلده من المسح المتكرر. كلما ابتلع استطعم طعم الحمض. ثم بدأ يسيل أنفه بصورة متكررة. لم يعرف فيما إذا كان يعاني من البرد أو من الانفلونزا، أو فيما إذا كان يبكي. تألم جسده كاملاً كما لو أنه يعاني من الإنفلونزا. كان يشعر بالبرد ما جعله يرتعش، لكن لم تكن حرارته مرتفعة، لم يكن أنفه ليتوقف عن السيلان، ظلت عيناه تفيضان بالدموع.

تساءل فيما إذا كان ما يحدث له يحدث للجميع. عندما نظر من حوله، الأمر الوحيد الذي لاحظه كان أنه ما من أحد كان ينظر إلى أي شخص آخر عيناً بعين. بدا أن الجميع يتسكعون في الأرجاء خافضي الرؤوس يحاولون ألا ينظروا. بل أسوأ، بدا كما لو أنهم يحاولون ألا يكونوا مرئيين. كان الرجال الوحيدون الذين بدوا أنهم يتحدثون، أو يقولون أي شيء على الإطلاق، ضباط الصف الذين لم يغادروا أبداً منطقة معسكرهم المؤقت. وهؤلاء الرجال لم يبدُ أن لديهم أي مشكلة في الاحتفاظ بطعامهم في بطونهم.

مع نهاية الأسبوع الثاني كان سروال جوني يتقوض عنه عملياً. كان عليه أن يقصر طول حزامه باستمرار. مع نهاية الأسبوع الثالث نظر جوني إلى نفسه عندما كان يحاول إزالة النتانة ورأى أن معدته تنكفئ نحو عموده الفقري. كانت أضلاعه بارزة. ألقى بنظرة على نفسه في مرآة معدنية شخص آخر وكان مجفلاً للغاية

بالمنظر، هرع عائداً إلى كيس نومه وغطى رأسه.

لم يعرف جوني ماذا يفعل، بدت حياته كئيبة للغاية. فكَّر إذا ما كان يوجد أي شيء أحب أن يفعله. وإذا ما كان يوجد مكان أحب أن يفعله فيه؟ البيت؟ لم يستطع تذكر عنوان بيته. تذكر نهراً اعتاد السباحة فيه. أيضاً تذكر أنه لطالما كان يحب علم الحساب. مع ذلك عندما حاول أن يجري عملية جمع أو طرح بسيطة، كان عليه أن يمعن التفكير فيها. لكن تبين أن ذلك أمر جيد، لأن التفكير بشدة في كيفية الجمع أو الطرح مكنه من التوقف عن رؤية، وشم، والشعور ما يفعله كل يوم.

سرعان ما شعر بالتعب من عمليتي الجمع والطرح. جرب القسمة والضرب. ضاعف مراراً وتكراراً الوقت وقسمه. حسب عدد السَّاعات في الشَّهر، عدد الدقائق والثواني. حل مسائل في القذارة برأس حربته. لم يكن عليه أن ينظر إلى أحد، لم يكن على أحد أن ينظر إليه. لم يكن عليه أن يفكر إلى أي حد كان آخذاً في النحول. لكن في منتصف الأسبوع الثالث كان قد بدأ يهذي. رأى ساقاً تمشي، أيدي تصفق، ويد ترمي كرة، قدم تركل كرة، أسنان تقضم الهواء، شفاه تبصق دماً، دماغ يفكر.

عندما سأله الرقيب الأول عم يجري معه، قال جوني: أنا أرى كيف يبدو التفكير.

قال الرقيب الأول: هل يفترض بذلك أن يكون مضحكاً.

قال جوني: أوه إنها ليست نكتة، إنه أمر شنيع.

في يومه الثلاثين، سبعمئة وعشرون ساعة، ثلاثة وأربعون ألف ومئتا دقيقة، مليونين وخمسمئة واثنان وتسعون ألف ثانية، على تكليفه في تسجيل الموتى، في أول استراحة صباحية، التقط جوني بندقيته الصغيرة، انتزع المخزن ليتأكد من أنه محشو تماماً، أقحم المخزن من جديد، شغل الصَّاعق ليضع دورة في الحجرة، دفع صمام الأمان، وضع الماسورة في فمه، وفكر: ها أنا هنا في الحرب، وأنا الشخص

الوحيد الذي سوف أطلق عليه النار.

الأمر الذي عرفه فيما بعد: كان على ظهره وشخص ما كان جالساً عليه، يضربه ويلكمه بعنف على وجهه صارخاً.

ظل مهاجمه يصرخ عليه: هل تظن أنك سوف تقتل نفسك وتتركنا هنا لنلصق صفيحة تعريفك في أسنانك ونعلق الأخرى على بندقيتك! تظن أنك سوف تخرج من هذا بتلك السهولة؟ أيها اللعين!

هو لم يعرف من طرحه أرضاً وضربه، لم يره قادماً. كل ما عرفه على وجه الثقة، أنه كان يتنفس بصعوبة. لم يعرف أن أنفه تهشم حتى كاد يصبح مسطحاً. كان الدَّم يسيل في عينيه من جروح بليغة على حاجبيه. كل شيء بدا أحمر اللون. تكسرت بعض أسنانه. كان يحاول التقيؤ على الدم المسكوب من لثته، يحاول ألا يبتلع أسنانه.

إبَّان وصوله إلى باريس، كانت معظم التورمات في وجهه قد اختفت، مع وصوله إلى إنكلترا، شفيت الجروح، مع وصوله إلى «فورت ديكس نيوجيرزي»، لم يكن يرتدي سترة المجانين، لكنه كان لا يزال مصفد اليدين ومغلول القدمين.

بعد شهرين، عندما سلمه الضابط الآمر لجناح السجن في المستشفى أوراق تسريحه، بالكاد نظر جوني إلى الكلمات. أفادت كل من الورقتين عن كونه غير صالح للخدمة العسكرية. أو ربما غير صالح للواجب العسكري. لم يكن واثقاً. كانت واثقاً من أنه لم يهتم. هو أيضاً لم يهتم إلى أن جميع الشارات النحاسية أزيلت عن الزي الجديد الذي أعطي له. لم يهتم إلى أنه يملك مالاً في جيب سرواله أو أن العريف الذي ناوله المال قد خصم سعر تذكرة حافلة العودة إلى بيتسبرغ.

الأمر الأخير الذي قاله له قائد جناح السجن هو: يوجد مشفى خاص بالمحاربين القدماء في بيتسبرغ، ربما سوف يكون بمستطاعهم مساعدتك هناك يا بني.

سأل جوني إذا كان يفترض به أن يبلغ تلك المستشفى.

قال الضابط المسؤول: لا، أنت مفصول رسمياً من الجيش، يا سيد جيمبا. لا يمكنني أن آمرك بأن تبلغ في أي مكان. أنا أنصحك وأقترح بشدة أن تذهب إلى هناك وتطلب المساعدة لأنك يا بني حقاً بحاجة إليها.

الأمر الأخير الذي فعلوه قبل أن يركب الحافلة كان إزالة الأصفاد وسلاسل الساقين.

جالساً على المقعد في مؤخرة منزل والديه في شارع واشنطن، في ماكيس روكس بوتوم، رأسه إلى الخلف، مغمض العينين، الشمس دافئة على وجهه، تساءل إذا كان سيحدث شيء إذا لم يذهب إلى مستشفى المحاربين القدماء تلك، أينما كانت. طالما أنه كان مفصولاً بشكل قانوني، كان واثقاً تماماً من أنهم لم يتمكنوا من قول إنه فر من الجندية. لقد أطلقوا النار على رجل في فرنسا لأنه فر من الجندية.

اعتقد أنه سوف يظل مرتدياً زيه الرسمي، ولو أنه لم يتمكن من تذكر السَّبب الذي جعله لا يملك أي شارات. صدق أنه لو ظهر نائب في البرلمان وحاول أن يقول إنه كان فاراً، بوسعه أن يخبره أنه يرتدي زيه ليظهر نيته في العودة. وإذا كان يخطط للعودة فذلك قد يعني أنه لم يكن فاراً، فقط غائباً دون إذن.

يقرأ أوراق التسريح ثانية. قالت الأمر نفسه الذي قالته كل مرة قرأها. وبعد خمس دقائق لم يتمكن من تذكر فيما إذا كانت الخدمة العسكرية أو الواجب هو الذي لم يكن صالحاً له.

عندما كان والداه في المطبخ، توقفا عن الكلام عندما مر في طريق عودته إلى المقعد في الخارج. بعد أن أغلق الباب تمكن من سماعهما يتحدثان بصوت منخفض. لاحقاً بدا أنهما يهمسان كل ما مر بهما. لاحظ أمراً آخر وهو أنهما كانا يبدوان مذنبين. تساءل عما فعلاه ليبدوان بذلك الشكل.

ذات أصيل جاءت والدته إلى الباب وقالت: كيف تشعر اليوم جوني؟ هل تشعر بأي فرق؟

تململ. تماماً كما فعل كل ما كانت تطرح عليه السؤال نفسه من قبل.

كان السؤال التالي قابلاً للتنبؤ به كالذي سبقه.

-هل أنت واثق من أنك غير راغب في أن أغسل ملابسك؟

هز رأسه بالنفي، أغمض عينيه، ورفع وجهه نحو الشمس.

كان لتعليقها التالي وقع ضئيل كتعليقيها السابقين: جوني لا تغضب، لكن بدأت تفوح منك رائحة كريهة.

فكر: بدأت؟ يا يسوع، أنت تظنين أن رائحتي كريهة الآن؟ كان عليك أن تشمي رائحتي منذ شهرين.

لم يقل هذا. لم يكن هناك من فائدة ترجى من إيلام والدته. لطالما كانت طيبة معه، وبأي حال هي لا تلام على أي شيء حدث منذ وصوله إلى فرنسا. لم يكن من شيء خطأها ولا خطأ والده.

بدأ التفكير بشيء كان يفكر فيه طوال الأسبوع الماضي تقريباً. كان يفكر بألا يتحدث بعد الآن. لكن إذا توقَّف عن الكلام خشي أن تظن أمه أن هذا عائد لإلحاحها عليه بالأسئلة نفسها يومياً، ولم يكن هذا هو السَّبب إطلاقاً. كان فقط لأن الكلام كان ينفذ منه، وكان واثقاً تمام الثقة من أنه إذا أنفق كل كلماته، متحدثاً عن كيف كان أم لم يكن يشعر، أو فيما إذا رغب أو لم يرغب أن تغسل ملابسه، قد يحاول أن يتحدث ذات يوم ويجد أن جميع كلماته قد نفدت ولن يكون قادراً على قول شيء آخر ثانية، لأنه كان واثقاً أيضاً من أنه لم يعرف أين يمكنه الذَّهاب والحصول على مؤونة من كلمات جديدة، ليست كلمات جديدة

وحسب، بل كلمات جديدة بالنسبة له، وقد شعر بالثقة من أن تلك قد تكون مشكلة حقيقية.

حجبت الشَّمس سحابة كبيرة منتفخة مدة دقيقتين. خلع جوني سترته وعلقها على كتفه، وأخذ يمشي باتجاه النهر. لم يذهب إليه منذ البارحة وأراد أن يتأكد من أنه لا يزال موجوداً. كان هناك شيء في النهر سكَّنه. ربما لأنه تحدَّث ذات مرة إلى رجل من المتحف كان يحفر في المتراس الهندي، وذلك الرجل أخبره أن النهر كان موغلاً في القدم. وُجد هناك منذ آخر ذوبان لكتلة جليدية. منذ آلاف السِّنين. في البيت، تلك الليلة، حسب جوني عدد السَّاعات، الدَّقائق، والثَّواني في ألف سنة، ولم يتمكَّن من نطق الرقم الذي توصل إليه. أحبَّ اسم النهر، على الرغم من أنه توجب عليه أن يسأل والده عنه.

قال والده: أوهايو، إنه نهر أوهايو. عندما كنت صغيراً كنت تسبح فيه، هل تذكر؟

لم يكن واثقاً من أنه استطاع تذكر السباحة فيه. أحبَّ صوت اسم النهر. مشى يردده مراراً وتكراراً، يغنيه من قبيل أو-هاي-أو.

كان الجو دافئاً على غير عادته في شهر تشرين الثاني.

قال والده: صيفٌ هندي.

لم يتمكَّن من معرفة السبب وراء نسبة الصَّيف إلى الهنود. ربما كان بسبب المتراس الهندي لقربه بعض الشَّيء من بيتسبُرغ، حيث تحدَّث إلى الرجل من المتحف الذي أخبره عن مدى قدم النهر. كان يفترض وجود عدد كبير من الهنود المدفونين في ذلك المتراس. صدَّق جوني هذا لأنه وجد ملء جرة من عظام أصابع اليدين والقدمين، كانت لا تزال على الرف في خزانته في الطابق العلوي.

ربما قد يخرجها من الجرة عندما يعود إلى البيت ويعدها ثانية. تساءل لماذا لم

يضايقه العثور على تلك العظام الهندية يوماً، لا يشبه أبداً الانزعاج الذي شعر به لدى العثور على عظام في فرنسا. قطع الأجساد التي جمعها في فرنسا جعلت تناوله للطعام وتغذية نفسه مستحيلاً بالنسبة إليه. كان قد خسر في شهر تقريباً ثلاثين رطلاً. بمعدل رطل كل يوم. عندما كانوا يقيسون وزنه في «فورت ديكس» كان ضعيفاً جداً وتوجَّب على الطبيب أن يثبته على الميزان.

قبل أن يصل نهاية الشَّارع بقليل، سمع صوت بوق وشخص ما ينادي باسمه. ثابر على السَّير بنفس السرعة، لكنه ظنَّ أنه تعرَّف على صاحب الصَّوت، لذا التفت ونظر، كانت السَّيارة تجاريه في السَّير والسَّائق يبتسم.

-هي، جوني يا فتى، سمعت أنك عدت إلى البيت، ألم يطل بك الغياب هناك كثيراً؟

توقَّف جوني وانحنى ليتمكن من النظر إلى السائق على نحو أفضل: أعرفك؟

-هل تعرفني؟ يا له من سؤال؟ أنا بيلي، ألا تتذكرني؟

-بيلي؟

-بيلي بريستاش! ما خطبك؟ هل فقدت عقلك؟

لا. أعرف أين هو. ربت على رأسه. أنه هنا.

اعتقد بيلي أن ذلك كان مضحكاً.

- أنت تلاحقني، صحيح؟

-ألاحقك؟ أنا في سبيلي إلى هنا، كيف يمكن أن ألاحقك؟

أوه، الآن أعرف أنك تلاحقني هيه لنتكلم بجدية الآن أريد أن أتحدث معك

عن أمر ما.

-قلت إنه من المفترض بنا أن نتظاهر بأننا لا نعرف بعضنا بعضاً.

-آه هيا يا رجل ذلك كان منذ زمن طويل، والدتي تحدثت مع والدتك في الكنيسة وقالت والدتك إنك عملياً لا تتحدث مع أي شخص، تقول إنك فقط تجيب إجابات مقتضبة، أو فيما عدا ذلك لا تقول شيئاً.

بدأ جوني بالسَّير مجدداً دون أن يقول شيئاً.

قال بيلي: أخمن أنك ربما سمعت، حاولوا تجنيدي السَّنة الماضية، لكني رسبت في الامتحان البدني.

-سمعت شيئاً؟ ماذا؟

-أنت لم تسمع عن أنهم وضعوني في فئة ف-٤ ؟

-أربعة ماذا؟

-ف- ٤ .ألا تعرف ماذا تعنيه ف٤؟

-لا.

-حسناً، قبل أن تسمع بعض الشَّائعات المنتشرة الخادعة عن أني أحاول تفادي الذَّهاب إلى الخدمة العسكرية، أخبرك أني رسبت في الامتحان البدني. لذا أنت تسمعها تماماً من فم الحصان. خطب ما في قلبي. نوع من لغط القلب، أو ما شابه لذا أنا ف ٤ غير لائق بالخدمة العسكرية.

-هذا ما تقوله أوراق تسريحي. أو ربما هي الخدمة العسكرية التي لا أصلح لها.

قذف بيلي رأسه إلى الخلف وضحك بشدة.

مسح عينيه وقال: هذا كثير، هذا كثير حقاً. أنت وأنا. متشابهان، غير لائقان.

-لا لسنا متشابهين.

-لا؟ كيف يكون ذلك؟

-أنت قلت إني أحمق. لم تعرف لماذا كنت صديقاً لشخص أحمق مثلي.

-هيا جوني انس ذلك. ذلك حدث منذ وقت طويل.

-أتذكره كما لو أنه حدث البارحة.

- هيه يا رجل، أنا آسف لأني قلت شيئاً مثل ذلك يوماً، جيد؟ لو عاد الزمن بنا ما كنت لأقوله أبداً. إذن نحن أسوياء الآن، صحيح؟

-أسوياء؟

- تعرف ما أعنيه. أسوياء مثل أصدقاء ثانية. كما اعتدنا أن نكون. كما كنا في المدرسة، في الصف التاسع.

-أنت كنت في التاسع، أنا كنت في الثامن.

-حسناً، حسناً، إذن أنت كنت متأخراً عني سنة. سنة واحدة، ما الفرق؟

-أنت لم تتحدث إليَّ يوماً قبل الآن.

-هيه أنت تعرف، البطل الفاتح جاء إلى البيت، يجب أن أتحدث إليه، كما تعلم ذلك النوع من الهراء.

-أنا لست بطلاً. لم أغلب أحداً.

-هاه؟ لم تكن؟ لم تفعل؟ أنظر، هناك، ذلك ما أريد التحدث معك بشأنه. كيف يبدو قتل شخص ما؟ كم قتلت من الالمان؟

-لا أحد.

-لا أحد؟ أنت لم تقتل حتى ألماني واحد؟ هيا.

- لم أقتل أحداً.

-هيا يا رجل، كفَّ عن ممازحتي ماذا كنت تفعل هناك؟

-جمع القمامة.

-تجمع القمامة؟ اخرج من هنا.

-هذا ما تفعله الحرب. تنتج قمامة.

-وذلك ما كنت تفعله، هاه؟ التقاط القمامة، إفراغ العلب، نفايات من ذلك القبيل؟

أومأ جوني.

-كف عن ممازحتي يا رجل، هيا هذا أنا هنا بيلي.

التفت جوني عن السَّيارة وواصل السَّير نحو النهر.

-هيه! إلى أين أنت ذاهب؟ كنت أمزح فقط لم أقصد شيئاً.

ظل جوني يمشي، لم يسرع، ولم يبطئ.

ظل بيلي يجاريه في الخطو.

-هيه! جوني! ألا تريد أن تذهب في جولة؟

-إلى أين؟

-إلى أي مكان، هيا، سأريك سيارتي. فقط اصعد جديدة فعلياً. لم تمش سوى ألف ومئتي ميل. ليس حتى ذلك، ألف ومائة وخمس وتسعون، كي أكون دقيقاً. لكنك تتساءل من أين حصلت على المال، هاه؟

-لا. لا أتساءل.

-لا تتساءل؟ سأخبرك بأي حال. اللعنة يا رجل، أنا أتدحرج فيها. أنا أقود شاحنة نقل في مصنع «المقود والمحور» لقد حولوا أكثر من نصف المصنع. نصف لا يزال يصنع عجلات ومحاور، النصف الآخر يصنع القذائف المدفعية. لا بد أنك رأيت الكثير منها هناك، صحيح؟

-لا. أنا جمعت القمامة.

-آها. إذن تقول ذلك. حسناً، بأي حال، أنا أحصل على الوقت الإضافي الذي أريد. يمكنني العمل اثنتا عشرة ساعة يومياً إذا أردت. وكما تعلم، كل شيء يزيد عن أربعين ساعة يزاد عليه نصف المدة. أدفع نقداً من أجل هذه. المشكلة الوحيدة هي تقنين الوقود، كما تعلم؟

-لا.

-نعم حسناً، كيف لك أن تعلم؟ لقد بدؤوا السَّنة الماضية. فقط يسمح لك أن تشتري الكثير في أسبوع، بالاعتماد على نوع العمل الذي تحصل عليه. أذهب إلى العمل سيراً على الأقدام، لذا يسمح لي فقط بما يقارب خمسة غالونات في الأسبوع. ليس كثيراً، لكني أعرف بعض الرجال، هل تعرف ما أعنيه؟ من أجل السعر الملائم، الناس الملائمين، يمكنك الحصول على كل ما تريد. هيه إلى أين أنت ذاهب؟ هيا

اصعد. هذه الطفلة يمكنها المضي حقاً، إنها ف ٨، هل تعلم؟

-لا.

-حسناً إلى أين أنت ذاهب بأية حال؟

-أو-هاي-أو.

-أوهايو؟ هل تعني النهر؟ لماذا أنت ذاهب إلى هناك؟

-لأنظر. يجعلني أشعر...

-يجعلك تشعر بماذا؟

-بالهدوء.

-هدوء؟!

امتقع وجه بيلي وتغضن، كما لو أن ذلك كان أكثر الأمور التي سمعها في حياته حماقة. لبرهة طويلة، تقدم بالسيارة ببطء دون أن يقول شيئاً.

-هيه، جوني! هو، جوني! انتظر، يا رجل، أريد أن اسألك شيئاً، هل تعرف؟ أنا جاد الآن.

توقف جوني ونظر من فوق كتفه نحو بيلي.

-كيف كان ذلك يا رجل، هاه؟ أنا جاد الآن. ولا تتكلم بحماقة. أنت تعلم، الحرب، آخر رجلين أعرفهما كانا هناك سألتهما لكني أعلم أنهما كانا يتحامقان معي. استطعت أن أعرف، كما تعلم. كانا يحاولان بشدة أن يضحكا عليَّ لكني جاد يا رجل. أنا حقاً أريد أن أعرف.

-جمعتَ القمامة.

-آو هيا يا رجل كف عن ذلك الهراء أريد أن أعرف كيف كانت. يمكنك أن تخبرني.

-يمكنني؟

-نعم لأننا الآن طبيعيين كالسابق.

-لا شيء كالسابق، لقد جمعت..

-هيا جوني! يا رجل كف عن هذا الهراء.

-الشخص الوحيد الذي حاولت أن أقتله كان أنا.

-هاه؟ حاولت قتل نفسك؟ لماذا أردت أن تفعل ذلك؟

-لم أعد أرغب بجمع القمامة.

-يا يسوع المسيح عقلك يسير على سكة واحدة، سأقول ذلك من أجلك.

-أحب الجلوس على السكة حيث يمكنني مراقبة النهر.

- أقصد عقلك منشغل بفكرة واحدة، ليس السكك الحديدية. ظننت أني كنت سأتعلم شيئاً بالحديث معك. وتبين أني كنت محقاً طوال الوقت. أنت حقاً أحمق لعين.

توقف جوني عن السَّير باتجاه النهر، خطا نحو الشَّارع. كانا حيث ينتهي قرميد شارع «إلا» وينعطف نحو القذارة. لأنها لم تمطر طوال أكثر من أسبوع، كانت القذارة عبارة عن غبار ناعم ضارب إلى الرمادي. انحنى جوني من خصره. أخفض صوته وتحدَّث برصانة، قال غير مشدد على شيء: تريد أن تعرف؟ أنت حقاً تريد

أن تعرف كيف كانت الحرب؟ حسناً سأقول لك. كان هناك قمامة. في كل مكان، هذا ما كانت الحرب عليه، لم تكن تشبه شيئاً. كانت مجرد قمامة.

-أوه بحق المسيح، كف عن ذلك، هلا فعلت؟ أنت جمعت القمامة. ربما هذا ما كنت تجيده. لا أعرف لماذا ظننت أنك كنت ستعطيني المعلومات الصحيحة. منذ الآن فصاعداً سوف يكون كالسابق. تظاهر بأنك لا تعرفني.

التفت جوني مبتعداً عن بيلي وخطا على الغبار الناعم، وشق طريقه عبر ملعب البيسبول الخاص بنادي روكس بويز. مر بالقاعدة الثالثة وعبر العشب من جهة الملعب اليسرى، يسمع همهمة السيارات والشاحنات فوقه على جسر «ماكيس روكس». عبر السكة الحديدية وانزلق على ضفة اوهايو نحو منكشف صخري صغير حيث تمكن من الجلوس وشاهد النهر تتدفق مياهه ملونة بالأخضر والبني. شعر بتحسن فقط من خلال التفكير في كم طويلاً كان هذا النهر يتدفق حيث كان جالساً، وكم طويلاً سوف يتدفق بعد أن يموت. فكر بأغنية كان قد سمعها فيما مضى: أيها الرجل المسن النهر، أيها الرجل المسن النهر، هو لا يعرف شيئاً، هو لا يقول شيئاً، فقط يواصل التدحرج قدماً.

شعر بتحسن بعد أن فكر بتلك الكلمات.

قال: كدت أغرق فيك مرة. كدت تحتفظ بي في الأسفل. لكنك لم تفعل. ربما كنت لأكون في حال أفضل لو فعلت. لا أعرف كيف أفكر في ذلك. لكنك نلت مني الآن بالتأكيد. سآتي إلى هنا وأنظر إليك كل يوم عندما لا يكون هناك مطر أو ثلج غزير. سوف أتولى زمام الحديث. أحياناً أتحدث كثيراً. منذ فترة قصيرة أخبرت بيلي بريستاش أموراً كثيرة قلت إني لن أخبرها لأحد، لكني أمسكت عن القول في الوقت المناسب. لم أخبره، لأنه قد يفشي سر كل ما قلته له. لكني أستطيع أن أخبرك. لأنك كما تقول الأغنية لا تعرف شيئاً، أنت لا تقول شيئاً، أنت فقط تواصل التدحرج.

قال جوني: كان يشبه كثيراً هنا. منازل، مبان سكنية، شوارع، حدائق، أشجار،

النهر، مصانع، حيوانات، أبقار، خنازير، دجاج، أناس. جميعهم تحولوا إلى قمامة. كل يوم، كل يوم متعفن، وأنا أعني تعفن، لأنه لا يوجد تعفن مثله في العالم بأسره. عندما يموت الناس، أو الحيوانات، إذا ما دفنهم أحد حالما يموتون يبدأون بالتحلل. وعندما يبدأون بالتحلل تنبعث منهم كل أنواع الروائح، تعجز اللغة عن وصفها، على الأقل أنا لا أملك أي كلمة، كل ما أعرفه هو أنها تعلق في ملابسك، شعرك، فمك، أنفك، مهما فعلت لا يمكنك التخلص منها وتفكر عندما تشمها للمرة الأولى ما الذي يمكن أن يكون أسوأ، لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من هذا لكن هناك شيء أسوأ. إنه يدعى تسجيل الموتى، مصطلح لطيف عسكري فارغ. وإن لم تكن محظوظاً بما فيه الكفاية يتم تعيينك في تسجيل الموتى، ما تفعله كل يوم طالما يمكنك الوقوف والانحناء وفتح وإغلاق أكياس الجثث، تمشي أينما يرسلونك وتلتقط الجثث. وليس الأمر شبيهاً بنزهة إذا كان الأحمق المسكين رمي بطلقة في الرأس أو في القلب، لأن الجحيم الحقيقي هو عندما يتوجب عليك التقاط جميع أعضاء السذج الذين قتلوا بـ٨٨. لأن ذلك يعني أنه يتوجب عليك أن تمشي وتلتقط الرؤوس، الشعر، الدماغ، الآذان، مقل العيون، الأنوف، الألسنة، الأذرع، السيقان، الجذوع-وذلك إذا كان يمكنك أن تعرف ما تكون.

بقي هناك فقط أمر واحد يجب أن أقوله. صفائح التعريف عن الجنود.

الجميع حصل على اثنتين. إذا وجدت رجلاً فارق الحياة سريعاً ودون أن يصبح أشلاء، تقريباً، تفتح فمه، وتحشر واحدة من صفائحه بين أسنانه وتأخذ بندقيته أو بندقيته الصغيرة أو أي ما كان يحمله وتضع حربته عليه وتلصقها في القذارة بجانبه وتعلق الصفيحة الأخرى على سلاحه في مكان ما أينما يمكنك أن تضعها. ثم تنتقل إلى الآخر. أحياناً عليك استعمال الرفش والمدمّة. وقبل أن تغلق الكيس، آخر ما تفعله هو أن تكتب على الورقة التي تأتي معه، جندي لا يعرفه إلا الله.

لذا الآن، يا أو هاي أو، ربما يمكنك أن تعرف لماذا بعد ثلاثين يوماً من جمع ذلك النوع من الأمور، أردت أن أطلق النار على رأسي. لم أفعل. شخص ما طرحني

أرضاً، وأخذ مني السلاح. وحطم أنفي، وجرحني فوق حاجبي، خدي. أول مرة رأيت مرآة، نظرت فيها وقلت: من هذا؟ أنا حقاً لم أتمكن من التعرف على نفسي. وها أنا هنا أو-هاي-أو، أنا فقط تخلصت من كل شيء فيك. لأنه لم يعد في وسعي حمله بعد الآن.

حتى الآن لم تقل شيئاً. لا أظن أنك سوف تثرثر مهما قلت لك. أنا واثق للغاية من أنك لن تفعل. ليس لدي أي شيء آخر أقوله. أنا الآن أخبرتك بالجزء الأسوأ.

بعد ساعتين وقف جوني ونفض الغبار عن مقعد بنطاله. ثم بسط ذراعيه عالياً وقال: أراك أو -هاي-أو. غداً ربما. لا تقلق إن لم أظهر. لأن والدي وأمي الآن قلقين بشأن ما سوف يحدث لي عندما يموتان. هما يظنان أني لا أسمعهما يتهامسان حول هذا. لما كان سمعهما سيء توجب عليهما أن يتحدثا بصوت مرتفع، فكان من السهل سماعهما. لذا ذات يوم ليس ببعيد أنا واثق من أنهما سوف يستسلمان ويقولان إنه لم يعد في وسعهما احتمالي بعد الآن. ثم سوف يتصلان بالشرطة، والشرطة ستؤدي واجبها. يأخذوني إلى مصحة ويتيقنون من أني لن أهرب.

ينبغي عليَّ التفكير بطريقة ما كي يفهما أني لن ألومهما على الاتصال بالشُّرطة. ذلك لن يكون ذنبهما، كما لم يكن يوماً ذنبهما أي شيء آخر يتعلق بهذا. وسوف أكون صارماً في إقناعهما مع ذلك، لأنه ما من شك أنهما يظنان أني فقدت عقلي، وطالما يفكران بذلك لن يصدقا يوماً شيئاً مما أقوله. وبأي حال لم أفقد عقلي. وأعرف تماماً أين هو. في مكان ما موجود دوماً تحت شعري.

تذكر ما قلته أو -هاي-أو، لأني قررت أني لن أكرره يوماً على مسامع أي شخص. في الواقع ربما لن أقول شيئاً لأحد ثانية.

الدَّخيل

كاثلين جورج

كاثلين جورج هي أستاذة المسرح في جامعة بيتسبرغ. وصلت روايتها الرابعة «الاحتمالات» إلى الدور النهائي من جائزة «ادجـار»، وعملها السابق يتضمن روايات المأخوذ، الساقط، بعد الصورة. تقع أحداثها كلها في بيتسبرغ وتظهر المحقق ريتشارد كريستي. ألفت أيضاً كتباً عن المسرح، الأحدث من بينها هو «السرد والدراما»، وأخرجت كاثلين جورج العديد من المسرحيات.

كا

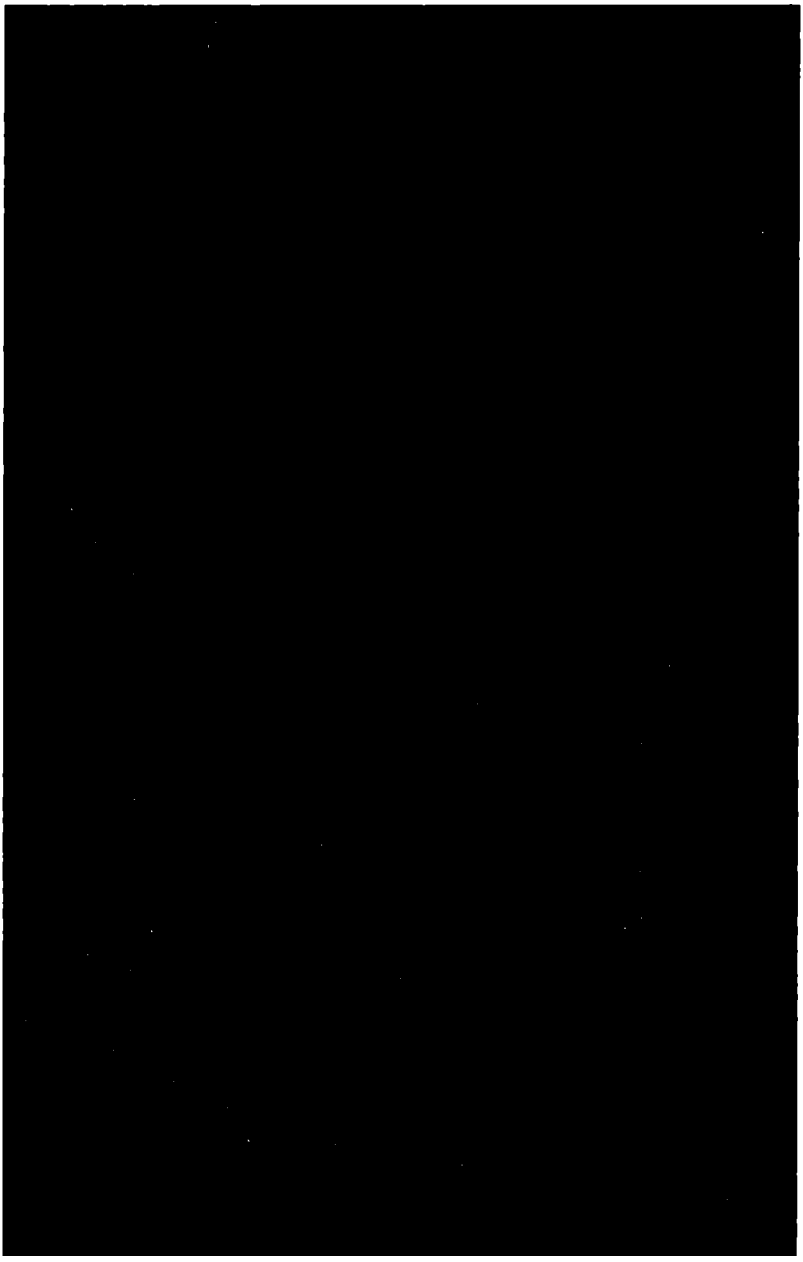

كانا شريكين، أحدهما أبيض البشرة والآخر أسود البشرة، تصادقا وأحبَّا العمل سويةً. تمَّت ترقيتهما في الوقت نفسه، متنافسين إلى حدٍّ ما، لكن صديقين في الأغلب.

ورد الاتصال عند السَّاعة الواحدة صباحاً. كل جرائم القتل تحدث ليلاً. أخبرهما عامل مقسم شرطة النَّجدة: «شينلي فارمز تيريس». اتصل بنا رجل ضرب دخيلاً على الرأس. أرسلنا موظفي الإسعاف. يقولون إن الرجل فارق الحياة. ذهبت الدَّورية للتو إلى هناك».

قال تولسن وهو ينظر إلى ساعته، عندما أومأ بيده إلى شريكه كي ينزل الدَّرج ويخرج إلى قافلة السَّيارات: «أخبار عاجلة، فات الأوان كثيراً على «هاش» السَّاعة الحادية عشرة وليس هناك عدد كبير ممن يشاهدون أخبار الصَّباح، لذا أغثنا أنفسنا باستراحة. أكره أن أبدو غبياً في أخبار السَّاعة الحادية عشرة، عندما لا نعلم ما الذي يحدث».

قال بولسُن: «يمكنك تدبر أمر أن تبدو غبياً في أي وقت».

رمقه توسلن بنظرة ثم ضحك بولسُن وسأل: «حسناً، ما الأمر؟»

«ربما قتل بطريق الخطأ».

وتلا على تولسن التفاصيل القليلة التي كانت في حوزته، بينما اتصل لاسلكياً بالدورية ليتصلوا به عبر هاتفه الخلوي.

قاد داميُن بولسُن السَّيارة، يتجه ببراعة نحو الشَّارع العريض من ثم يتجاوز كل من كان على الطريق.

رنَّ هاتف تولسن، انفتح مكبر الصوت. كان شرطي الدورية قد سبقهم إلى الموقع بخمس دقائق.

«هل في وسعك أن تخبرنا بأي شيء؟»

«إنه ميت. رأسه مهروس وهناك الكثير من الدم. يا رجل، لا بد أنه ضرب بشدَّة. جميع أفراد العائلة يشعرون بالاستياء. يرتجفون ويبكون. لديهم لكنة. لا أعرف من أي نوع. هم أجانب».

سأل توسلن: «حسناً. وماذا أيضاً؟»

«الابنة، أمر آخر. تبدو مثل نجمة سينمائية. ربما مثل هندية أو ما شابه. لكن لون عينيها فاتح. ربما هي ذات شأن، لا أعرف».

كان بولسُن يضحك في صمت.

واصل تولسن: «هل من شيء آخر عن القاتل؟».

«ليس بعد. فقط الجميع يشعرون بالقلق، إنهم يتحدثون بلغتهم».

أغلق تولسن السَّماعة وقال ساخراً: «اكبح تحاملك عند الباب». ولو أنه كان جاداً فيما يقول.

الآن لم يكن الوقت المناسب لارتكاب الأخطاء. كان احترام الأجانب يدق طبلاً في رأسيهما. أيضاً دروس أخرى: ليس الفقير أحمق بالضرورة. كل ميت فقير هو انسان.

سأل توسلن بولسُن الذي نشأ بالقرب من هناك، في «الهيل ديستريكت»: «ألم تتسكع يوماً في شينلي فارمز؟»

«لا».

عرفا بأمر وجود بعض العقارات الفاخرة في «شينلي فارمز»، لكن أكثر المنازل فخامة كانت أقرب إلى «أوكلاند». ثراء متوارث إلى جانب تمتعهم بمكانة هامة في الجامعات التي استوطنت هناك. ثم كان هناك المنازل الفاخرة بعض الشَّيء في الشَّوارع شديدة التَّحدر في «شينلي فارمز»، ومن ثم فوقها كانت بداية «التَّلة»، غيتو للسود. وصلا إلى المنزل بعد خمس دقائق. كان بعيداً عن أن يكون رثاً.

كان هناك عدد من سيارات النقل الإخبارية مركونة في الشَّارع. قال توسلن للمراسلين الصحفيين الذين مر بهم وهو يتوجه نحو المنزل: «سندلي بتصريح لكم خلال نصف ساعة». ودخلا.

كان المنزل من الداخل بديعاً للغاية. زجاج، أبيض، زجاج، أبيض. سجاجيد مخملية. عرف تولسن أنهما يجلبان القذارة إلى الداخل وشعر بالضِّيق. كانت أواخر شهر أيار والأرض مبتلة.

قال شرطي الدورية: «هنا تحت»، وقادهما عبر عدد من الدرجات المفروشة بالسَّجاد إلى قبو منجز كان أساساً شقة مزينة جيداً. كان موظفو الإسعاف واقفين في المكان كالحمقى. كان الرجل على أرض هذه الشَّقة الأرضية قد فارق الحياة-لم تعد التدابير القصوى ضرورية بالتأكيد. كان فتى أسود البشرة، واستطاعوا أن يروا أنه ينتعل حذاء رياضياً، بنطال جينز، وقميص من نوعية جيدة، ملابس أنيقة المظهر. مدية قرب الجثة.

خرج تولسن وبولسُن من باب القبو. تفحَّصا الأرضيات، كشطا شذرات من الباب حول القفل، ثم عادا إلى الداخل ونظرا من حولهما. أرائك وثيرة وتلفاز ضخم. تجوَّل تولسن في المكان، بولسن من خلفه، مأسورين على نحو موجز بالمطبخ الصغير والحمام، كلها من أحدث المنتجات التي تمزج بين حداثة الأفكار والمميزات.

سأل بوسلن الذي كان متزوجاً ويحاول ترميم منزل: «هل تعلم كم يكلف ذلك النوع من أطقم الحمام؟ والحنفيات. ما يفوق إمكانياتي».

اعترف تولسن: «أشياء جميلة للغاية، حسنة للغاية».

لم يكن متزوجاً. كان كسير القلب قد قاسى للتو من انفصال. هو لم يعرف حتى أنها كانت تعيسة. كانت قد أخبرته أن ذلك لأنه لم يكن شديد الذكاء.

فتشا الضحية بحثاً عن بطاقة هوية. لم يكن هناك شيء في جيوبه.

«هل كانت هذه السِّكين تماماً على هذا الشَّكل؟»

أكَّد لهما شرطي الدورية ذلك.

هل رماها المتوفي بتلك الطريقة عندما سقط؟ غريب.

توجَّها نحو الطَّابق الأعلى ليتحدثا مع العائلة.

سارا على أطراف أصابعهما عبر غرفة الجلوس الشَّاسعة بمستوييها، إلى حيث أشار شرطي الدورية قائلاً: «قالوا لي أنهم سوف يكونون في المطبخ».

لم يكن المطبخ مطبخاً تماماً. ربما كانت مساحته تفوق مساحة غرفة الجلوس ثنائية المستوى. بدت نوافذه ذات الألواح الزجاجية نظيفة حتى في الليل، طلاء الخشب متقن. كان واضحاً أنه أضيف إلى المنزل، باستخدام جزء من الفناء. كان هناك موقد ومنطقة مخصصة للجلوس بكراسٍ مريحة، مثل غرفة جلوس ثانية. في كشك، عند أحد طرفيه كان يوجد مائدة لتناول الطعام وكراسي. كان هناك نوافذ في كل مكان. هؤلاء أناس مؤيدين للنوافذ. أطلت نافذة مقوسة عند طرف منطقة تناول الطعام على منحدر التلة، حيث أظهرت الأضواء الخارجية وجود مستويات مزودة بمصاطب، كلها مطلية بزهور ملونة-كان المنحدر منظراً طبيعياً بالكامل.

كانت مائدة الطعام زجاجية أيضاً. ضوء، ضوء في كل مكان.

ابتعد المحققان عن المشهد ليجدا العائلة محتشدة في الخلف قرب منطقة الطهو، يعزون شابة. تفرقوا على مضض ليتقدموا. أشار الأب نحو المائدة الزجاجية التي تتسع لجلوس ثمانية أشخاص.

قال تولسن: «ممتاز. نعم، لنجلس هناك. حن نرغب أن نطرح عليكم بعض الأسئلة».

احتشد خمسة من أفراد العائلة أمام المحققين. بدا عليهم أنهم: أب وأم وأخت وأخ وجدة، أربعة منهم يحتشدون حول الفتاة الخامسة بطريقة حمائية، لذا، أولاً لم يتمكن المحققان من رؤيتها.

عندما جلسوا جميعاً إلى الطاولة حيث أخذ أفراد العائلة مقاعد منفصلة، نظر تولسن وبولسن إليها للمرة الأولى.

كانت أكثر النساء جمالاً اللاتي وقع بصر تولسن عليهن على الإطلاق. كانت تشبه إليزابيث تايلور في شبابها في تلك الأفلام القديمة-بعيون فاتحة اللون، شعر داكن وشفاه، بشرة، جعلت قلبه يتوقف. أمسكت بقطعة قماش تغطي جانب وجهها.

«أنت مصابة؟»

هزَّت رأسها.

قال الأب بحزم: «لقد ضربها، الرجل ضربها».

«هل توجب عليك تلقي مساعدة طبية؟»

هزت رأسها، جلس أخاها قربها إلى الطاولة لكن كتفيه كانا متجهين بعيداً عنها لسبب ما.

ربما كانت ممثلة مشهورة أو شيء ما، كل ما فعلته، حتى الطريقة التي هزت بها رأسها، بدت مثيرة للاهتمام وممتعة للنظر.

«أنا المحقق تولسن، وهذا المحقق بولسن، نرغب بتدوين أسماءكم. ومن ثم القصة كاملة، منذ البداية».

كان الأب يدعى يوسف، والابن جافيد. كانت الجدة، والدة الأم، تدعى فاطمة، الأم ملكة، والفتاة آزيتا. كان لقب العائلة صمدي. نسخ تولسن بمشقة هذا في كراسه وتحقق من التهجئة بإعادة قراءة كل اسم.

«هذا بيتكم؟ أنتم تعيشون هنا؟»

نظر الجميع نحو يوسف صمدي الذي أجاب: «معظم أيام السَّنة».

«ما الذي يعنيه ذلك؟»

شرح يوسف: «نملك بيوتاً أخرى، نحن نسافر، أسافر كثيراً. لكن الأولاد في المدرسة، لذا غالباً هم هنا».

أضاف الابن: «ذهبنا إلى فلوريدا في كانون الثاني».

«اوه، أنت تعني في إجازة؟»

قال صمدي: «رحلة، كان لدي بعض الأعمال هناك. وحرصت على أن يؤدوا واجباتهم المدرسية. نملك بيتاً هناك».

«هل قلت بيوت؟ أفترض أنه عليَّ أن أدونها جميعاً. أي مكان آخر؟»

«نعم. في إيران، بالتأكيد. بيتنا الأساسي، ونملك شقة في باريس».

قال تولسن: «أرى، هل يمكن لأحد أن يدون لنا العنوان؟ لكي نسرع كل هذه

العملية؟»

تطوع جافيد لفعل ذلك.

سأل تولسن يوسف: «هل تعمل هنا؟»

«لدي عدة أعمال. ليس هنا، لكني أستطيع أن أعمل من هنا بواسطة الهاتف والحاسوب».

«بأي نوع من الأعمال تقوم؟»

«الاستيراد».

«أرى، مخدرات، أسلحة، حلى رخيصة، قطع أثرية؟ أي نوع من المنتجات؟»

«سجاد، بُسط، أشياء جميلة».

أومأ تولسن والتفت نحو بولسُن كي يشارك في الاستجواب: «أي شيء؟»

قال بولسن: «نريد أن نسمع ما الذي حدث الليلة منذ البداية».

قال تولسن: «صحيح، تقدم».

بدأ يوسف: « كنَّا في السرير، كانت النسوة نائمات. لم يسمعن شيئاً. كان جافيد في غرفته. اعتقدت أنه كان نائماً، لكنه كان يصغي إلى شيء ما»، أومأ نحو أذنيه ليعبر عن ازدراء لمشغل الـ إم بي ثري واستأنف قائلاً: «لذا هو لم يسمع. كنت في سريري، أشاهد التلفاز. اعتقدت أني سمعت صوتاً عالياً. منبعثاً من غرفة التسلية. اعتقدت ربما يكون متدخلاً، ربما سارقاً أصيب. لكني عرفت أن ابنتي تنزل أحياناً إلى هناك في وقت متأخر تشاهد التلفاز وتؤدي وظائفها في الوقت نفسه. كان عليَّ أن أنزل أحياناً في منتصف الليل لأطلب منها الذهاب إلى النوم».

نظر من حوله نحو عائلته وأومأ له البعض على نحو ضئيل تقريباً.

قاطع رواية صمدي قرع على الباب الرئيسي واتصال متزامن على راديو الشرطة.

انبعث صوت طقطقة من الراديو: «نحن هنا».

قال صمدي وهو يضع يداً على قلبه: «ما الذي يحدث؟ من هذا؟».

«فريقنا. علينا الحصول على بصمات، صور».

وضعت آزيتا يديها على وجهها، وكزها أخوها وقال شيئاً من قبيل: «قد تضطرين لذلك».

رأى تولسن كدمة كريهة على عظم خدها قرب أذنها.

ذهب المحقق بولسن ليفتح الباب لفريق الأدلة الجنائية. نهض توسلن أيضاً ليرى من أرسل. وكان محظوظاً فقد حصلوا على أفضل الرجال من المختبر. أشار إلى القبو حيث يتوجب على الفريق الذهاب. ثم عاد هو وبولسن إلى مقعديهما.

كانت الزوجة تتمتم لزوجها: «لماذا لن يأخذوا الرجل بعيداً؟ والدم؟ أنا لن أنزل إلى هناك ثانية، أريد أن أنتقل».

قال صمدي: «لنتحلَّ بالصبر، لنطلع على طريقة عملهم. إنهم مهنيون».

كان رجلاً مهيباً، ليس فقط لأنه كان حليقاً وممتاز المظهر، لكن أيضاً لأن اعتياده على فرض إرادته كان واضحاً.

أجاب تولسُن بطريقة رسمية: «سوف نحيط الغرفة بشريط. عندما نحصل على جميع الأدلة التي نحتاجها سوف يدخل فريق ويقوم بعملية التنظيف. يمكننا إعطاءكم عدداً من الأسماء لخبراء في التنظيف. قد ترغبون بتغيير السجادة

ببساطة لأنكم ترغبون بتغييرها. لكن هذا قرار ستتخذونه لاحقاً».

كان آزيتا قد شرعت بالبكاء.

سأل بولسُن: «ما الأمر».

«رجل مات في منزلك. يجعلني أشعر... بسوء الحظ».

«بالنَّحس؟»

«والحزن».

«كنتِ هناك عندما اقتحم؟»

«أوه، نعم».

«لم تسمعينه يدخل؟»

«كنت قد نمت. التلفاز كان يعمل».

«وبعدئذٍ؟»

«شيء ما أيقظني. ورأيته وأطلقت صوتاً ونزل والدي عندما رأى الرجل اختطف مضرب بيسبول».

«كان هناك مضرب؟»

قاطع يوسف: «أنت رأيت الزاوية برمتها، أدوات رياضية، لم أظن... لم أتمكن من التفكير، أردت شيئاً يكون قوياً وبعيداً عن جسدي، أردت أن أنقذ ابنتي».

«تنقذها؟»

«كان يمسكها، كان يحمل سكيناً».

تطوع بولسُن: «رأينا السِّكين، بجانب الجثة».

قال تولسُن: «إذن، أردت أن تفصلك مسافة عنه وأنت تضربه. لكن أنت يا آزيتا كنت في قبضة الرجل. ما من دم عليك. كيف ذلك؟»

ارتعدت قائلة: «كان هناك، لقد اغتسلت وغيرت ملابسي».

«أين الملابس التي كنت ترتدينها؟»

«في القمامة. أخذتها أمي».

قال بولسُن بلطف: «سوف نحتاج إليها. لا يمكنك فعل ذلك، لا يمكنك أن تتخذي هذه القرارات. إنها دليل. في الخارج؟»

رمقت الأم زوجها ثم أومأت.

قال بولسُن بلطف شديد ثانية: «سوف أطلب من التقنيين أن يأتوا بها».

سأل تولسن: « كم مر وقت قبل أن تتصلوا بنا؟»

«مباشرة».

«لكن الحمام؟ ابنتك استحمت».

«ربما جلست معها بضع دقائق لأهدئها لا أتذكر. يوجد حمام في القبو استعملته».

«تبديل الملابس؟»

«جلبت زوجتي لها ملابس نظيفة».

«يجب أن نذهب إلى غرفة الجلوس ونمثل ثانية. عليكم أن ترونا أين كنت عند كل نقطة. لكن أولاً هل تعرفين الشاب؟ أي منكم؟»

أجابوا جميعاً بالنفي.

«هل أنتم واثقون؟ هل نظرتم جميعاً إليه؟»

«لم نسمح لجافيد أو لحماتي أن ينزلوا وينظروا، لكن زوجتي وأنا رأيناه. لم يكن مألوفاً».

«آزيتا؟»

«من فضلك، لا».

«ماذا؟»

«لا أعرفه».

«هل تحدث الرجل؟ ما الذي قاله لك؟»

ترددت.

حثها والدها: «آزيتا؟».

«قال، أريد جواهر، مال، نقود، الكثير من النقود الآن. قلت، يمكنني أن أعطيك القليل من النقود. لكني أصدرت ضجيجاً. ضربني وقال: اخرسي أو أقتلك. سحب سكيناً. وواصلتُ الكلام قائلة له إننا نملك بعض النقود ولكن ليس الكثير، لكني قد أجد له شيئاً آخر ثميناً. ثم نزل والدي، المفاجأة جعلته... الرجل... التفت عني. ثم عاد لأنه... لا أعرف، ربما كان سيطعنني، والدي ضربه».

«كم مرة؟»

«مرتين».

قال يوسف صمدي فجأة: «عدني من فضلك، أنك سوف تبقي ذلك بعيداً عن الصُحف والأخبار».

توقَّف تولسُن ونظر إليه متفاجئاً: «يستحيل عليَّ أن أفعل ذلك. نملك حرية الصحافة».

«من فضلك ابقِ ابنتي بعيداً عنها. هي شابة لا تزال في المدرسة الثانوية. ألا تفهم ذلك؟ من فضلك».

«سأفعل ما في وسعي من هذه الناحية».

تنهَّد الأب بثقل.

دخلوا إلى غرفة الجلوس ومثلوا السيناريو الذي وصفته الفتاة-نائمة، صوت اقتحام، صراخ، كلمات تهديد، سحب سكين، أب يصل، يضرب على الرأس. مثلوها عدداً من المرات بينما عمل التقنيون في غرفة القبو. آزيتا فعلت هذا على نحو جميل. التفتت مثل راقصة، نهضت عن الأريكة مثل أميرة تستيقظ من النوم في أفلام ديزني.

بعد مشاهدتهم الفعل، خرج تولسن ليتحدث مع الصَّحفيين الذين تجمعوا وكانوا جالسين في السيارات المفتوحة الأبواب، يدخنون ويثرثرون فيما بينهم. وقف بولسُن في العتبة.

قال تولسُن ببساطة: «الحالة الظاهرة هي أن متدخلاً اقتحم قبو هذا البيت. يدّعي المالك الذي كان في الأعلى أن الصَّوت أيقظه. نزل إلى الطابق الأرضي. هدد

الرجل عائلته. ضرب المالك الرجل والضربة قتلته. لا يزال المتدخل مجهول الهوية حتى الآن. نحن نعمل على التحقق من هويته ورصد كل جوانب القضية».

عاد تولسن وبولسن إلى الداخل وقالا للعائلة: «ربما سوف نبقى هنا حتى الفجر تقريباً».

«لماذا؟»

«كل شيء يستغرق وقتاً. يحتاج التقنيون إلى الوقت. أيضاً سوف يتوجب علينا أخذ عينات الحمض النووي والبصمات».

«منا؟»

«نعم».

سأل صمدي: «هل هذا عادي؟». وقف باستقامة معيداً كتفيه إلى الخلف. «هل هذا لأننا إيرانيون؟»

قال بولسُن بصوته العذب: «ليس لأنكم إيرانيون، هذه ممارسة عادية نحتاج أن ندعم روايتكم فلا تتورطون في مشاكل. من فضلك لا تقلق، سرعان ما سيصبح هذا من الماضي».

تلطف الجو قليلاً بعد ذلك. تثاءبت الجدَّة ونامت في كرسي. حضرت العائلة الخبز المحمص، لكن من ثم بدأوا ينهبون من الثلاجة أشياء أكبر حجماً من الطعام.

سألت الأم المحققين: «ماذا يمكنني أن أحضِّر من أجلكما؟».

نجح الشرطيان في رفض عرضها للطعام الشراب لكنهما أرسلا شرطياً إلى «ريتر» ليحضر شطائر منتصف الليل لهما وللتقنيين.

بعد أن انتهيا من أخذ عينات الحمض النووي والبصمات، سمحا لأفراد لعائلة الذَّهاب للنوم جميعهم ما عدا يوسف الذي وافق مرحباً أن يكون الشخص الناطق باسم العائلة قائلاً: «لا أنام كثيراً بأية حال».

«لماذا؟»

«التهاب المفاصل، النقرس، مشاغل تتعلق بالعمل».

سأل بولسُن: «لدي الفضول لأعرف. لماذا اخترت شينلي فارمز؟ أعني من بين جميع الأماكن في المدينة. يبدو أن الزوار الأجانب يحبون العيش في الضواحي».

«زوجتي تدرس في جامعة ميشيغن».

«هل هي أستاذة في الجامعة؟» لم يخفِ بولسن مفاجأته على نحو جيد.

«نعم شهيرة إلى حد ما».

«أي مادة تدرس؟»

«إدارة الأعمال».

هناك، ارتكبا غلطة فادحة، مفترضين أن الزوجة ربة منزل لأنها بدت على نحو شديد التهذيب ولم تنبس بكلمة.

تعرفا في اليوم التالي على هوية المتدخل. كان يدعى جاكوب ويلسن. سبق أن مر بمحنة بسبب المخدرات. سكن في مقاطعة هيل. ذهبا لرؤية والدته ونقلا إليها النبأ الرديء.

تلقته مثل جندي، شديدة البأس. أحضرت صوراً لجاكوب، وعندما تمكَّن رجال الشرطة من رؤية وجهه وبنية جمجمته الممتازة، رأوا أنه كان فتىً على قدر كبير

من الوسامة. كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً.

قالت والدته: «عرفت أنه كان متورطاً في بعض المشاكل منذ فترة من الزمن. حضر اجتماعات. وأصبح نظيفاً منها مرتين. هو... أخمن لا بد أنه انتكس. لم أظن ذلك، لكني أخمِّن أنه فعل. لو قلت لكم أنه كان ولداً صالحاً، لن تصدقوني، لكنه كان كذلك. كان مدمناً، لكن ليس مجرماً. كان فتى بريئاً طوال حياته، بريئاً».

سأل بولسُن: «من كان أصدقاؤه؟ نودُّ التَّحدث إليهم».

أعطت «ليلا ويلسن» اسمي شابين قد يكونا التقيا بابنها في الأسابيع الأخيرة، دون أن تبكي، لكن بدا أنها في حزن عميق، حتى أن صوتها أخذ ينخفض إلى مستوى الهمس.

ذهب المحققان إلى سيارتهما ثم جلسا هنيهة من الوقت.

قال تولسُن: «سيدة لطيفة».

«لماذا لا نزال نتحرى في هذه؟»

«للانتهاء من الأمور العالقة. كن واثقاً».

«صحيح، صحيح. إليك ما أفكر فيه. إذا ما التقيت بآزيتا عندما كنت أصغر سناً...»

«ربما قد تحبهم أكبر سناً».

«أصغر مما أنا عليه الآن... أنت تعلم ما أعنيه».

«صحيح. لهذا السَّبب نحن نراقب».

لم يكن سهلاً اقتفاء أثر صديقي ويلسن. أخيراً لحق المحققان بواحد منهما،

ويدعى»بيير سميث» الذي أخبرهما عن المكان الذي قد يعثرا فيه على الصديق الثاني، «جو ساندوسكي».

قال بيير وهو ينظر إلى صورة يوسف أولاً ثم جافيد ثم آزيتا، إنه لم يرهم أو يسمع عنهم يوماً، وأردف فاغر العينين: «ما كنت لأمانع أن أعرف الفتاة».

لم يتعرف الصَّديق الآخر، جو ساندوسكي، على الصُّور أيضاً. عندما استفسر عن صديقه قال إنها مأساة مريعة وأنه لم يصدق الهراء الذي قيل عن أن جاكوب اقتحم منزلاً: «ربما كان على صلة مع الفتاة، هو أحب النساء».

«كيف لنا أن نعرف إذا ما عرفها؟»

«لا أعرف».

«أخبرنا عن مكانه المفضل، من أين كان يشتري المخدرات. أين قد يكون التقاها».

«عم تتحدث؟»

قال بولسُن: «أظن أنك تعرف، المخدرات، مخدرات ترفيهية».

«لا أعرف عن أي من ذلك».

«تريد أن تكون معرقلاً للتحقيق؟»

«لا».

«تريد أن تعيد التفكير؟ المكان الذي يشتري منه طلاب المدرسة الثانوية مخدراتهم».

أعطى رقماً: «شارع ابر كريج. ربما ثلاثة. أنت سوف تضع اللوم على جاكوب مهما كانت الظروف. هذا مقزز».

«أخبرتنا والدته أنه انتكس، ما الذي كان يتعاطاه؟»

«فقط الحشيش. فقط الحشيش اللعين. توقف عن تعاطي المخدرات الأخرى».

«اكستيسي؟»

«ربما، أحياناً».

كان مالك الشَّقة في شارع كريج يدعى آمسل ديكنز وهو أفرو-أمريكي ضخم مفتول العضلات.

قال: «لن أجيب على أي شيء».

«لا نريد أن نجادلك بشأن الحشيش. نحن لا نهتم بالحشيش. المسألة لا تتعلق بذلك. فقط نريد أن نريك صورة، هل سبق أن رأيت هذا الفتى؟»

«لا».

«هذه الفتاة؟»

«لا».

«مستعد للخضوع إلى جهاز كاشف الكذب؟»

«نعم، بالتأكيد».

«انظر ثانية. ماذا عن هذا الفتى؟»

«نعم. الآن أراه، نعم».

«يشتري الكثير؟»

«ليس الكثير».

«تراه كثيرا؟»

«لا».

«حسناً انظر إلى الفتاة ثانية».

أمعن آمسل النظر كما لو أنه استغرق فترة من الزمن ليتفحص وجهها، كما لو أنها كانت متجلية وغير مشهودة. استبدل تولسن الصورة التي التقاطاها لآزيتا وفيها يظهر خدها المجروح بصورة أخرى، صورتها الساحرة من المدرسة الثانوية- ليس أنها بدت سيئة في صورة الشرطة. ظل آمسل يتفحص، ينظر بهذا الاتجاه وذاك.

قال تولسُن: «سأعتبر ذلك موافقة».

قال بولسُن وهما عائدين إلى قافلة السيارات: «سوف ينتهي بنا الأمر دون أن نحصل على أي دليل».

«متى انتابك الشعور بأننا سنحصل على دليل؟»

«اليوم. على الفطور، كنت أفكر، دعهم يذهبون، كما تعلم كان الرجل يدافع عن منزله-لكن بعدها رأيت صورة ويلسن وتشكلت قصة أخرى تماماً في رأسي».

«هل تظن أن العرق يتدخل في الأمر؟»

«ومتى لم يكن للعرق علاقة بالأمر؟»

«لا أعلم».

«الآن أراهن أن عائلة صمدي قد وكلت محامياً».

«نعم».

«لأننا أخذنا عينات الحمض النووي وهو لم يعجبه ذلك».

«كان ممكن تصديقه للغاية. يتهدج وكل شيء ربما كل ما قاله كان حقيقة».

ابتسم بولسن: «ربما نعم. لا نريد أن نكون متحاملين».

«هل نتجنى عليهم؟»

«لأنهم يريدون مهاجمة العالم بالسلاح النووي؟ لأنهم يملكون أربعة منازل ولا يمكنني دفع ثمن حنفية لمنزلي؟ أنا أفكر في الأمر».

* * *

في وقت لاحق من ذلك اليوم وردت بعض النتائج. طلبا من السَّيد صمدي أن يأتي إلى المكتب. اعتقدا أنه قد يكون في صحبته محامٍ وكانا متفاجئين من أنه لم يحضر. جلسا معه في غرفة اجتماعات غير مهددة وقالا: «يبدو أنك ضربت الضحية ثلاث مرات».

«هل فعلت؟»

«جميعها من الخلف».

«لا يمكنني التذكر، إنه مضبب».

«لقد كنت مستاءً».

«أي رجل سليم العقل لن يكون كذلك؟»

«على السِّكين بصمات أصابعك وأصابعه. كانت متداخلة، بصماته ثم بصماتك ثم بصماته، على ذلك الترتيب. هل يمكنك أن تخبرنا عن ذلك؟»

«لقد نقلت السكين. رماها عندما ضربته ولم يكن عليَّ أن أنقلها، لكني فعلت- وضعتها قرب الجثة».

قال تولسن: «أرى، إذن كنت آخر من مسها؟»

«أظن ذلك، لا أتذكر، كنت مستاءً للغاية».

«السيناريو الذي رأيناه لم يكن مكتملاً تماماً؟»

«انظر، ماذا تفعلان؟ كنت أحمي ملكيتي. أعرف ما يكفي عن هذا البلد لأعرف أني لدي الحق بذلك».

« كانت بصمات ابنتك على إبزيم حزام الرجل».

رانت فترة طويلة من الصَّمت.

«لا أعرف كل حركة. كانت تدافع عن نفسها، أنا واثق من أنها دفعته».

«ماذا سوف تخبرنا عن حمضها النووي الذي وجد على الرجل؟»

توقف كل شيء. تجمد صمدي لحظيا. كان تولسن يخادع. لم يكن الحمض النووي قد اختبر بعد. قد يستغرق أسابيع. فكر: كان تعبيره ذكياً. هو لم يقل أبداً أنه وجد هناك، فقط سأل عما قد يقوله صمدي.

«إذا كان لديك ابنة جميلة وكانت تغتصب ما الذي قد تفعله؟»

«لماذا لم تخبرنا بذلك من قبل؟»

«حثالة تدير الأخبار هنا. ذلك ما تفعلونه في هذا البلد. حثالة أميركية لا تعرف شيئاً عن سمعة الفتاة وشرفها. هذا ليس شيئاً تتحدث عنه».

«هل اغتصبها فعلاً؟»

«لا. كان يحمل سكين وكاد يخلع عنها ملابسها، كان يسدد السكين نحو رأسها ويجعلها تركع أمامه».

طرحا الأسئلة عدة مرات أخرى للتثبت: «ماذا عن أخذ مكشاف الكذب لنتأكد من هذا؟»

«أظن... أظن أني سوف أستشير محامياً. لا أرغب أن أعامل بهذه الطريقة».

قال بولسن بعد مغادرة صمدي: «لدي ابنة جميلة وإذا كانت في سن المراهقة، قد أفقد صوابي في حالة مثل تلك. قد أحاول ألا أفعل، لكن قد لا أتمكن من ضبط نفسي».

«ثلاث مرات؟ من الخلف؟»

لم يكن تولسن واثقاً قط في لعبة محامي الشيطان التي لعباها أي حجة قد يتبنى كل واحد منهما. هذه المرة تبادلا الأدوار جيئة وذهاباً كل واحد يلعب كلا الدورين: «هاجم الرجل» و«أمير أجنبي يدافع عن شرفه».

«ربما الاثنان».

استغرق وقتاً.

غاصت حياة تولسن الشَّخصية عميقاً في هذه الأثناء. حاول أن يتصل بجينا.

لكنها كانت غاضبة منه.

في غضون ذلك أوليا اهتماماً لمنزل المخدرات. حضرا جنازة فتى عائلة ويلسن وتحدثا إلى الجوار، قال رفاق المدرسة والجميع، إن جاكوب كان فتى عذباً، ليس مجرماً بأي شكل من الأشكال، فقط مكتئب أحياناً. ما من عمل، لم يحب المدرسة، عمل هنا وهناك، واكتئب. كان وسيماً لذا اعتمد على ذلك. نساء، افتتان، محبوب. وذلك أفضى عادة إلى الحزن لأنهن قررن دوماً أنه لا يملك ما يقدمه لهن.

تأفف تولسن.

قال بولسن: «أشفق على ذلك الفتى، لأني لربما كنت مكانه لو لم أفكر بعقلانية».

كشَّر تولسن: «أنت لست بالغ الوسامة. هذا الفتى كان وسيماً».

في الأسبوع التالي، اتصلا بالجوار على عنوان بيتهم في فلوريدا. كان موضوع الهاتف إنفاقاً للوقت، وبدا أنه لا يفضي إلى أي نتيجة طوال أيام، لكن أخيراً علما أن العائلة سجلت الأولاد في مدرسة بالفعل في شهر كانون الثاني السابق. كان ذلك غريباً بعض الشَّيء. استغرقهما وقتاً طويلاً جداً ليجدا المدرسة.

قال المدير عندما أجاب: «نعم، أتذكر. اعتقدت أن الأطفال كانوا ساحرين. كانت الفتاة فاتنة. لكن بعدئذٍ العائلة سحبتهم من المدرسة».

فتح تولسن مكبر الصَّوت فتمكن شريكه من المشاركة وسأل: «هل تعلم لماذا لم يبقيا في المدرسة؟ أعني لماذا بدأوا وتوقفوا؟»

تردد ثم قال: «لا أريد أن أقول أي شيء يفتقر إلى الدقة».

«حسناً، ما الذي تعلمه عن الأمر؟»

«أظن... أن الأب اعتقد أن الفتاة كانت تخرج عن السيطرة».

«هل كانت كذلك؟»

«لا أعلم. بقدر ما يتعلق الأمر بي، إذا بدوت بذلك الشكل، كنت لأقضي وقتاً ممتعاً للغاية. لماذا لا ينبغي على النساء أن تحظى بالفرص نفسها للهو التي يحظى بها الرجال؟»

قال بولسُن: «أنا أوفقك تماماً، المحقق بولسُن يتكلم. أعرف الكثير من الرجال الذين لا يوافقون، لكني مستعد للقول إن لديهن ذلك الحق. كم تبلغ من العمر؟ ستة عشر عاماً؟»

«أظن ذلك. نعم، في السَّادسة عشرة من عمرها».

عندما أنهيا المكالمة قال تولسن: «أنت تنافق».

«كيف ذلك؟»

«ألست أنت من قال إنك كنت لتقتل أي شخص يعبث مع ابنتك؟»

«صحيح، مصطلحات متعددة. ما يمكن أن تفعله فتيات أخريات، يمكن لابنتك أن تفعله. أيضاً ما هو ليس حسن أن تفعله قبل بلوغ سن الخامسة والثلاثين. بعد سن الخامسة والثلاثين هن مستقلات. إذا كان لديك يوماً ابنة سوف تفهم».

هز تولسن رأسه: «حسناً لنتصل بالفرنسيين».

بدأت المحادثة مع الضابط الأجنبي على نحو جيد إلى حد بعيد برطانة فرنسية وانجليزية. لكن الأسئلة التي احتاجا إلى طرحها كانت معقدة جداً فكان من الصعب المتابعة. أخيراً توجب عليهما أن يكفا عن تمني الخير لبعضهم البعض وإرسال الاحترام المتبادل عبر المحيط.

مر أسبوعان، وصلت معظم نتائج فحص الحمض النووي. أكدت مس السكين،

والهراوة، والحزام. لكن كان هناك معلومة أخرى. كان الحمض النووي لآزيتا في كل مكان: على فم الرجل، خديه، عنقه، صدره، ونعم: على قضيبه. لم يشكل صورة عن الإكراه.

اتصلا بمحامي صمدي وحددا موعداً للخضوع لمكشاف الكذب بعد يومين، وراحا يتمرنان على الأسئلة التي يمكن لها أن تجعله يعترف بقصة الفتى.

وبعد ذلك كان لهما قليل من الحظ. قادا إلى منزل المخدرات في اليوم التالي عند موعد انصراف طلاب المدرسة وعلى الرغم من أنهما لم يتوقعا شيئاً حقاً حصلا على القليل. كانت آزيتا تدخل المنزل وفي إثرها اثنان من الفتية متحمسين.

لاحظ بولسن: «هي لا تبدو أنها منزعجة أو حزينة هذه الأيام».

«لا، إذا عرفت الرجل، لماذا لم يتقدم منها أي من أصدقائها؟ يقول شيئاً؟»

لكن عرفا كلاهما أنها تملك قوة سحرية من نوع ما. أنت رغبت بحمايتها، بأن تحبك.

مرت حوالي عشر دقائق وهما يتحدثان عما قد يسألان عندما ظهرت. لكنها لم تخرج أخيراً. أوقفا السيارة قدماً، ركناها، وتوجها نحو الباب

«من هذا؟»

«نحن المحققان بولسن وتولسن. فقط نريد أن نتحدث إلى آمسل باختصار، في الخارج. ما من توقيف».

انفتح الباب ببطء وانزلق آمسل خارجاً ممسكاً بمجموعة من المفاتيح.

أخرج تولسون الصورة الجميلة: «الفتاة التي لم تعرفها هل تتعرف عليها من هذه الصورة الآن؟».

«نعم. ماذا؟ هل أنا موقوف؟»

«لا لو قلت الحقيقة، ماذا تفعل هناك؟»

«لديها صديق. هي فقط تتسكع معه».

«غرفة أمامية، غرفة خلفية؟»

نظر آمسل إليهما بعيون قاسية: «أنتما شخصان كئيبان، هي في الغرفة الخلفية حسناً؟»

«هل كانت في الغرفة الخلفية مع هذا الرجل الآخر؟» أخرج تولسن الصورة الأخرى الآن وقد أخذت تبلى من البقاء في مؤخرة مفكرته.

«نعم نعم».

«هل كان خليلاً لها؟»

«نعم. هل أنا موقوف؟»

«لا أنت ظريف. فقط دعنا ندخل. سوف نتحدث معها، والدها سوف يرغب بأن تعود إلى المنزل قريباً».

دلى آمسل المفاتيح وبدا مرعوباً، قال: «حسناً». وسمح لهما بالدخول.

شعر تولسن بالكآبة.

خبط بولسن قليلاً على باب غرفة النوم: «آزيتا صمدي نحن بحاجة للتحدث إليك».

شعر تولسن بالخوف على نحو غريب، على نحو لم يشعر به من قبل من الفتاة،

من والدها.

خرجت آزيتا من الغرفة، كانت مشعثة، عيناها متجاسرتان. كانت مثيرة.

«ماذا تريدان مني؟»

«فقط... حديث».

«من حقي أن أحيا».

«تعالي إلى السيارة. سوف نتحدث في السيارة».

«هل ستتحرشان بي؟»

«لا. لا، لا نريد أن نفعل ذلك».

حاول المحققان أن يمشيا إلى السيارة كيفما اتفق، فلا يثيران أي مشكلة، ولو أن تولسن مشى محاذراً في المقدمة فلا تتمكن من الهرب. كان على شخص ما سريعاً جداً أن يبدأ بإخبار الحقيقة. أجلساها في مقعد المسافر. جلس بولسن في المقدمة معها، وركب تولسن في الخلف. أومأ لبولسن أن يبدأ. كان يفكر كيف أراد أن يفعل هذا.

قال بولسن: «هاك ما نعرفه، لديك عشاق. هذا شأنك. تحبين تدخين الحشيش. نحن لن نزعجك بشأن الحشيش. في وقت من الأوقات كان جاكوب ويلسن صديقك. لذا ليس عليك أن تنكري أي من هذا. يمكنك فقط أن تقولي نعم».

«إذن؟»

«إذن هو ميت».

ران صمت طويل. أضاف تولسن بعد حين: «أخبرنا أنه كان شاباً لم يعرف نفسه

تماماً. ربما لحق بامرأة كانت شابة للغاية. هذا ليس جيداً. لكن لا نعرف أنه اقترف أي شيء يستوجب أن يموت. قيل لنا أنه كان رقيقاً. هل هذا صحيح؟»

كانت عصبيتها قد خفتت بعض الشيء: «نعم».

«هل اغتصبك؟ نحن سوف نضطر إلى استعمال كاشف الكذب لذا قد تقولين الحقيقة أيضاً».

«لا».

«هل حاول؟»

«لا».

«هل سحب سكيناً عليك؟»

«لا».

«هل مارست الجنس معه من قبل؟»

قالت متجاسرة مجدداً: «نعم، ماذا عنه؟»

«مات. إنه ميت».

ذهبت يدها إلى فمها وبدأت تبكي، فعلت هذا على نحو جميل جداً ثانية. أراد تولسن أن يمسها.

قال بولسن: «لماذا قد يظن والدك إنه اغتصاب؟ هل قلت اغتصاب لتنقذي نفسك من غضب والدك؟»

«لم أقل شيئاً، كان هناك مع الهراوة قبل أن أعرف ما الذي كان يحدث».

«ومن ثم تلاعب بالقفل والسكين».

ضربت بعنف على عينيها وبدت كما لو أنها لن تجيب ثم قالت: «نعم».

«علينا أن ننصف جاكوب ويلسن».

أومأت: « كان عذباً، ليس شديد الذكاء لكنه عذب للغاية، أحب والدي، ما الذي سيحدث له؟»

قال تولسن وقد كان مسروراً لأنها تحدثت أخيراً: «سيذهب إلى السجن».

«بالتأكيد؟»

«قام بتوكيل محام جيد، هو ربما سينال حكماً قصير المدة، سوف تكون هيئة المحلفين متعاطفة بالنظر إلى أن تصرفه كان وفقاً لقواعد سلوكية كان يعتقد بصوابيتها».

«يا لها من فوضى لنا جميعاً».

لم يتمكن تولسن من التوقف، أراد أن يسمع حديثها.

«ربما سوف تقاسين وقتاً صعباً. لن يتدفق المال إذا كان والدك في السجن».

ابتسمت: «والدي. يا لها من كلمة مضحكة. أنا لست قلقة بهذا الشأن. أمي هي من تفعل كل شيء بأي حال».

«أوه؟»

قال بولسُن: «لذا سوف تكونين حرة لفترة». بدا حزيناً وغاضباً.

قال تولسُن: «وعلينا أن نفعل ما علينا أن نفعله، أين والدك الآن؟ في المنزل؟»

ابتسمت قائلة: «هو في إيران».

«هاه؟»

نظرت إليهما مباشرة: «غادر البارحة. بالتأكيد، ماذا ظننتما؟»

«لا يمكنه أن يفعل ذلك».

«يمكنه، صدقني».

حاول تولسُن التفكير بما أراد أن يسألها عنه. أرادها أن تكون مختلفة، وأن تقول شيئاً مختلف.

خرجت من السَّيارة وشرعت تسير نحو البيت. مشت بيسر وبثقة. رآها تخرج هاتفاً خلوياً. بدا أنها دقت الكثير من الأرقام قبل أن تبدأ بالتحدث.

ظلا ينظران حتى اختفت عن مرمى البصر.

فوكس تشابل المكتظة [٤]

ريبيكا دريك

صدرت أول رواية إثارة لريبيكا دريك، «لا تكن خائفاً»، في أيلول عام ٢٠٠٦ عن دار نشر «بيناكل». تبعتها رواية «القتل التالي» في أيلول عام ٢٠٠٧ واختيرت من قبل نوادي الكتاب الوطنية الأربعة بمن فيها الدليل الأدبي. صدرت روايتها الثالثة «المكان الميت» في أيلول عام ٢٠٠٨ وكانت أفضل مبيعات جمعية بائعي الكتب المستقلين لكتب الغموض. صحفية سابقة ونيويوركية في الأصل تعيش الآن في بيتسبرغ.

---

٤ -حي في بنسلفينيا، أحد ضواحي بتسبرغ

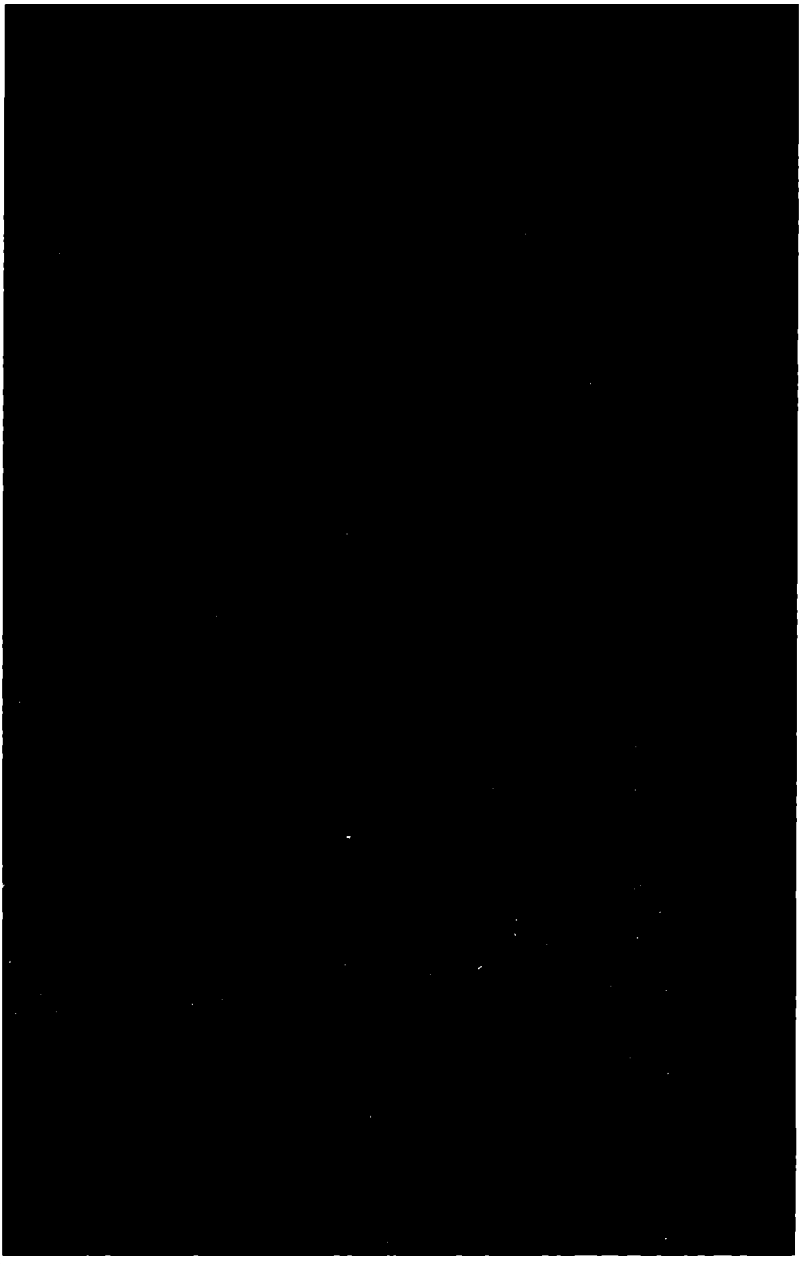

أمطرت يوم الانتقال، مطراً يبلغ حجم كل قطرة منه حجم قطعة معدنية من فئة ربع دولار، ترش الممشى الحجري بلطخ أشبه بالدم. شتم الحمَّالون في سرِّهم وتزحلق أحدهم فيما كانوا يدخلون صِوان سفرة عتيق. أفلت الطَّرف الثقيل من يده المتخدرة، وحط على الأرض مصدراً صوت تحطم، فانخدشت قشرة خشب الماهوغاني الخارجية.

شاهد أندرو من العتبة وشعر بالارتياح لأن الضَّرر كان على الجانب الأيسر. حيث من المستبعد أن تلاحظ كريستين، بالنظر إلى مكانه المقرر في غرفة الطعام.

كانت تميل إلى المبالغة في ردود أفعالها، وتخيَّل أنها لو كانت مكانه لصرخت على العمال، ولربما تركوا العمل قبل أن يتموا إنجازه، ممر من المقتنيات متروك على الحديقة الأمامية ليتشرب المطر.

لحسن الحظ، لم تكن في مرمى السَّمع، بل في القاعة، فيما كان يفترض أن تكون غرفة نوم الأولاد، تختار ألوان الطلاء مع والدتها.

كان منزلهما الأول، جعلته يحملها فوق العتبة على مرأى من والديها وعمال نقل الأثاث. لقد فعل الأمر نفسه في شقتهما منذ ست سنوات، بعد مرور أسبوع واحد على زواجهما، عائدين من شهر العسل في أوروبا متعبين ومسفوعين، كلاهما يضحكان عندما حملها بين ذراعيه ولوَّحها عبر المدخل الضيق.

بعد ست سنوات، شعر بالحرج وببعض الاستياء. كانت الأمور قد تغيرت فيما بينهما. ازداد وزن كريستين على نحو ملحوظ أولاً، تحمل عشرين باوند إضافي من وزن الطفل، ما لم يكن يفترض بأحد أن يأتي على ذكره مع أن أصغر ابنيهما يبلغ من العمر ستة أشهر.

قال أصدقاؤها جميعاً:

«تبدين بأحسن حال!»

كما لو أن هناك قاعدة أنثوية ضمنية تستلزم الكذب بشأن المظهر الجسدي.

كانت قد قهقهت عندما رفعها بين ذراعيه وأرغم نفسه على الابتسام. رأى بطرف عينه أحد عمال التحميل، وهو شاب بذراعين موشومين بوفرة، يحدق نحوه بتعبير جامد وهو يدخن سيجارة. تورَّد أندرو وأشاح ببصره، لكنه رأى الرجل يقذف السِّيجارة على المرج، مرجه.

هو لم يرغب بشراء منزل. لقد أمضيا ست سنوات في منزل مزدوج في «الإيست إند» وكان سعيداً هناك، قادراً على الذَّهاب إلى الجامعة سيراً على الأقدام، أو التَّوقف لشراء الحليب في طريق عودته إلى البيت، يذهب إلى للقاء أصدقاءه في مكان قريب ويشرب كأساً من الشراب في المساء. لقد وافق حاجاته كلها، إلى أن سلب المتجر في وضح النهار، وهوجم جار، واختفت كراسي المرج. بدأت كريستين تقول إنها لم تشعر بالأمان. تحدثت عن الانتقال من المدينة، قائلة إنه أفضل لصالح الأولاد. عندما حبلت بابنهما الثَّاني، عرف أندرو أن أيامه في المدينة باتت معدودة.

كانت الأسعار في «فوكس تشابل» باهظة للغاية بالنسبة لهما، لكن كريستين رفضت أخذ الحيطة، محتجة بوجود مدارس جيدة فيها، وأنهما سوف يكونان قريبين من والديها. ليس حافزاً لأندرو، لكنه بعد مرور ست سنوات على الزواج تعلَّم متى يلتزم الصمت.

في نطاق قدرتهما الشِّرائية، كانا عالقين في البحث عن منازل بحاجة إلى الترميم، أي مزارع تعود إلى حقبة الستينيات، أو منازل شبيهة بالعمارة الكولونيالية التي انتشرت بداية السَّبعينيات، مع مطابخ وحمامات بلون الأفوكادو، وغرف متعددة

الاستخدامات في طابق سفلي. كان يوجد في المنزل الذي استقر عليه رأيهما-وهو يتألف من أربع غرف نوم مع إمكانية تعديلها-بار أحمر اللون مصمم من مادة تشبه الجلد في القبو. تصوَّر أندرو نفسه واقفاً خلفه يقدم لأصدقائه مشروب المارتيني. كان تقليدي للغاية يكاد يكون عصرياً. شعر بالذعر.

السمسارة العقارية، وهي امرأة شقراء مسنة متقصفة الشَّعر، لون بشرتها ضارب إلى البرتقالي، تدعى «تيبي كوبرمان»، بدت تشعر بأريحية كبيرة وهي تسير جانبياً نحو البار.

شهقت وهي تلطم النضد من المصنوع من الفورميكا السوداء: «سوف تحظون بالكثير من التسلية هنا!».

حولت كل مثلب من مثالب المنزل إلى واحد من مزاياه. لذا عندما لاحظ أندرو أنه بحاجة إلى نوافذ جديدة قالت تيبي: «انظر إلى كل ذلك الضَّوء الطبيعي!» وعن قطعة الأرض المشجرة التي تبلغ مساحتها اكرين اثنين قالت: «يا لها من صفقة استثنائية مقابل كل هذه المساحة من الأرض!» دفعتهما ليقدما عرضاً بالسعر قائلة إنه استثمار عظيم.

الاستثمار الوحيد الذي استطاع اندرو التركيز عليه كان الوقت الذي قد يستغرقه لترميم المنزل والفناء. نظرت كريستين إلى البيوت الأكبر حجماً المحيطة بهما ووافقت تيبي الرأي. وافق والدها أيضاً فيما يبدو. لأنه في اليوم التالي بعد أن خرج والدا زوجته ليروه مع ابنتهما، عرضا أن يقدما لهما الدفعة الأولى وتغطية تكاليف رسوم إنهاء الصفقة.

أعلن «دونالد والاس» بعد أن تجول في أرجاء المنزل: «إنه بيت جيد كبداية».

وهو رجل أعمال ضخم الجثة أحمر الخدين وأشيب الشعر، جمع ثروة بمضاعفة حجم شركة جده لأدوات السباكة. شبه متقاعد، أمضى أيامه يحدق نحو شاشة

مسطحة في بيته الفسيح، أو يلعب الجولف في دورات لا تنتهي في نادي الكانتري. كان رجلاً لا يثق بالنشاطات الأكاديمية ولا يفكر بالعلماء إلا قليلاً. عندما لم يتمكن أندرو من تلخيص بحثه في الفيزياء بسهولة، كان البحث محل ارتيابه على الفور.

انطلقت جويس، زوجة دونالد قصيرة القامة ممتلئة الجسم، بسرعة يوم الانتقال، ترعى الحفيدين وتساعد كريستين في تحديد مكان وضع قطع الأثاث. قالت لأندرو مبتسمة إنها هي ودونالد سوف يضمنان «بالتأكيد» دعوتهما للانضمام إلى نادي الكانتري.

همست كريستين تلك الليلة، ليلتهما الأولى في المنزل الجديد، مستلقيان في سرير في جناح غرفة النوم الرئيسية الذي كان مطلياً باللون الأزرق المصفر: «هل يمكنك أن تصدق؟ نحن نملك بيتاً!»

بدت مبتهجة. لكنه شعر فقط بالذعر: انتهت حياته، كان يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً.

استيقظ مروَّعاً عند السَّاعة الثالثة صباحاً على صوت بكاء حاد، نهض أندرو في السَّرير ولم يتعرف على الغرفة. لبثت كريستين ساكنة، كتلة تحت الملاءات، يتهادى شعرها الأسود في خصل سبطة مخضلة بالعرق على الوسادة.

تركها نائمة وخرج يتعثر من غرفتهما ويمشي بخطى وئيدة على طول الرواق المعتم المستغرب، نحو غرفة نوم الأولاد. نام هنري البالغ من العمر ثلاث سنوات في سريره الجديد، يبدو أصغر حجماً مما كان في المهد الذي أصبح الآن سرير سام، في غفلة عن عويل أخيه الأصغر. رمى ضوء خافت على شكل ديناصور من الرسوم المتحركة، وهجاً أصفر خافت.

توقَّف سام عن البكاء لبضع ثوان عندما رأى والده يلوح فوقه، من ثم بدأ ثانية. مذكراً أندرو بصوت صفارة غارة جوية فهمس له وهو يحمله ويتوجه نحو

المطبخ: «صه الآن، أيها الفتى الصغير».

ضخت كريستين الحليب من صدرها لكيلا «يفوّت» أندرو إطعام ابنه. تناول إحدى الزجاجات من البراد وسخنها تاركاً ابنه يقضم، مثل قارض، أحد أصابعه بينما هما ينتظران. رضع سام بنهم، يحمل الزجاجة بيدين صغيرتين ويمص الحليب كما لو أنه كأس البيرة الأخير قبل موعد إغلاق الحانة.

كان الليل خانقاً. حمل أندرو سام والزجاجة على الشُّرفة الخلفية، يزلق بهدوء الباب الشَّبكي. بدا الخشب المعرض للهواء بارداً تحت قدميه. خفق الهواء بالجراد والجداجد، شكلت أغصان أشجار البلوط والقيقب المورقة مظلة فوق رأسيهما، ومن خلفها النجوم نيرة وكبيرة. لفتت انتباهه حركة، والتفت فرأى امرأة واقفة على الشرفة الخلفية للمنزل الأقرب لمنزلهما، والذي لم يكن قريباً بمعايير المدينة، كانت عارية، يتوهج جلدها أبيض في ضوء القمر. بدا شعرها الطويل السَّبط مثل سائل فضي. وهو يراقب رفعت يديها فوق رأسها، تضغطهما إلى بعضهما البعض وتقوِّس جسدها الطويل الضامر إلى الوراء. يوغا عند السَّاعة الثالثة صباحاً.

وقف في الظِّلال وراقب، متسائلاً إذا ما عرفت بوجوده هناك. بعد بضع دقائق من تمارين التمطيط، ظهر رجل من خلفها فجأة. كانت المسافة بعيدة جداً فلا يمكنك سماع شيء، لكن أندرو رأى بوضوح الرجل يلف يده في ذلك الشَّعر الطويل الفضي ويشده. تحركت مع شعرها، صرخة ألم مفردة عالية بما فيه الكفاية لتتردد عبر الأشجار. كان له أن يكون صوت قطة أو طائر، ما كان ليتحقق من ذلك أحد. توقف سام عن إسرافه في شرب الحليب، وأفلتت الزجاجة من بين شفتيه الملطختين بالحليب، واضطرب في ذراعي والده.

وقف أندرو ساكناً يخشى أن يأتي بنأمة، عاجزاً عن المغادرة. تصارع الزوج لدقيقة بصمت، أفلت الرجل شعرها لكن فقط لينقل يده نحو عضدها. جرها إلى منزلهما. أطال أندرو وقفته هناك إلى حين، على ساقين مرتعشتين، يسمع صوت أنفاسه الخشنة السَّريعة في أذنيه. أجفلته قرقعة الزجاجة وهي تقع على الشُّرفة

-نام سام بين ذراعيه.

في يوم الجمعة التالي، دعيا أصدقاء من المدينة لزيارتهما في منزلهما الجديد، كانت فكرة كريستين: سوف يشوون ويمكن للجميع الجلوس على الشُّرفة الخلفية ويستمتعوا بالمنظر.

ضاحَكه جيسُن وهو يأخذ علبة البيرة التي أخرجها أندرو من البراد: «هيه، أيها الأب الرياضي، متى ستجلب شاحنة صغيرة وكلب من نوع الجولدن ريتريفير؟»

«ها اللعنة».

سحب أندرو الشَّرائح المملحة من البراد، وحملها مروراً بالجمع المحتشد في غرفة الجلوس الذين كانوا يلاعبون الطفل، وخرج إلى الشُّرفة. سقط هواء ساخن مثل غطاء على وجهه، وسمع جيسن يهتف من خلفه. كان غسق وجذوع أشجار البلوط المعتمة التمعت قليلاً في غروب الشَّمس الذهبي.

قال جيسن وهو يشرب من بيرته ويشاهد أندرو ينقل الشرائح إلى المشواة الكبيرة التي تعمل على الغاز وقد كانت هدية من والدي زوجته: «إذن تحب المكان هنا؟»

«بالتأكيد، إنه جيد».

تمتم جيسُن بعد بضع دقائق: «أظن أن هناك بعض المنافع من شراء كل هذا البيت».

رفع أندرو بصره ولاحظ المرأة التي رآها من قبل، تنحني على سياج شرفتها، تدور كأس نبيذ في يدها. رأى في ضوء النهار أن شعرها أشقر ناصل اللون، وليس فضياً. كانت مكتسية هذه المرة، ترتدي قميصاً أبيض ضيقاً وسروالاً فيروزي اللون. التفتت ورمقته، ترفع كأسها ببطء إلى شفتيها وتشرب جرعة طويلة.

هسهست المشواة ونظر أندرو في الوقت المناسب لينقذ الشَّريحة قبل أن يلتهمها اللهب. عندما رفع بصره بعد دقيقة كانت المرأة قد رحلت.

غادرت كريستين يوم الاثنين إلى العمل، وكلا الولدين مربوطين إلى مقعد السيارة الفولفو الخلفي. سوف توصلهما إلى منزل والدتها، حيث أمضيا نهاراتهما مدللين من قبل الجدَّة ومدبِّرة منزل مسنة تدعى ويني، قبل أن تقود إلى تدريبها في القانون في مركز المدينة.

يغادر أندرو إلى العمل عادة في الوقت نفسه، لكن هذا الصَّيف كان مختلفاً، الانتقال أجَّل كتابة ورقة البحث التي كان عليه تقديمها في المؤتمر، آخر الصيف وكان قد وضع مكتباً في البيت ليعمل عليها دون مقاطعة. غير أنه لم يتمكن من أن يبدو مركزاً. كان مكتبه في شقتهما موضوعاً في فجوة في الجدار المجاور للنافذة الأمامية حيث راقب حياة المدينة تمر واعتاد على الضجيج-صفارات إنذار وشاحنات نقل، أطفال ضاحكون، جيران يتشاحنون. كان حيه الجديد هادئ للغاية، حتى أنه جفل من صوت خربشة طائر في الغابة خلف المنزل. كانت الضجة الوحيدة المعتادة هي أصوات حصادات العشب، يعمل عليها فريق يأتي بانتظام لخدمة المنازل الباهظة الثمن والكبيرة. جاء كل ثلاثاء إلى المنزل المجاور الذي دعاه هنري بالمنزل القلعة، لأنه كان مشيداً من حجر كبير على أسلوب العمارة الإنجليزية في القرون الوسطى مع برج صغير. فكر أندرو فيه على أنه منزل اليوغا العاري، لكنه لم يخبر كريستين بذلك. رأى الرجل كل صباح يركب فجأة سيارة من نوع «بورش» فضية لكنه لم يرَ المرأة ثانية.

ذلك الأصيل، مشمئزاً من عجزه عن إنتاج أي شيء مترابط، قرر الذهاب للجري. استعمل غالباً أجهزة الدوس في نادي الجامعة الرياضي، لكنه لم يبدُ مستحقاً أن يقود كل تلك المسافة الطويلة. كان هناك الكثير من الدروب على طول الرقع الواسعة في حديقة البلدة. قاد مسافة ربع ميل إلى حدوة صغيرة من موقف للسيارات غير مرصوف، حيث ترك سيارته قرب أخريات، وتوجه على طريق

للجري. جرى بمشقة مسافة ميلين.

في طريق عودته صادف جارته. كانت تركض على طول الممر باتجاهه، ترتدي قميصاً داخلياً أخضر وسروالاً قصيراً رقيقاً أسود خاصاً بالجري، تمايل شعرها المشدود إلى الخلف على شكل ذيل حصان، من جانب إلى آخر، عندما تحركت ساقاها وذراعاها مثل مكابس. كانت ترتدي في إحدى ذراعيها إسورة فضية لمعت بشحوب وهي تركض. كانت عداءة سريعة ومركزة. حدقت مباشرة قدماً وفكر أندرو أنها قد تمر دون أن تتكلم فتكلم بدلاً عنها وقال: «مرحباً».

قالت: «مرحباً». بالكاد نظرت نحوه.

كانت الآن قد تجاوزته بخطوتين. فيما بعد عندما كان يحلم بها قد يبدأ عند هذه اللحظة، عندما تمكن من تركها تمضي متظاهراً أنه لا يعرفها.

التفت ونادى: «أظن أننا جيران، أنا أندرو دوربن».

نظرت وتفحصته واقفة في الممر ويديها على وركيها تلهث. لم يكن تعبيرها مبشراً. أجابت بعد لحظة: «أنا إلزا» ثم قالت مفاجئة إياه: «هل تريد أن نركض معاً؟»

شعر بخضة من اللذة لكونه مدعواً، كما لو أنه طالب في المدرسة الإعدادية وطلبت الفتاة الشَّهيرة منه مشاركتها الرقص. حاول التَّظاهر بعدم الاكتراث، ونظر إلى ساعته كما لو أن للوقت، بطريقة ما، دوراً في قراره، ولو أن كريستين لن تكون في البيت لساعات: «بالتأكيد».

كان عليه أن يبذل جهداً ليجاريها، استطاع أن يشعر بصدره يموج، يسمع أنفاسه الجهيدة. بدت أنها تتنفس بيسر، ركضت مثل الغزال الذي رآه من النافذة الخلفية لمنزله، ساقان نحيلتان وخدرتان، تندفعان بسلاسة حول الأشجار، وتفوت الأغصان الطائشة التي بدت أنها تمتد وتضربه في وجهه.

عندما ضاق الدَّرب، تبع عشوائياً، يشعر بأن البلل ينتشر عند ياقة قميصه وتحت إبطيه. أخيراً عادا كل إلى سيارته. استند على غطاء محرك سيارته «الهوندا»، يلتقط أنفاسه، بينما سارت بهدوء نحو سيارتها، سوداء صقيله من نوع «بي إم دبليو»، ترفع بطاقة لتفتحها مصدرة صوت صفير ضئيل. انزلقت في المقعد وأدارت المحرك قبل أن تخرج رأسها لتسأل: «هل تود أن نلتقي ثانية يوم الأربعاء؟ ماذا عن السَّاعة الواحدة والنصف؟»

هكذا بدأ الأمر، لكن لم يتمكن من القول إنه كان بريئاً أبداً. عندما وصل إلى البيت توجه مباشرة إلى الحمام واستمنى مستنداً على الجدار المبلط مثل مراهق وهو يتخيل نفسه يخلع الملابس عن جسدها المتعرق.

التزمَت الصمت وهما يركضان، لم يكن من طبعها الكلام أثناء ذلك، لكنها تريثت أحياناً بعدئذٍ، مرة مقدمة له الماء عندما نسي أن يجلبه معه، ومرة أخرى قائلة له إن خطوه في تحسن. لم تسأله مرة عن حياته، ولم تفصح بشيء. أراد أن يسأل عن الرجل الذي رآه على الشرفة، الذي استنتج أنه زوجها، وقد حكم من الخاتم الرقيق المصنوع من الماس والذهب في يدها اليسرى، لكنه تراجع دوماً.

بدلاً من ذلك، بحث في مرآبه عن الأوزان الحرة التي كان قد اشتراها منذ سنوات من ساحة للبيع وكان يتجمع عليها الغبار منذ ذلك الحين.

سألت كريستين عندما نقلها إلى غرفة نومهما: «ماذا تفعل؟».

«فقط استعادة اللياقة».

غضَّنت جبينها: «هل تحاول أن تلمح لشيء؟»

نظر إليها واقفة هناك ترتدي قميصاً ملطخاً برشاش اللعاب، وفوطة مرمية على أحد كتفيها. كانت قد خلعت سترتها لكن لا تزال ترتدي تنورتها، تبرز معدتها من فوق خط الخصر. قطبت، وجهها المدور المتعرق والمنفوخ.

«حسناً؟ لأني لا أستحب الضغط».

«لا، إنها ليست من أجلك بل من أجلي».

أراد أن يضيف: يمكنك استعمالها أيضاً. لكنه لم يفعل.

كانا يركضان معاً لثلاثة أسابيع عندما قالت إلزا: «هل تريد أن تأتي لنشرب؟»

كان قد تخيل هذه اللحظة مرات عديدة لكنه كافح ليبدو عادياً: «لمَ لا؟»

تبعها على التلة نحو شارعهما الهادئ مكافحاً أن يلتزم السُّرعة نفسها، بينما يحترس من الشُّرطة لأنها كانت تسير بسرعة سبعين كم/سا طوال الطريق السيارة تومض على امتداد الطرق الضيقة بالكاد تبطئ عند المنعطفات الخطرة.

توقَّف عند الدَّرب الخاص بمنزله، ووقف عند السيارة للحظة متسائلاً إذا كان عليه أن يستحم أولاً.

نادت: «ألستَ بآتٍ؟»

وفي الحال مشى عبر المنفسح العريض للمرج الزمردي الذي كان يفصل بين منزليهما.

كان المنزل بارداً في الداخل ومعتماً بعد الشمس المشرقة.

قال مبدياً إعجابه بالأثاث الحديث: «هذا لطيف».

كانت غرفة الجلوس برمتها مطلية بدرجات الأسود والأبيض والفولاذي. كانت قد اختفت في غرفة أخرى وعادت بكأسين طويلين من الماء المثلج.

«هل تظن ذلك؟»

ناولته كأساً وشربت كأسها بجرعة واحدة طويلة صامتة، عندما انتهت مسحت فمها بظاهر يدها الرقيقة.

«منذ متى تسكنين هنا؟»

ابتسمت: «مدة طويلة بما فيه الكفاية».

كانت واقفة بالقرب منه، فتمكّن من رؤية أظافرها المطلية بإتقان. حاول أن ينظر في عينيها، لكن نظرته انسحبت نحو الأسفل، نحو الحلمتين البارزتين من تحت قميصها.

قالت مفاجئة إياه: «هل تريد أن تقبلني؟»

شعر فجأة بالسخونة وتغشى بصره للحظة.

«أنا متزوج».

ضحكت ووضعت كأسها على طاولة جانبية متقدمة نحوه.

«وأنا كذلك».

فيما بعد كان ليفكر حول بعد احتمال حدوث الأمر، لكن في تلك اللحظة كان كل ما فكر فيه طعم فمها ورائحة وملمس بشرتها. لقد مرَّ وقت طويل منذ أن استغرق وقتاً في ممارسة الجنس، منذ أن كان عليه أن يقول لنفسه أن يبطئ ويستمتع، منذ أن كان شاباً بما فيه الكفاية ليصل في الحال بدلاً من أن ينتظر، ويعرف أن ينتظر شريكته. هي لم تتحدث أثناء ممارسة الجنس أيضاً، لكنها أطلقت صوتاً صغيراً خافتاً من حنجرتها، وفي الختام عندما انتهيا، تنهدت بطريقة تبعث على السرور.

أصبح منوالاً: يركضان معاً ثلاثة أيام في الأسبوع، وبعد الجري يعودان إلى منزلها

ويمارسان الجنس. مرة فعلا ذلك في سيارتها، ومرة أخذها في الغابة وضاجعها إلى شجرة.

هو لم يكن يوماً بمثل هذه الجرأة. أقرب حادثة خطرت له حدثت ذات ليلة على الشاطئ، عندما زلق يده في قميص كريستين وأراد أن يضاجعها على الكثبان، غير أنهما سمعا صوت أناس قادمين وسحب يده. إلزا لم تبتعد يوماً. جربت وضعيات جنسية مختلفة، كما تجرب نساء أخرى أحذية جديدة. كان الثَّابت الوحيد هو الرنين الإيقاعي الخفيف لعشرات الأجراس الفضية الصَّغيرة على سوارها.

خلال بقية الأسبوع لم يرها إلا من بعيد، ترتدي فساتين فاضحة وصنادل عالية الكعب، وهي تصحب زوجها في الأمسيات، أو تختفي خلف نظارة شمسية كبيرة وهي تندفع بسرعة إلى الغداء بصحبة أصدقاء. رهط من الخدم يأتون ويذهبون من المنزل-نساء التنظيف، البساتنة، النجارون، وفتيان المسبح. عرف أنها أمضت نصف يومها في منتجع معدني.

قالت كريستين ذات أصيل وهما يحملان الأطفال إلى السَّيارة للذهاب للاحتفال بعيد ميلاد جدهما:

«هي في حالة جيدة».

ورفع نظره ليرى إلزا ترتدي فستاناً أبيض وصندلاً ذهبياً تنزلق في سيارة البورش. نظرت نحوه وأشاحت ببصرها كما لو أنه كان بلا أدنى أهمية.

لهذا السَّبب عندما ضاجعها في اليوم التالي أخذها بخشونة أكبر وعندما انتهى قال: «لا تتجاهليني». ضحكت.

هو لم يفكر في الجنس مع إلزا كممارسة للحب. هو لم يعرفها جيداً بما فيه الكفاية ليحبها، لكنه رغب في مجامعتها. فكر بها باستمرار، وفي الأيام التي لم يلتقيا فيها وجد نفسه يحاول أن يلمحها. وصل به الأمر أن سار مرة نحو منزلها

ورن الجرس. عرف أنها كانت في البيت، كانت السيارة هناك في الدرب، لكنها لم تفتح الباب.

أحياناً كانت تتحدث إليه وهما يستردان عافيتهما في السَّرير المجوف في غرفة النوم المعتمة. عرف عن أن زوجها عمل في التمويل وأنها التقت به عندما كانت تعمل في عرض الأزياء واكتشف أن أمها ألمانية ووالدها أميركي.

كان يوجد في خزانة حمامها صفوف من حبوب الـدواء، بما فيها مضادات الاكتئاب واسمها مدون على القارورة. لم يظهر عليها أن تعمل أو تقوم بأي عمل مهم. سألها مرة وضحكت قائلة له إن هدفها في الحياة كان أن تبدو حسنة المظهر.

علَّقت كريستين على جريه كثيراً، وتحدث عن مدى جودة ذلك بالنسبة إليه، لكن عندما اقترحت أن يذهبا معاً في الأمسيات، قال إنه يفضل الجري أثناء النهار.

ذات أصيل، عندما دفع أندرو حصَّادة العشب في أرجاء الفناء، هتف له زوج إلزا وهو يخرج من المنزل القلعة مرتدياً سروالاً رسمياً وقميصاً وإن كان يوم سبت.

قال بتلويحة أنيسة: «مرحباً يا جار». وخطا بحذر شديد على العشب المجزوز حديثاً ينتعل خفاً إيطالياً.» كان عليَّ أن آتي سابقاً وأقدم نفسي. مايكل كانتاتا».

تصافحا بشدة، لكن عندما حرر أندرو قبضته بقيت قبضة الرجل الآخر مشدودة وأضاف: «أظن أنك التقيت بزوجتي». وكان ينظر مباشرة في عيني أندرو بابتسامة صغيرة باردة.

«نعم».

لاقى أندرو نظرته للحظة محاولاً أن يستمر بالنظر في العيون الرمادية الجارحة.

«هل تشذب مرجك؟»

«نعم».

«من المهم أن تهتم بمرجك الخاص. لم أرغب يوماً أن أترك ذلك بغير رفيق».

مد لأندرو يده مرة أخرى، عصرها ثم حررها.

سألها في اليوم التالي عندما التقى بإلزا في الغابة: «هل يعرف زوجك بأمرنا؟».

كانت تستند على شجرة بلوط تؤدي تمارين التمطيط وبدت منزعجة لأنه قاطع تركيزها.

«كيف يمكن له أن يعرف؟ هو غائب في العمل ما يزيد عن عشر ساعات في اليوم».

لم يصدقها، لا يمكن لأحد أن يكون بمثل هذه الدرجة من الحماقة، لكن ربما كانا يعيشان زواجاً مفتوحاً. ارتابت كريستين الآن في الأمر. ضبطها تفتش جيوب ملابسه في غرفة الغسيل.

«ماذا تفعلين؟»

«هل لديك علاقة غرامية؟»

«ماذا؟ لا! بالطبع لا».

لم يعتقد يوماً أنه كان يجيد الكذب بصفة خاصة، وحدقت به طويلاً، خف التوتر عندما شرع هنري بالبكاء في الغرفة الأخرى.

قالت صباح اليوم التالي: « كنت أذهب إلى النَّادي الرياضي»، كانت بالكاد تنظر إليه مستغرقة في جهاز البلاك بيري، لذا اعتقد للحظة أنها كانت تتحدث إلى شخص على الهاتف. عندما رفعت بصرها أدرك أنها كانت تخاطبه.

«عظيم، هذا عظيم».

«لقد خسرت خمسة باوندات».

ربت على كتفها وهو ينهض عن طاولة المطبخ: «واو! جيد من أجلك».

عندما تضاجعا في المرة التالية قال لإلزا إن عليهما أن ينهيا الأمر. ضحكت وأدرك أن توقيته كان سيئاً وأنه كان له أن يكون معقولاً لو قال ذلك قبل ممارسة الجنس وليس بعدها.

حدَّث نفسه كل أصيل قائلاً إن هذه ستكون المرة الأخيرة، لكن حال رؤيتها ينسى ما قرره على الفور. كان قد عرف بعض المدمنين-شربت زميلة له ثلاثة كؤوس مارتيني أثناء العمل، وخبَّأت زجاجة ويسكي في درج مكتبها، ابن مراهق مضطرب لجار سابق أرسل إلى إعادة التأهيل لإدمانه على الكوكايين، رفيقة حجرة كاثرين من الكلية تقيأت في الحمام بعد تناول كل وجبة-وكان يشفق عليهم جميعاً، لا يفهم أبداً ما يعني أن يكون لديك رغبة تستهلكك مثل طفح جلدي.

وجد في أحد الأيام كدمة على ذراع إلزا. كان قد عرف جسدها عن قرب حينئذ، والزهرة الأرجوانية المنتشرة قفزت في وجهه.

« كيف حصل لك هذا؟»

خرجت من قبضته ورأى حينها أن بتلات الوردة وافقت أصابع أكبر من أصابعه.

«هل تلقفك هنا؟ هل يؤذيك؟»

ظهرت له في ومضة صورة قبضة رجل ملتفة حول شعر فضي عند الساعة الثالثة صباحاً، مع أنه لم يحدث يوماً إلزا عن أول مرة رآها.

قالت: «هو ليس رجلاً سعيداً. هو ليس سعيداً على الإطلاق».

تخيل أنه يهجر كريستين ويتزوج من إلزا، لكن هذه الأفكار لم تصمد أكثر من مدة هياجه الجنسي. كانت امرأة متزوجة من رجل ثري، تعيش حياة مريحة، زوجة شابة جذابة، وسوف لن تترك الرجل الذي هيأ لها هذه الظروف. ودوره في هذه التمثيلية كان أن يؤدي دور اللعبة. قال لنفسه إنها كانت ملذة صيفية وقد تنتهي قبل أن يبدأ الفصل الدراسي الجديد.

كان قد مر شهران على علاقتهما عندما أصيب هنري بنزلة صدرية.

قالت كريستين: «لا يمكننا أن نبقيه مع والدتي هي مسنة وويني كبيرة». نظرت إلى جهاز البلاك بيري ثم نحوه. «لقد حصلت على اعترافات طوال الفترة صباحية ومن ثم عليَّ حضور الجلسة في الأصيل، لكن يمكنني المغادرة في وقت مبكر قليلاً، ربما في الخامسة والنصف؟ فيمكنك أن تهتم به حتى ذلك الحين، صحيح؟»

سهر على ابنه وقاس حرارة هنري، متحاضنين معاً في غرفة العائلة وهما يشاهدان برنامج شارع سمسم على شاشة مسطحة، وانكب عليه بعصير التفاح، يفكر طوال الوقت بإلزا تنتظره في الغابة. أخذت تمطر رذاذاً في الأصيل وفكر في إلزا تحت المطر بوقوفها على الطريق ترتدي قميصاً مبللاً مشبعاً بالماء، بمضاجعتها هناك تحت أغصان شجرة شوكران. ترك هنري نائماً بشكل متقطع واستمنى في الحمام.

بعد ثلاثة أيام انخفضت حرارة هنري، وفي صباح اليوم التالي عاد إلى منزل جدته. انتظر لقاء إلزا بفارغ الصبر، يقود سريعاً لكن بروية على طرقات منحدر التلة الزلقة بسبب المطر.

كانت سيارتها هناك، لكنها لم تكن. مشى حولها يبحث عن ملحوظة، وضغط وجهه على الزجاج الملون ليحاول أن يرى الداخل لكن لم يكن هناك من دليل على أنها فكرت فيه.

الخيبة جعلته حانقاً وضجراً. ركض مع ذلك يتبع طريقهما نفسه، ولو أنه كان

تلذذاً بالألم أن يفعل ذلك في المطر المنهمر، ورش الوحل ساقيه، تنزلق قدماه على جذور شجرة رطبة. اعتقد أنه قد يتمكن من إدراكها إذا أسرع في الجري ودفع جسده. عندما وصل إلى مفترق طرق وكان عليه أن يختار، اعتقد أنه رأى آثار أقدامها في الوحل وسلك الدرب الأيمن الذي أصبح شاهقاً على نحو متزايد.

على طول سلسلة تلال ضيقة عالياً فوق الجدول تعثَّر بصخرة وسقط، فانخدشت قصبة ساقه اليمنى وحط بثقل على إحدى ركبتيه. من حسن حظه أنه لم يتزحلق على الجانب، منزلقاً على منحدر التلة والحصى التي ركلها تفلت تحت قدميه. دفع نفسه نحو الأعلى، ينظر أسفل نحو الجدول المتورم يهرع سريعاً على بعد عشرين قدم نحو الأسفل. بين ألوان الأخضر والبني، لاحظ شيئاً زهري اللون في الماء. انحنى قدماً يثبت جسده إلى شجيرة قيقب، يطفر الماء من عينيه، لكنه لم يتمكن من تحديد ماهيته.

ركض ببطء أكبر يهبط التلة، يحاول أن يبقي الشيء تحت نظره وهو يقترب، متجاهلاً الخدش الواخز على ساقه والألم في ركبته. عندما وصل إلى ضفة الجدول تمكن من رؤية شيء يستقر تحت الماء.

حلَّ حذاءه وانزلق عن الضَّفة، الماء بارد رغم حرارة النهار، تغوص أصابع قدميه في الوحل، تكدر دوامة من الطمي بصره. مد يده إلى الأمام عشوائياً، حرك ذراعه في الماء، وتحسس الصخور وأوراق الأشجار وشيء ما ثقيل أكثر قساوة استقر في القاع. سحب بقوة واندفع من الماء، ورشه في وجهه، حذاء نسائي رياضي، أبيض ملطخ بالبني من الماء وشرائط وخطوط زهرية اللون، كان حذاء إلزا.

للحظة لم يفعل شيئاً سوى الوقوف هناك، محدقاً بفردة الحذاء المشبَّعة بالماء تتدلى من يده. ثم نظر من حوله بوحشية متوقعاً ماذا؟ أن يرى شخصاً يراقبه بين الأشجار؟ انهمر المطر بثبات، لكنه غطس في الجدول بأية حال يبحث بتهور شعره يتبلل ويدخل في عينيه قدماه خدرتان منذ وقت طويل.

استطاع أن يحس بصوت قلبه المكتوم متواقتاً مع الماء المندفع. لم يفكر بفردة الحذاء في يده، لم يفكر بالقدم النحيلة التي تنتمي إليها، لم يفكر بما كان يبحث عنه حقاً في الجدول. حتى وقع بصره فجأة عليها، تأوي في عقدة من جذور شجرة بلوط، التي انتشرت من الضفة المتآكلة مثل أصابع تجرف الماء وعملت مثلما يلتقط الغربال أي شيء صلب يأتي في متناوله. كانت مقلوبة على وجهها، رآها مثبتة بالشجرة، ذراعاها ممدودتان إلى الأمام كما لو أنها كانت تسبح، فيما عدا أن إحدى ذراعيها كانت بزاوية غريبة كما لو أنها كانت ملوية، وساقيها الطويلتين العاريتين المفتولتي العضلات انبجستا سدى من خلفها، فردة الحذاء الأخرى لا تزال في قدمها.

سبح ضد التيار ليصل إليها، ينشج لمرأى بشرتها الشَّاحبة السليمة وشعر مربوط ببقايا طافية-قطع سرخس ممزقة، أجزاء من لحاء، برثن واحد لجراد البحر. أمسك بكتفها، وقلبها، ورأى جرحاً كبير مفتوحاً على أحد جانبي رأسها، فجوة حقاً، الشعر قربها متلبد ومدمى. اعتقد أنه لمح مادة رمادية تحت ذلك، قبل أن يدعها تنقلب على وجهها ثانية في الماء.

كانت ميتة. أول صورة تبادرت إلى ذهنه لشخص ميت كان منذ تسع سنوات، منظر جدته مستلقية، وجهها مطلي بزينة كثيفة، ومتصلبة في صندوق لماع، لكنه عرف أن إلزا رحلت حتى قبل أن يرى عينيها غائمتين مثل سمكة ميتة. تصور زوجها ينتظر على طول الطريق ويضربها بدولاب حديدي عندما تنعطف.

بيدين مرتجفتين أخرج هاتفه الخلوي من جيبه المبلل ليتصل بشرطة النجدة لكنه توقف سريعاً، مدركاً فجأة أن لديه أمور أكبر يهتم لها أكثر من جسد إلزا العائم في الماء.

إذا أخبر الشرطة عن عنف مايكل كانتاتا قد يسألونه عن كيفية معرفته بالأمر وقد يتوجب عليه أن يقر بالعلاقة. وقد تقتله كريستين إذا اكتشفت أمرها. تطلقه على الأقل. إذا نجا من غضبها واجه مستقبل لن يحصل فيه إلا على زيارة هنرى

وسام كل أسبوعين، وأن يتشارك لقب «أب» مع رجل آخر. عرف أن كريستين سوف لن تعيش وحيدة. وأنها قد تجد أحداً فقط نكاية به، وشخص أكثر ثراء منه، أو من لم يكن ليفقد شعره أو من انتمى بالفعل إلى نادي الكانتري الأحمق.

وهذا كان مستقبله فقط في حال صدقت الشرطة أن مايكل كانتاتا وليس أندرو من ارتكب جريمة القتل. لم عليهم أن يصدقوه؟ كان هو من يقف في الماء مع الجثة.

خلع أندرو قميصه المشبع بالماء مذعوراً، ضرب بعنف البقعة التي مسها على كتف إلزا، ثم تراجع عن الجسد قبل أن يستدير ويعود أدراجه يخوض ضد التيار للخروج. وما أن صعد على الضفة حتى أدرك أنه لا يزال يحمل فردة حذاء إلزا. ضربها نحو الأسفل باهتياج قبل أن يقذفها في وسط الجدول، حيث غرقت مسببة رذاذا مهولا قبل أن تنوس ببطء نحو السطح. اندفع منتعلا حذاءه، تتلمس أصابعه الشرائط، قدماه تنسحقان في النعلين. عاد على طول الدرب، يشاهد المطر يزيل آثار اقدامه في الوحل إلى أن وصل إلى مفترق الطرق، اختار الدرب الذي إلى اليسار وركض سريعا فإذا رآه شخص ما قد يقول إنه قد اختار هذا الطريق ولم يكن قرب الجدول قط.

عندما عاد أندرو إلى ساحة انتظار السَّيارات، لم يكن هناك سوى سيارته وسيارة إلزا. كانتا مرئيتين من الطريق. كم من الناس مروا ورأوا سيارته؟ تشنجت معدته عندما تذكر أنه لمس البي إم دبليو وأجبر نفسه على السير كيفما اتفق. عندما لم يكن هناك سيارات تنطلق مسح النوافذ بقميصه ليطمس أي أثر ممكن لبصماته.

لم يتذكر القيادة إلى البيت. كان في الغرفة الموحلة بلا جدوى يجفف نفسه بمناديل ورقية بينما تشكلت برك الماء من حوله عندما ظهرت كريستين في المدخل.

قفز وقال: «مرحبا!» بدا صوته ممسوساً. «لم أتوقع أن تأتي إلى البيت سريعاً جداً، هل الأطفال معك؟»

«والدتي سوف تعيدهما إلى البيت بعد قليل. هما يستمتعان باللعب في المطر».

رنت إليه وغصب نفسه على النظر إليها، واقفة في رداء من مصنوع من قماش المناشف وآثار المشط مرئية في شعرها المبلل: « كنت تركض في الخارج في هذا الطقس؟»

أومأ وأحنى رأسه ثانية: «جنون. هذا المطر لا يصدق». كان يرتعش لكنها لم تعلق.» هل يمكنك أن تجلبي لي منشفة؟»

بقي في الحمام لمدة خمس وعشرين دقيقة، راجياً أن يطغى الضجيج على صوت نشيجه. ثم رمى ملابسه في الغسالة. انضمت كريستين إليه في غرفة الغسيل وقالت إنها سوف تغسل ثيابه مع الغسيل الدوري، لكنه أصر. وضع حذاءه في غرفة الغسيل أيضاً، مزيلاً كل شذرة وحل قبل أن يقلب الفردتين على صحيفة قديمة كي تجفا.

طوال ذلك الأصيل الطويل والمساء توقع أن يسمع صوت صفارة إنذار لكنها لم تأت. تساءل إذا ما وجدوا جسد إلزا وراقب أخبار المساء مستجمعاً قواه من أجل إعلان، لكن لم يكن من شيء.

أثقل عليه ليلاً وزر ما فعله ولم يستطع النوم. كان يترك رجلاً قاتلاً يفلت من العقاب. كان واثقاً من أن زوج إلزا قد قتلها. فكر بكتابة رسالة مغفلة اسم المرسل إلى الشرطة لينبههم من أن هذا لم يكن موتاً وليد الصدفة، لكن إذا وجه أصابع الاتهام إلى مايكل كانتاتا، ثم ذلك الإصبع الطويل قد يصل إليه في نهاية المطاف. قد يكتشفون أمر العلاقة وعندما يفعلون ستعرف كريستين.

فجأة خطر له أن تلك كانت نية مايكل كانتاتا: لقد قتل زوجته ليحاصر أندرو الذي كان أحمق بما فيه الكفاية ليفكر أن إزالة آثار أقدامه ومسح نوافذ سيارتها قد يمحي وجوده من حياة إلزا. كانت آثار أصابعه في كل مكان في منزلها.

في أي يوم أتت مصلحة التنظيف إليها؟ هل نظفوا جيداً بما فيه الكفاية ليزيلوا كل آثار له من المنزل؟ تكدرت معدته. لم يتمكن من النوم إلى أن فعل أخيراً فقط ليحلم مراراً وتكراراً بجسد إلزا يعوم في المياه.

كانا يتناولان طعام الإفطار إلى طاولة المطبخ عندما سمع صوت صَفارة خافت. أنهى مضغ لقمة الخبز المحمَّص وابتلعها في حلق جاف. زاد صوت النواح ارتفاعاً أكثر فأكثر. أرغم نفسه على تناول لقمة بيض، لكن هنري اندفع عن الطاولة وهرع إلى نافذة غرفة الجلوس ليرى.

نادت كريستين: «هنري، عد إلى الطاولة».

«هناك شرطة في المنزل القلعة!».

للحظة مديدة لم يحدث شيء. انحنى أندرو ليمسح دقيق الشُّوفان عن وجه سام، لكنه استطاع أن يحس بكريستينا تحدق نحوه. ما كان ليلاقي نظرتها. فجأة وقفت وخرجت من الغرفة.

نادت مؤكدة ما قاله هنري: «الشرطة في منزل كانتاتا».

نهض وفك سام من كرسيه العالي، مؤرجحاً إياه على وركه وهو يحمله إلى غرفة الجلوس. شاهد الشرطة عند الباب يتحدثون إلى مايكل كانتاتا وطوال الوقت استطاع أن يشعر بصوت خفقان قلبه. تساءل إذا ما تمكن أي شخص آخر من سماعه.

قالت كريستينا: «ماذا تفترض أنه حدث؟»

وبدا صوتها غريباً. كانت تشد على يد هنري بيدها. ثم سمع رنيناً مألوفاً وخافتاً، ورأى أجراساً فضية صغيرة تتدلى من معصمها.

في الأسفل

كارلوس أنتونيو ديلغادو

حصل كارلوس أنطونيو ديلجادو على شهادة الماجستير في الفنون الجميلة من جامعة بيتسبرغ، وفاز بجائزة تورو كيندر الأدبية عن أول فصلين من روايته القصيرة «الصوت وأذرع الله». وضع أدباً في مجموعة The Ankeny Briefcase وفي سنوية صحيفة ريليف، أفضل مقتطفات ريليف الأدبية. يقيم ويعمل في لوس انجلس-في معهد توري هونورز التابع لجامعة بيولا-لكنه يفتقد منزله في مورنينج ساید في بيتسبرغ.

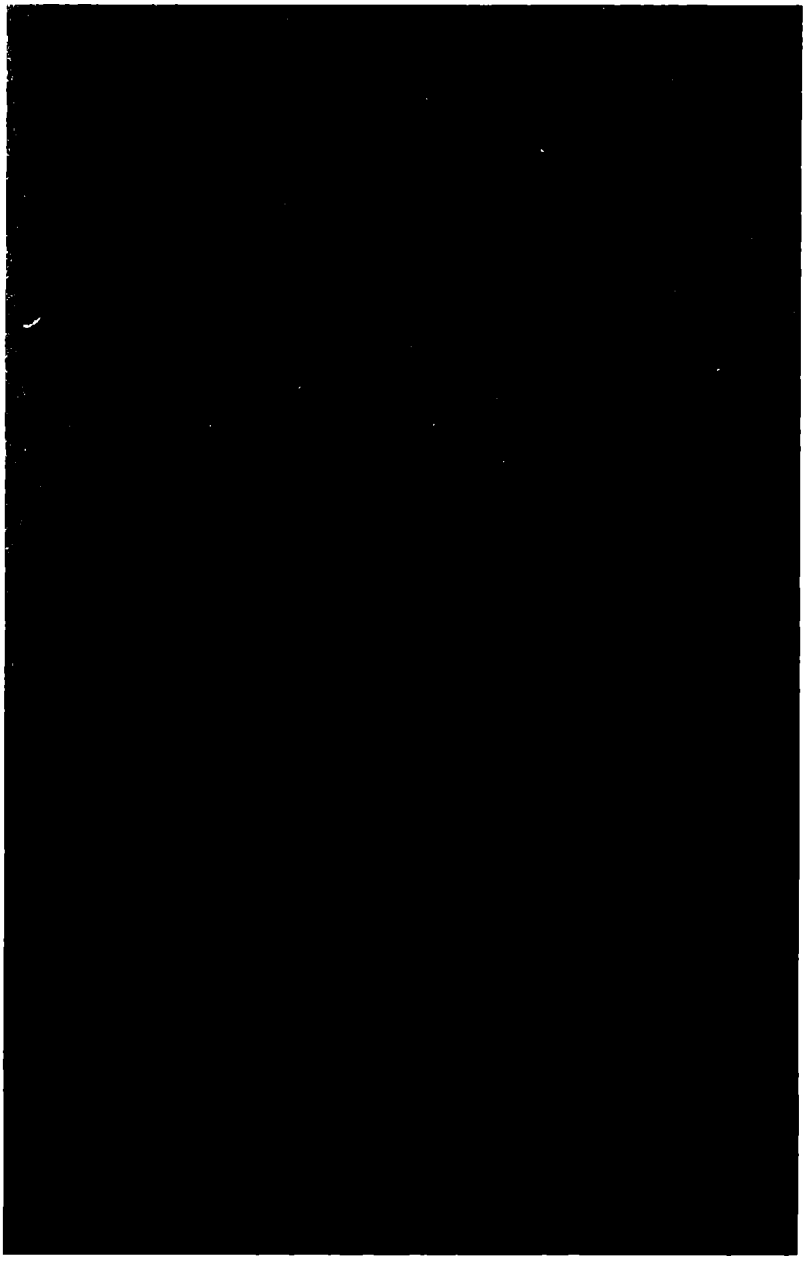

١

تنظر أمي إلى الطَّاولة، في الدَّور الأول في غرفة الطَّعام، نحو الملصق الورقي الأبيض الكبير الذي وضعته هناك، تحمل في يدها واضع علامات سميك الخط أسود اللون، لترسم خطوطاً سوداء سميكة تشكل مخطط عملنا المنزلي.

تقول: نحن الآن في فصل الصَّيف، لذا علينا جميعاً أداء الأعمال المنزلية: الكنس كهربائياً، الجزّ، استعمال منظف «كومِت»، ومنظف «ويندكس».

تعرض علينا ملصقات ذهبية عندما نؤدي عملنا المنزلي، وتترك فراغاً عندما لا نفعل.

تقول: نبدأ في الغد.

في اليوم التَّالي. أنا في الطَّابق الأعلى أصل المكنسة الكهربائية بالتَّيار الكهربائي، أقام أبي في الغرفة الصغيرة له مكتباً، وأمي طوال الوقت في الطَّابق السفلي، تنظف المرحاض والمرآة والمغسلة. لا أعرف أين إميليو، وهو لا يتجاوز عمره سبع سنوات، لذا تكلفه أمي بمهام زائفة، من مثل فصل الثِّياب الملونة عن الغسيل الأبيض في كومتين. أنا في التاسعة من عمري، كلفت بكنس المنزل بواسطة المكنسة الكهربائية. القوابس مضحكة في مكتب أبي، ثقبين صغيرين (ليس ثلاثة)، كلاهما متساويا الحجم، ليس أحدهما كبيراً والآخر صغيراً وواحد في الأسفل (مثل نهايات القابس الذي أمسك به)، لذا أنحني لأرى إذا كان ممكناً دخولها، سوف يتناسبا، هل يتناسبان، أنحني ثم أركع تماماً، أنحني وأنحني.

وحينئذ أعثر على المجلة. مجلة تحت خزانة الكتب. مجلة أراها تحت خزانة الكتب عندما أنحني وأنحني. يرتدي رجل معطفاً داكن اللون وقبعة داكنة اللون

في الصورة الأولى. رجل آخر عار وأعضاؤه التناسلية كبيرة الحجم.

يفتح الرجل الأول معطفه الدَّاكن اللون ويعرض أعضاءه التناسلية الكبيرة. يمس الرجل الآخر الرجل الأول ويقبله ويلعق أعضاءه ويضع أعضاءه في فمه وفي يديه وفي مؤخرته. أمي في الطابق السُّفلي ولا أعرف أين إميليو وأنا هنا، هنا معها، ها هي، أراها، إنها مجلة.

الليلة في السَّرير، أغمض عيني لكني أرى مياه المايونيز على وجهيهما، عنقيهما، خدودهما، ولسانيهما. أراهما يمسكان عضويهما ويلعقان. أرى عضلاتهما وحركاتهما. أرى شعرهما المسوَّى بإتقان، أسنانهما النَّاصعة البياض، فاهيهما المفتوحين على اتساعهما، عيونهما التي تعجبني. أرى ظهريهما يلمعان، وصدريهما، وسيقانهما، ومؤخرتيهما، يبدو عليهما السُّرور وهما يمسان بعضهما البعض. في داخل جسدي تخبط معدتي مراراً وتكراراً مثل ماء ينهمر على الصَّخور. أصبح عضوي قاسياً. لا يعجبني ويعجبني. أنقلب على بطني عندما يتصلب عضوي وأدس وجهي في شرشف سريري وأعصر وسادتي بين ساقي وأضغط أعضائي في المفرش. يمنحني شعوراً جيداً. أفكر بالرجلين وبأعضائهما ووجهيهما، يروقني ولا يروقني ويروقني ويبدو جيداً أن تلامس مفرش السَّرير.

٢

يدرس أبي اللغة الاسبانية في مدرسة «بيبدي» الثَّانوية الصيفية. في الصباح كان قد رحل بالفعل. جيد، أنا مسرور.

نقيم في مورنينج ساید، من جانب شارع دوفيلد، حيث بدلاً من الأسفلت الأسود حافظوا على الآجر الأحمر بلاطاً للشَّارع، مثل الأيام السَّالفة. تحبُّ أمي منزلنا، تردد ذلك طوال الوقت، عن مدى حبها لمنظر الآجر في الواجهة، الباب الأمامي الأحمر ذو القمة المدورة، النافذة الكبيرة المطلة على شرفتنا، تحب الحديقة التي تعتني بها، تحب كل تلك الزهور والـدَّوال، تحب شجرة القرانيا ذات الزهور

البيضاء التي زرعتها هي وأبي العام الفائت. تحب جيراننا الذين يسكنون في الجهة المقابلة من الشارع، ديف وريتشارد، يناديهما أبي، «جاي بور» والجميع يضحك، وهما يزرعان زهور التوليب في شهر تشرين الثاني، وهي تحبها في الربيع عندما تزهو بأعداد كثيرة وألوان عديدة.

تحب آجر الشَّارع الأحمر، الشعور الذي ينتابك وأنت تتناول الحبوب على الشُّرفة وتنظر إلى باحة ديف وريتشارد، متكئاً على كرسيِّك الأخضر أو تتأرجح على أرجوحة الشُّرفة، تلقي التحية على كل من جاريت ومولي وهما يركبان الدراجتين الهوائيتين، وعلى لوسي الصَّغيرة جداً ووالدة لوسي، ماري بيث، وهما تنزِّهان الكلبة إلسي. إنه منزل هزيل مبني من الآجر ذو اللونين الأحمر والأحمر الدَّاكن، إنه منزل جيِّد، إنه منزل عالٍ، وإميليو وأنا نتشارك غرفة النَّوم في الطابق الثَّالث ذو القمة المتداعية، غرفة نوم كما لو أنها منزلنا الصَّغير. من خلال النافذة في الأعلى هناك يمكنني رؤية «إيست ليبرتي» وحتى «الهايلاند بارك»، يمكنني رؤية متنزه هيث حيث نذهب حاملين معنا الصَّحن الطائر لنساعد لوسي عندما تذهب إلى هناك كي تنزه السي، يمكنني رؤية شارع «دوفيلد» من أوله حتى آخره حتى ينعطف نحو الأشجار، ويمكنني أن أرى الطريق كله تقريباً حتى «بيبدي» حيث يعمل أبي.

٣

أبي داكن البشرة. أبي قوي. يحدثني أبي بالإسبانية. شعر أبي أسود اللون وهو ذا جبهة مغضَّنة وصدر غليظ وساقين لحيمتين رياضيتين. يحملني أبي، يصارعني، يعلمني كرة القدم أيام السَّبت في متنزه هيث. ليلاً عندما يصحبني إلى السرير، يتنفس فوقي ويقبلني، يعانقني، تفوح منه رائحة دكنة بشرته الشبيهة بدكنة الأرض.

٤

في الصَّباحات بعد أن يغادر أبي، فقط عندما تنظِّف أمي أجزاء أخرى من المنزل

بعيداً عني، حينئذٍ أذهب الى المجلة. أنظر إلى الوجوه والأجساد. فينتصب عضوي ويزداد حجمه. إنه يجعلني أحس بدغدغة في ظهري داخل جلدي، حتى أكتافي، ونزولاً ليجعل مؤخرتي تشعر بشعور حسن، كما لو أني خائف، كما لو أني سعيد. ساقاي تنتفضان عالياً قرب عضوي. وجهي يبدو مثل سائل يملأ خدي. ذراعاي كما لو أنهما تتقوضان. فقط بعد ذهاب أبي إلى عمله في التدريس، وأمي تنظف المطبخ أو النوافذ أو حمام الطابق السُّفلي، عندئذٍ أذهب إلى مكتب أبي، إلى أسفل خزانة الكتب، أسحب المجلة بأصابعي. وعندما أنظر إلى المجلة سرعان ما يندفع الدم في أنحاء جسدي ما يجعل أذني تتوقفان عن سماع الأصوات.

ذات ليلة في منتصف فصل الصَّيف كنت في سريري أفكِّر بالرجال. إميليو في الأعلى نائم تقريباً، لكن ليس أنا. أمي وأبي في الطَّابق الأرضي يشاهدان التِّلفاز، لقد غادرا للتو من إيوائنا في أسرتنا، وأتسلل صاعداً سرير إميليو وعضوي صلب وكبير وأقول له هامساً: لا، ضع يديك هنا تحت، هكذا، مثل ذاك، شاهد أولاً كيف أفعل هناك، بتلك الطريقة. أقول: قبلني هنا وسوف أقبلك هناك أيضاً، لا، قبِّل مخرجاً لسانك. يعطيني لسانه وأعطيه لساني، وسريعاً أشعر بجسده يرتعش تماماً مثل ساقي اللتين ترتعشان، ويندُّ عنه صوت شبيه بصراخ ممزوج بالضَّحك. أقول له: صه. سوف يعودان إذا فعلت ذلك.

٥

إميليو وأنا في الطَّابق الأعلى في مكتب أبي حيث كنت أجلبه لأريه المجلة. لكن من غير الممكن أن أدله على مكانها. أولاً أستبقيه خارجاً في الرواق وأقول له إن هناك كلمة سر سحرية عليَّ أن أتلوها كي تظهر لنا المجلة. ثم أغلق الباب وأسحب المجلة من تحت خزانة الكتب وأنظر إليها وقضيبي الآن آخذ بالانتصاب، والشعور في فمي كما لو أني مستعد لتناول الحساء، رضابي شحيح تحت لساني كما لو أني متوتر وجائع وعطش في الوقت نفسه. ثم افتح الباب وهو هناك يقول: أين هي دعني أراها هل يمكنني أن أمسك بها؟ لكني أقول له: اصمت وإلا سوف أجعلها

تختفي. من ثم نركع على الأرض دون أن ننبس بكلمة وأنا أقلب الصَّفحات.

تدخل أمي لتقول إن لوسي وجاريت ومولي على الباب ينتظران مع الكلبة إلسي. هل أنهينا أعمالنا المنزلية، هل نرغب في الذَّهاب إلى متنزه هيث لنركض إلسي مع الضَّحن الطائر؟ لكن قبل أن أتمكن من فعل أي شيء ترى المجلة. أنظر خلفي، وإذ بها تتحدث عن جاريت ومولي ولوسي وإلسي، ومؤخرتي تتجمد في مكانها. هي ترتدي قفازيها وقبعة خاصة بالحديقة. قميصها أزرق فاتح اللون ومبلل على بطنها وخاصرتيها لأن جسدها متعرق. يتجمد وجهها ويخلو من المشاعر من ثم يتجمد كامل جسدها أيضاً. وأريد أن أبكي، لكني أحبس أنفاسي.

هي لا تنبس بكلمة. هي أيضاً لا تبدو غاضبة. تتقدم نحو المجلة، تلتقطها وتنظر إليها ثم تغلق الصَّفحات. وجهها وجسدها لا يفصحان بشيء. تتوجه إلى غرفة نومها وعندما تدخل إلى هناك تغلق الباب. أنا لا أزال أحبس أنفاسي وإميليو ينادي باسمها في ردنه، أمي، أمي، أمي، الصوت نفسه مراراً وتكراراً، لكن ها نحن هنا وحيدين في مكتب أبي، ولوسي وجاريت ومولي ينتظرون في الأسفل، يصرخون: سيرجيو! إميليو! هل أنتما قادمان أم ماذا؟

٦

بعض الليالي لا آتيه في سريره، بعض الليالي لا أفكر في الأمر أيضاً. لكن في ليالٍ أخرى، الليلة، الرجال في عقلي، على النحو الذي يعجبني، ألسنتهم، أسنانهم، ما تفصح به وجوههم، تعجبني، تجعل جسدي يتغير، أريد أن أغير جسدك، ومؤخرتي تخزني عبر ساقي وأضغط أعضائي في مفرش السَّرير. خلال وقت قصير، عندما يكون إميليو نائماً أذهب إلى سريره فيستيقظ ونخلع ملابس النوم ونفرك أعضاءنا في ظلمة تامة، وحدنا لا نصرخ، العقه ولا تلعقه، أصابعه وأصابعي تتحرك في كل مكان إلى لا أعرف ما يجعل جسدي برمته، يجعل كل شيء، كل شيء، مثل خفقات قلب تخرج من عيني.

ما هذا؟ لا أسأل بصوت مرتفع. أسأل فقط في معدتي.

٧

متنزه هيث مقتطع من الغابة، ميدان تبلغ مساحته ضعف مساحة ملعبي بيسبول وكرة قدم، مع ملعب للأطفال وملاعب للتنس من جهة وبقية الغابة على الجانب الآخر، غابات تأتي مباشرة إلى ملعب العشب، تلك الأشجار التي لا تفضي إلى أي مكان. في الصَّباح، في الصباح المتأخر الذي يستطيل حتى وقت الغداء، صباح السَّبت، صباح كرة القدم، ينظف أبي حنجرته، ربما رغب أن يقول لنا شيئاً، لكنه لا ينظر إلينا، ولا ينبس بكلمة. انزلقت على واقيات قصبة الساق والقدم (الجميع هادئ للغاية، الجميع يتحرك ببطء)، ومرة أخرى نظف أبي حنجرته مصدراً تلك الدمدمة.

كان أبي وأمي-طوال الصباح هذا الصَّباح، طوال الليل الليلة الماضية -يتشاجران، صرخات طويلة عالية في غرفة نومهما، الكلمات السيئة، عاهرة! لوطي! وأصوات لسان سمين يبصق، بالإضافة إلى صمت طويل طويل جداً من أبي (بعد الصُّراخ والبكاء) يرين صمت من وجهه، صمت يبتلعك، صمت يجعلك تشعر بأنك زلق وثقيل وحار وترغب بالذهاب، يخيفك، لا شيء صمت يقبض على معدتك. ثم، عاهرة! طوال الليل. في الصَّباح، عندما ذهب أبي ليستحم، تمتمت أمي بشيء، تمتمت، هل تريد عضوك؟ كان صمت أبي طويلاً ورهيباً، انغلقت عيناه، جبهته لم تأت بنأمة، وأمي واصلت الصراخ ثانية بعد ذلك.

بعد أن ارتدى ثيابه قال أبي لي ولإميليو: إلى هيث! وثلاثتنا نحن الرجال الفرسان مشينا إلى هيث. (المكسيكيين الوحيدين في بيتسبرغ، قال أبي قبل ذلك. لا يمكننا أن نجد طبقاً مكسيكياً جيداً في أي مكان. ماذا يفعل لحم البقر في طبق الانشيلادا خاصتي؟ كان يمزح هازاً رأسه). وها نحن هنا رجال مورنينج ساید المكسيكيين، رجال بيتسبرغ، يحمل أبي الكرة الصفراء والزرقاء والمخاريط ذات اللون الأخضر الفاتح، وأنا أمسك جميع حافظات النعال، وإميليو (الصَّغير الأسمر النَّحيل

الهادئ) يمسك واقيات الساق في حزمة إلى صدره. هبطنا شارع الآجر الأحمر إلى حيث يلتقي شارع دوفيلد بجادة مورنينج ساید وانعطفنا يساراً نحوه. عند إشارة الوقوف انعطفنا يمنة نحو هامبتون، وهبطنا التلة الصغيرة إلى هيث. ساقا أبي الرياضيتين سمراء داكنة وقوية العضلات تتحركان، تعلوان، تنزلان، تعلوان، وهو يمشي.

كان إميليو في المقدمة، رأسه الصغير والمدور، شعره الذي يخفق عندما يخطو. ومن حولي كانت بيتسبُرغ، الشوارع الضيقة المتعرجة في مورنينغ ساید، الأشجار الضَّخمة الخضراء على التلال، وشعرت بحرارة الصَّيف النَّدية الثقيلة على عنقي. وهبطنا التلة نحن الفرسان الثلاثة لنلعب كرة القدم. نظَّف أبي حنجرته ثانيةً، حنجرته مثل اسمنت رطب، وبعد هنيهة فعل ثانية. رفع بصره وأخفضه لم ينبس ببنت كلمة أخافني ذلك الصمت.

كنت أربط شرائط حذائي وكذلك إميليو، ونظَّف أبي حنجرته ثانية وهو ينظر إلي يحاول أن يقول: لا، أعني فعلياً القول)، والدتك تقول، قالت إنك وجدت-

٨

توقفت عن ربط شرائط حذائي. كان جسدي صخرة. تمثال، جبل. حبست أنفاسي قرصت إميليو، الذي كان جالساً قربي. قرصته لأمنعه عن الكلام. قرصته في ظهره حيث لا يمكن لأبي أن يرى. قرصته بأظافري وليس بأطراف أصابعي. انتفض إميليو بالكاد وأطبق فمه. حاول أبي ثانية أن يقول شيئاً وغرزت أظافري في إميليو، في جلده، وظل ساكناً يشعر بها.

يقول أبي تحت خزانة الكتب حيث-ومن ثم أبي يلبث صامتاً. لوقت طويل لم يكن هناك صوت وشعرت في داخلي بكل شيء يتحرك، كما لو أني أردت أن أقفز، كما لو أني كنت على شجرة في لعبة الغميضة، كان شيئاً لا أستطيع النطق باسمه، شعور كالجوع، والقلق، والفرح، كلها اجتمعت معاً ترفعني، بالإضافة إلى الرغبة

بالبكاء وأن تكون مغطى، تحرك دخان أبيض بارد ثقيل في معدتي وذراعي وقدمي ووجهي. أغمض أبي عينيه وقال: اللعنة! اربط حذاءك. أعطني الكرة.

٩

إميليو وأنا في العُلية، الليل حالك هنا، في مكان اختبائنا، تسمح النافذة المفتوحة بدخول ريح خفيفة، كانت أصابعي تمس وتتحرك على عضوه. لعقني هناك عندما طلبت منه ذلك، ولعقته هناك وأمسكته في فمي. يستلقي متمدداً على سريره بينما كنا نفعل هذا -كنا نفعل هذا، عيناه مفتوحتان، ثم مغمضتان، ثم مفتوحتان، تارة ينظر إلى السَّقف، وتارة إلي، فمه مغلق وهو يتنفس من أنفه. فرد ساقيه، قدميه، أصابع قدميه، بسط ذراعيه وأصابعه، تمدد وكان كل جزء من جسده مشدوداً، حرك عضوه في فمي وأنا ألعق، ولعقته إلى أن استرخى جسده من جديد.

١٠

في صباح الرابع من شهر تموز، كنا إميليو وأنا نهبط درج القبو، بهدوء شديد، نقول بصوت منخفض: لا، لا تمس تلك الدرجة، إنها الدرجة التي تصدر صوتاً، بينما ظل كل من أمي وأبي في الأعلى يتشاجران، صرخات وصخب شديد، كلمات سيئة وبكاء. في المرآب، كنا على دراجتينا، عند باب المرآب، نغلقه فلا يسمع أحد. كنت أفكر: اخرج قبل أن يسمعانا. قدنا في شارع دوفيلد إلى منزل جاريت وموللي، لكن لم يكن هناك أحد في البيت، قدنا إلى منزل لوسي ما من أحد هناك أيضاً. الرابع من شهر تموز يعني أن لا أحد يمكث في البيت. لذا خلال فترة قصيرة كنا في متنزه الهيث والتقينا بالرجل الذي يدعى توني و كان يرتدي قميصاً أبيض وكان كلبه بصحبته وصحن طائر، يركض مع الكلب في كل مكان تماماً كما كنا نفعل مع السي أحياناً.

١١

توني في القميص الأبيض وسروال رمادي يرشح عرقاً جوارب بيضاء، حذاء أصفر، ساقين وذراعين مشعرين، بشرة بيضاء، وشعر بني طويل. تقدَّم توني نحونا مع الصحن الطائر وقال: «مرحباً أنا توني. عيد سعيد! هل تودا مساعدتي مع لويس؟ هذا لويس كلبي».

وأعطاني توني الصَّحن الطائر الأزرق وجعلني أنا وإميليو نقذفه. جرى لويس مرة خلفه من ثم لم يجر خلفنا بل تحت شجرة عند حافة الملعب، وضحك توني وقال كلب لعين هو لا يجلبه دوماً.

قال توني: تعجبني دراجتيكما، وقال توني: أنظرا كم يمكنني أن أقذفها بعيداً!

ورمى الصحن الطائر حتى آخر ملعب كرة القدم.

قال توني: هل أنتما عائدان الليلة من أجل الألعاب النارية؟

قلنا له إن أمي وأبي قالا إننا سنعود لكن لا نعرف الآن.

سأل توني إميليو وأنا هل تظنان أن في وسعكما أن تركضا بسرعة لويس؟

نادينا لويس وقال توني هيا! وإميليو ولويس وأنا ركضنا عبر الملعب وكسب لويس.

قال توني لنرسل لويس في مطاردة، وتوني رمى الصحن الطائر في الغابة الصغيرة، تلك الأشجار، تلك الأشجار، وقال توني: لويس! لويس! اذهب وهاتها، يا فتى!

لكن لويس لم يذهب.

هيا تقدم، لويس! هيا يا فتى!

لكن لويس لم يتحرك. سأل توني إذا كنا نرغب بمساعدته في البحث عن الصحن

الطائر.

سألت: ماذا عن اللبلاب السام؟

ضحك توني وقال: سوف أحملك إذا ما رأينا أيا منه. لنمض!

١٢

احتشدت الغابة الصغيرة خلف متنزه هيث من حولنا، وإذا نظرت عالياً عبر الأشجار، ترى الأبيض والأزرق والأصفر، أشكال وألوان ضوء النهار، وترى قمم الأشجار الخضراء في الريح مثل أصابع تنغلق معاً. كل أنواع الأصوات، صخب قليل، أحذيتنا تقرقش على الأرض، لويس يتشمم هنا وهناك، طيور تتحرك، سناجب تزحف، وبعيداً أصوات الناس في باحاتهم الخلفية ودروبهم، تأتي إلى مسامعي. ذهب لويس ليستنشق المخدرات بينما أرانا توني أعضاءه، يمس عضوه فيكبر، إنه يتحرك نحو الأعلى، كبيراً مثل الرجال في المجلة فيما عدا أنه مشعر وله رائحة. طلب مني أن أمسه وفعلت طلب أن أداعبه وفعلت طلب مني ومن إميليو أن نقبله وفعلنا. استند على شجرة وإميليو وأنا قبلنا عضوه وقال الآن العقاه وفعلنا.

حتى ولو أني لم أرد ذلك، انتصب عضوي. قال توني: افتح فمك أكثر، استعمل لسانك وأعجبني ولم يعجبني. قال توني: أنا سوف ولم ينه كلماته. وقال: أنت... وتوقف عن القول ثانية. كانت عيناي مفتوحتين، كانت يداي تمسان عضوه أنفاسي لهثت بين اللعقات كان عضوي قاسياً جداً ومعدتي تحترق خائف سعيد تصبح حجراً ثقيلاً كبيراً لا يمكن لأحد أن يجده مدفوناً تحت الأرض.

١٣

لكن في الليل، أبي وأمي وإميليو وأنا جمعنا اللحاف، ثلاث أو أربع وسائد، وسلة مليئة بالوجبات الخفيفة، أمي وأبي صامتين، يقفان قرب بعضهما البعض، والتقينا بالجميع أمام منزلنا، جاريت ومولي ووالديهما، لوسي وماري بيث والسي، كل

يحمل أغطيته ووسائده ووجباته الخفيفة، الجميع يقول: عيد سعيد! ونسير إلى هيث لنشاهد الألعاب النارية، صاخبة ومضيئة وكبيرة عندما تنطلق، تملأ الظلمة، انفجار! بوم! امتلأ متنزه هيث بالناس، بأغطيتهم وكراسيهم، كشافاتهم وضحكهم، أصواتهم وحركاتهم من كل نوع، هؤلاء الناس في كل مكان في الميدان، نساء ورجال وأولاد، في كل مكان عيون الجميع تنظر عاليا-يمكنك أن تراهم عندما تومض أضواء الألعاب النارية.

بعيداً على الجانب الآخر من الميدان أرى توني ولويس، يرفع توني بصره أيضاً، لويس جالس قربه، خائف من الانفجار، بوم! يرتدي توني القميص الأبيض نفسه، لكن الآن سروالاً قصيراً أحمر اللون بدلاً من الرمادي-هو لا يراني أراقبه، أشير إليه وأدل إميليو.

في الليل، ونحن في أسرتنا، نسمع أصوات ألعاب نارية عبر بيتسبرغ، نسمع أولاداً يجرون ويصيحون، نسمعهم يطاردون ويروون النكات، نسمع صوت انفجار! بوم! أسمع صوت التلفاز في الطابق الأرضي وأسمع أمي وأبي يتحدثان بصوت مرتفع لكن ليس هو بالصراخ. ظلت عيناي مفتوحتين وقتاً طويلاً وأرى توني في دماغي أراه يخلع سرواله أرى الشعر على ساقيه مثل ألف سلك أسود أرى كيف يبتسم ويقول تعال سأريك وأرى هؤلاء الرجال في المجلة وإميليو و-ما الذي أعرفه؟ أعرف أني لا أريد أن أقول: إنه يعجبني.

أعرف أنه يبدو غريباً ومخيفاً القول: أريدَ المزيد. وأعرف أني خائف عندما أشعر بالسعادة. ما الذي أعرفه؟ أعرف عن الظلمة، وأحب الظلمة، أحب كيف تحيط بي. أعرف أني أحب أن أغير الأجساد، وكيف يغير الرجال جسدي، أحب كيف أتحرك قرب إميليو لأجعل جسده مثل جسدي، برفق في الظلمة، أشعر بداية بالخجل، وبعد وقت طويل ولم نزل لم ننبس بكلمة، فقط نتنفس ونخاف ونتلامس. ترتفع معدتي تسقط سوف ترتفع ثانية وفخذاي سوف يتقدان وكل مكان في جسدي سوف يمتلئ وماذا ماذا تاليا ما الذي يأتي بعد ذلك؟ سوف أغطيه

وأرغب به وأنشد أن أمسه في كل مكان.

في البوينا فيستا

هيلاري ماسترز

انتقل هيلاري ماسترز إلى «ميكسيكان وور ستريتس»، بيتسبرغ عام ١٩٨٤ عندما انضم إلى برنامج الكتابة في جامعة كارنيجي ميلون. نشرت روايته العاشرة «بريد» عام ٢٠١١. في عام ٢٠٠٣ منحت الأكاديمية الأميركية للفنون والرسائل عمله جائزتها الأدبية. مؤخراً، منحته جمعية الناشرين المستقلين ميداليتها البرونزية عن القصة القصيرة الأدبية.

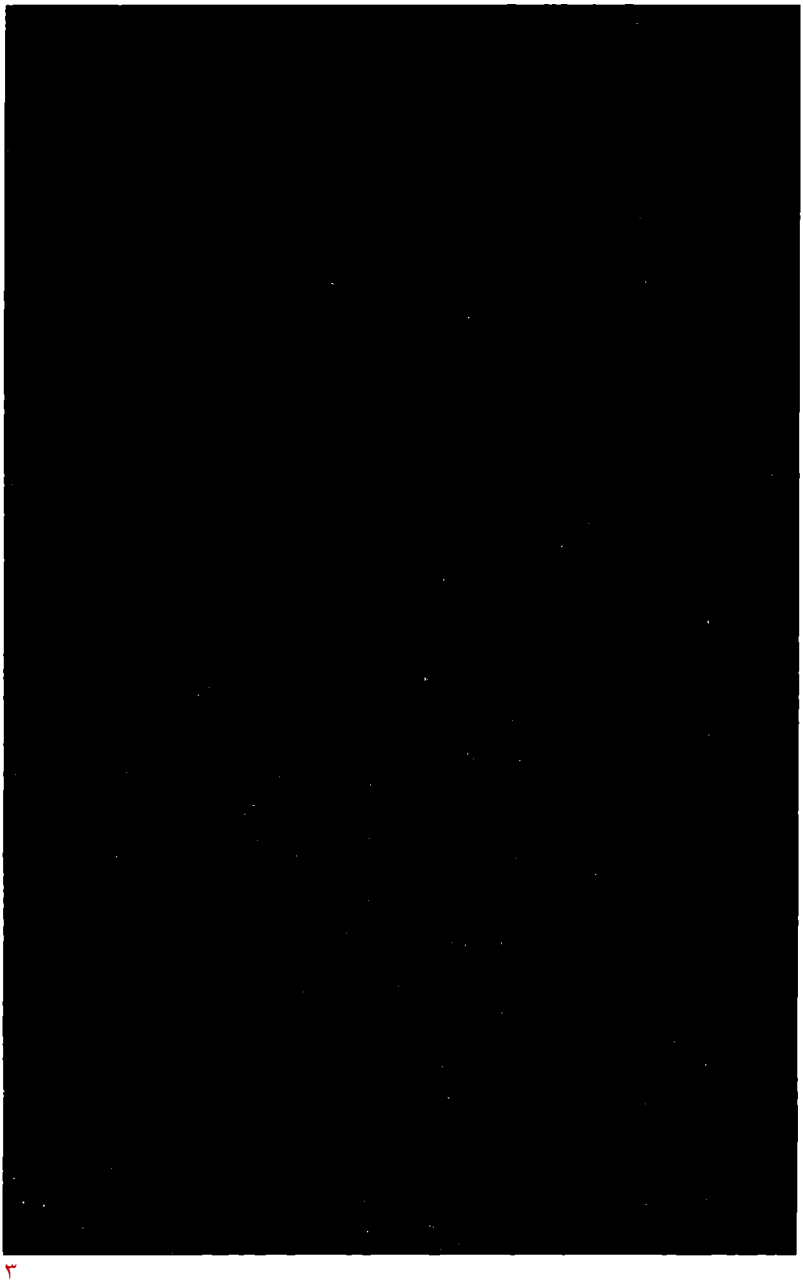

في حانة البوينا فيستا، كان لدينا ما يمكن تسميته بنادٍ خاص تقريباً، ومالكوم يراقب الناس في الشَّارع من خلال ستائر النافذة الأمامية، أناس سود البشرة ومن هذا القبيل ممن ليسوا صالحين تماماً. هم لن يسعدهم التَّواجد في المكان.

قد يقول مالكوم: «هنا هيا، بسرعة، اقفل الباب».

وجيري وارنر قد يضع مشروب الـ «رولينغ روك» ويقفل الباب الرئيسي بالمزلاج، وفقط نجلس صامتين، فقط الضَّحك الزائف في البرنامج التلفزيوني يتواصل، ونحن نصغي إلى وقع أقدام العابرين في الخارج. هم لم يتوقفوا يوماً وتمكَّنا من سماعهم وهم يسيرون في سبيلهم، أخمِّن أن سلوك مالكولم كان معروفاً في الحي، ونحن لم نعرف عنه الكثير.

اتخذ جيري دوماً له مجلساً من مقعد بحذاءَ الباب، فإذا نال منه السُّعال تمكَّن من الخروج سريعاً ليصلح من أمره فلا يزعجنا. أخبروه في برنامج رعاية المحاربين القدماء إن رئتيه كانتا معجزتين، بالنظر إلى ما عاناه عندما كان في فيتنام، لكنه قد يستغرق لحظات يسعل سعالاً متقطعاً كما لو أنه يكاد يتمزق إرباً. وكان دوماً اعتذارياً للغاية، كيف يمكنك أن تكون ساخطاً عليه، وإلى جانب أن كل من يشتكي سيتوجب عليه أن يجيب على واحد أو اثنين منا، نحن الذين كنا أيضاً جنود تلك الحرب.

لكن على كل حال ما كان هذا ليحدث، لأنه كما قلت، كان مكاناً مريحاً وكان كل ما نحتاجه في متناول أيدينا. البراد مملوء بالبيرة، قد يضع مالكولم فيه أيضاً بعض من شراب «الآي سي لايت» لكي يوفر لنا إمكانية الاختيار، ورقاقات البطاطس المقلية المختلفة في صررها الزاهية الألوان أمام المرآة منحت الدفء. كان لغزاً

بالنسبة لي معرفة من أكل من مخلل البيض، لأن عدد البيضات الأربع بدا أنه لم ينقص يوماً وظلت رابضة في عصارتها في قعر الإناء. أحياناً، عندما يفتح مالكولم البراد ليخدم واحداً منا، ذكرتني علب البيرة كلها تلك المرتبة بأناقة بقنابل تنتظر أن تحمل في مخازن المدفعية. وكان لديه جهاز ميكروويف لتسخين أكياس الحساء المجفف الذي يمزجه بالماء عند الطلب. كان نودل الدجاج المفضل لدينا ولذا لم ينقصنا إلا القليل جداً.

كان أيضاً من قبيل المأوى للبعض منا، هؤلاء الذين لم يتعلموا تماماً التآلف مع الحي، عندما شرع أناس جدد بترميم بعض البيوت القديمة، أحياناً يغيرون الكسوة الداخلية بكاملها ويركبوا تجهيزات فاخرة حقاً، ويعيدون طلاء الواجهات، أحجار جديدة في الشُّرفات-وكان لي يد في بعض منها. يمكنك بالكاد التعرف على الشارع وتكاد تضيع في طريق العودة إلى البيت من البوينا فيستا، كما لو أن المنازل تغيرت ربما أثناء احتساءنا البيرة في البار. لقد التقيت بعضاً من هؤلاء القادمون الجدد، كلهم شبان تلمع عيونهم وهم يدخلون البار وقد يقول لهم مالكولم ما كان في المتناول، لذا هم لم يطيلوا البقاء ولم يعودوا أبداً.

لكن الإصغاء إلى مالكولم أكثر ما كان يثيرنا، وهو يحدثنا عن عمته المسنة سالي وكلبتها. عاشت السَّيدة العجوز في «تروي هيل» لكنها تابعت أخبار الحي لأنه لا يزال لديها أقارب يعيشون في أعلى الشَّارع. سكنت عائلتها في المنطقة منذ أن عرفت باسم «اليغني سيتي»، وفي الواقع لا تزال تملك المبنى الذي احتله البار والمنزل المجاور الذي أجَّرته لعائلة ثرية. ذلك دوماً أربك مالكولم، قد يواصل الحديث لساعة عن كيف كان المنزل المجاور يؤجر مجاناً بالفعل إلى تلك العائلة المحظوظة، في حين كان ليحصل على أضعاف المبلغ إذا كان له أن يعبر عن رأيه في الموضوع. أيضاً سكن في الطابق الذي يعلو البار، ومستأجري المنزل المجاور كانوا يثيرون الضجة وابنتهم تلك التي تجلب الرجال للجلوس على شرفتها طوال الوقت. كان رثاً لا شك في ذلك، وأخذ يشوه منظر الحي.

قال لنا إنه قال ذلك للسيدة المسنة: «انظري إلى تلك الكلبة. تلك الكلبة ميتة يا عمة سالي»، راجياً أن تسقط الفكرة على نفسها. كانت قريبة من الكلبة أكثر من الجميع. زارها كل يوم أحد، لكن لم يكن الأمر مجرد وازع اجتماعي بل جاء ليتحقق من تنفسها إذ أنها كانت موصولة إلى أوكسجين.

قال: «أسألها أحياناً، هل كل شيء موصول على نحو صائب؟ أحياناً أدير صماماً حتى تجحظ عيناها. لا يمكن أن يكون أطول بكثير»، يقول ذلك كما لو أنه كان يحبس أنفاسه تحت الماء ثم يصب لنفسه كأس «اولد اوفرهولت» الذي احتفظ به غالباً لنفسه. لم تكن الويسكي المشروب الأثير عند أي منا، لما كان ثمن كأس واحد تقريباً يعادل ثمن ثلاث كؤوس من الروكس، من ثم وقت ارتشافها كان قصيراً.

كان قد جلب لعمته هدايا صغيرة سبق أن جمعها بطريقة ما في البار. مرة جلب لها طرداً من هلام الفواكه الذي كان منتجاً دعائياً من أحد موزعي البيرة، لكنه لم ينجح إذ علق في طقم أسنانها وبصعوبة إلى حد ما فتحت فمها. ذلك كان أمراً مضحكاً للغاية.

قال مالكولم: «يا له من منظر، أقول لكم»، ما جعلنا نستمتع أكثر. تصور أنه كان أقرب أنسبائها ولم يكن لديها من تورثه ممتلكاتها لذا لم لا يكون هو؟ لذا كان يعتني بنظافته أيام الآحاد، ربما يتناول كيس فستق من خلف البار ويتوجه إلى تروي هيل ليجلس معها لمشاهدة البرامج التلفزيونية التي تشاهدها. كانت تفضل برنامج الساعة المسيحية، يتبعه برنامج عن تحف عائلية يأتون بأناس لتقييمها، وقد يقول مالكولم إنه يجلس أثناء عرض كل تلك البرامج مطلقاً التعليقات في أذنها السليمة محاولاً تفادي الكلبة. علق الفستق في أسنانها.

كانت الكلبة تدعى «ميتزي» وبدت مثل رأس المسحة التي ربما مسحت كل أرضيات جيش الخلاص. وكان واضحاً أنها لم تحب مالكولم، حتى أنها تبولت على حذائه يوم الأحد أثناء عرض برنامج السَّاعة المسيحية. لم يتمكن من فهم العلاقة التي تربطها بالعمة سالي، كان قد أخبرنا كيف قد تعانق الحيوان الصغير حتى

تعطيها نفحة من الاوكسجين بين الحين والآخر كما لو أنها قد توطد العلاقة بينهما. قال ذات أصيل على نحو بهيج: «لكني لا أهتم. معمودية صغيرة بين الحين والآخر تفيد الرُّوح». وضع قدماً على المغسلة خلف البار مثل طالب رياضي في المرحلة الثانوية يتصرف مثل شاب عادي. «عندما اذهب إلى مدينة «بوكا راتون» في كل تلك الشَّمس المشرقة، لن أهتم إذا ما بالت تلك الكلبة الصَّغيرة الهجينة عليَّ. سوف أترككم جميعاً، أيها المتبطلون، خلفي».

إذن كان لدى مالكولم خططه بعد وفاة العمة سالي. كان ليبيع البار ويطرد الأثرياء، ويبيع ذلك المنزل أيضاً. كان من الصَّعب ألا تسرَّ من أجله بشأن مستقبله، كان قد أصبح متحمساً للغاية بشأن تطلعاته، حتى أن قدمه على المغسلة قد تأخذ بالاهتزاز، ونسي، مرة أو اثنتين، الاتصال بمصنع البيرة.

لكن متى يمكن حدوث هذا اليُمن؟ كان ليذهب كل يوم أحد ويسلم عليها وسوف تكون مزودة بأنابيبها المختلفة والاوكسجين يضخ فيها كما لو أنها عربة بعشر عجلات تذهب غرباً. قد تكون «ميتزي» تعدو في أرجاء المكان، مثيرة الغبار، مخلوقة جُنت بتطلعاتها الخاصة، والبرامج تنعر على التلفاز.

قال مالكولم: «حسناً، لم يكن مكاناً لرجل عاقل. واختبار لصبره».

تعاطف البعض منا واستمتعنا بالمشهد عندما رواه. ثم انتهى فجأة.

أشار التقرير في صحيفة «البوست جازيت» إلى الأوكسجين، وإلى أن شرارة من نوع ما أضرمت الانفجار. كان هناك تخمين أن «ميتزي» ربما تسببت بفك وصلة كهربائية أثناء لعبها مع العمة سالي، وأشار مالكولم في تقريره للمحققين إلى أن الكلبة كانت نشطة بشكل خاص أثناء زيارته ذلك الأحد، تجري من حول صاحبتها كما لو أنها كانت حلية في حديقة. قال إنه لابد خرج من المنزل في الوقت المناسب، لأنه كان على الدرج الأمامي عندما حدث الانفجار وانخلعت إحدى النوافذ في غرفة نومها من مكانها تماماً، وعندما عاد إلى الداخل لم يكن هناك ما يمكنه فعله.

أخرج ميتزي من تحت السرير.

قال لنا: «لن أحاول أن أشرح ما رأيته، إنه مشهد لن أنساه».

هز رأسه ونظر إلى تقويم «الباريتس» المعلق على المرآة.

وهكذا كان هناك الكثير من الحديث والاستقصاء، ملحوظة خاصة في صحيفة «الجازيت بوست» عن إنقاذ مالكولم للكلبة. كان قد استولى عليها باعتباره مخلصها الوحيد وكان بطلاً إلى حد ما. طرح عليه رجال الشرطة الكثير من الأسئلة وحتى أنهم استجوبوا بعضاً منا-لا سيما جيري.

فيما يبدو، أخبرهم شخص ما إن مالكولم تحدَّث مع جيري كثيراً عن الانفجار في فيتنام الذي أعطب رئتيه. بالتأكيد، جميعنا عرفنا عن ذلك-كثيراً ما تحدَّث عنه جيري وأحياناً بإفراط. في هذه الأثناء، اتخذت ميتزي لها من البوينا فيستا مسكناً، وكانت شيئاً صغيراً ظريفاً إذ تقف على قائمتيها الخلفيتين لتحييك عندما تدخل البار، تضرب الهواء ببراثنها، تلمع عيناها الصغيرتان داخل كل ذلك الفراء المنفوش. كان كما لو أنها دوماً انتمت إلى البار، إلينا. في هذه الأثناء كان مالكولم منشغلاً في استشارة المحامين حول ممتلكات العمَّة سالي-كان قد وافانا بتقارير كاملة. لابد أنه أمضى العديد من الأيام في وسط البلدة. وثابر رجال الشُّرطة على المجيء أيضاً، إلى أن سكتوا أخيراً ووقَّع مالكولم الكثير من الأوراق.

قال لنا ذات أصيل: «هنا البطاقة إلى بوكا راتون»، ممسكاً بعدد من الوثائق القانونية التي طلب مني أن أشهد عليها، وهذا ما فعلته بسرور. لم أقرأها، ليس من طبعي ذلك النوع من الهراء، وأعد جولة من أجلنا لنحتفل.

ثم أخذ طقم كامل من محامين جدد وموظفين رسميين بالظهور، ينظرون إلى البار ويأخذون القياسات، ويتحدثون إلى العائلة التي تسكن بالجوار. تبين أن العمة سالي تركت كل ما تملك لذلك البرنامج التلفزيوني، «السَّاعة المسيحية».

طردوا العائلة الثرية المجاورة وأعلنوا عن رغبتهم في بيع البيت. تم تلقفه سريعاً من قبل زوج بديا مثل أناس خارجين من عبوة حبوب-مع طفل يبلغ من العمر حوالي السنتين. وهما بدورهما كلفا محامين ليباشروا العمل على إغلاق المكان، قائلين إن البوينا فيستا كان «أذى عام». أتى كل شيء مثل أخبار لنا، لأننا لم نكن نرفع أصواتنا ولم نكن متمردين، ومعظمنا كنا جنوداً سابقين. خلال هذا كله حافظ مالكولم على رباطة جأشه، مثل فتى على سفينة غارقة، لكني أظن أن الضَّربة القاضية حدثت عندما دخلت هذه الثلة من الناس ذات أصيل، وشرعوا يقيسون البار ومؤخرة المكان حيث خططوا لإقامة المطبخ. طلب إلينا جميعنا أن نجد مكان جديداً نذهب إليه، بما فينا مالكولم الذي جمع متاعه أيضاً.

احتفظت بميتزي، وكل منا يصنع رفقة جيدة للغاية لبعضنا بعضاً.

العودة إلى الوطن

كاثرين ميلر هينز

كاثرين ميلر هاينس هي مؤلفة سلسلتين غامضتين عن الحرب العالمية الثانية: سلسلة الشتاء الزهري عن هاربر كولينز وسلسلة للفتيان عن دار نشر رورينج بروك برس، الأولى بينهما، الفتاة قاتلة صدرت عام ٢٠١١. في الأصل من تكساس، انتقلت إلى بيتسبرغ عام ١٩٩٤ وفي الحال أصبحت تحب البطاطا المقلية وسلطة الكرنب في شطائرها عاشت في حي ويلكسنبرغ آخر أربع عشرة سنة.

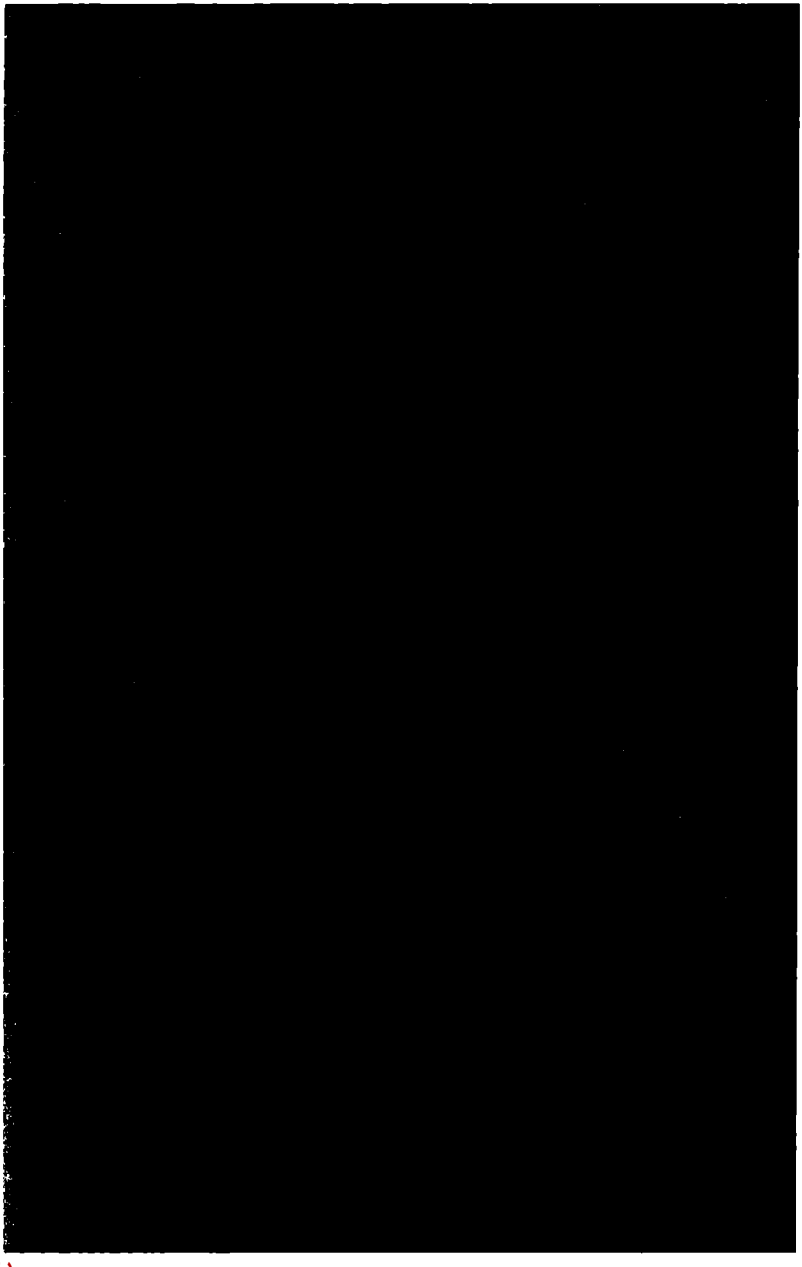

توقَّف على الرَّصيف في محطة قطار بنسلفانيا، وسمع فرقة المحاربين السابقين في الحروب الخارجية، تعزف النَّشيد الوطني. أمهات وآباء، أطفال وزوجات، خرجوا لرؤية الجنود العائدين. أنعم النَّظر في الحشد بحثاً عن لورين، لكن جمع البشر المحتشد على الرصيف لم يتضمنها. شعر بالإحباط. كان قد حاول إقناع نفسه بأنها آتية.

مرَّ الجنود عبر المحطة واحداً تلو الآخر ونحو شارع «هاي»، قوطعت أصوات الفرقة الموسيقية بمزيج من أصوات متنافرة جديدة: أبواق تزمِّر، أجراس كنائس تطنطن، صفَّارات من المصانع والقاطرات. كانت البهجة تعم أنحاء المكان من حوله.

يا إلهي كم تغيرت النِّساء-التنانير القصيرة، السِّيقان العارية الملساء، ما بدا له تبرجاً مبهرجاً، من ثم الثقة التي استولينَ بها على الشَّوارع. هي تغيرت الآن أيضاً، عرف ذلك من رسائلها.

وهي ليست هنا-

غير أنَّه انتظر رغم ما عرفه. تخلَّف عن الركب قرب مدخل المحطة، محاولاً تفادي دفق النَّاس الذين رغبوا بدفعه نحو الجهة الأخرى من شارع «هاي» إلى مبنى البلدية الجديد. كانت الرطوبة عارمة-زيه الرسمي مبلل الآن. زحفت السَّاعة المعلقة أعلى محطة القطار نحو النِّصف. من موقعه الممتاز تمكَّن من رؤية عربات الترام عندما تتبعت الخط الأصفر من وإلى جادة «بين». توقفت وأنزلت مسافريها. لم تكن لورين بينهم.

بعد ساعة من الانتظار، شرع بصعود شارع «روس»، يتبع درب البيت المألوف. عبر مكتب البريد، «بوكس جريل»، وكنيسة الميثوديين في جادة روس، حيث عُمد

وتزوَّج. عبر تحت ظلال مبنى «الكارل» حيث تدفق الناس منه دخولاً وخروجاً، في طريقهم من وإلى عيادة طبيب. حاول أن يعد نفسه للمواجهة بقلب يخفق بعنف.

اصطفت أشجار البلوط على امتداد الطريق، تحمي منازل الكوين آن ورومانسك من قيظ شمس الصَّيف، كان الآن متجهاً نحو منزل مشابه لها. لقد اشترياه قبل بضعة شهور من استدعاءه، ظناً منهما أنه المكان المثالي لتأسيس عائلة. خُطط-أوه، لقد وضعوها. كان يفترض به الحصول على وظيفة في ويستينغهاوس، تماماً مثل والده. كانا قد اشتريا سيارة جديدة من «باومان شفروليه». وكان لينضم إلى منظمة «الأيائل» ويتطوع لتدريب إحدى فرق كرة القدم التي تلعب على الرمل. قالت لورين إنها تطوعت للعمل في كنيستهم وجمعية الشابات المسيحيات (كان يمر بمبناهم الآن). قد يرسلا أطفالهما عندما يولدون، إلى فرقة الكشافة والفرقة الموسيقية للفتية.

ما من واحدة من تلك الخطط افترضت الحرب سلفاً، أو رجال لم يذهبوا إلى الحرب.

بكت لورين يوم وصول البرقية. بكت على كل شيء، سعيد أو حزين، ممنوح، لكنها أحبته حينها. أو هذا ما اعتقده.

لم يعرف المزيد.

كانت حقيبته ثقيلة. أراد أن يتوقف، لكنه واصل السَّير. سار أمامه زوج يداً بيد، سترة الرجل الزرقاء مقذوفة على كتفه كيفما اتفق. التفت الرجل قليلاً وأومأ له ايماءة مهذَّبة قبل أن يعود إلى رفيقته. كانت المرأة تتحدث، تطلع الرجل على كل ما فاته وكل ما قد يفعلانه الآن وقد عاد إلى البيت سليماً. أصغى الرجل بصمت، ترتسم على وجهه ابتسامة فضولية.

آلمته ذراعه حيث غضَّن جرح نجم عن إصابته بطلق ناري الجلد، تغضناً دائماً. توقف ودلَّك العضلة، ثم أدار كتفه مثل قاذف على المتراس. كان هشاً قبل الحرب، الآن كان ضامراً وقوياً، وجهه مغضن على نحو دائم بما رآه، وتمنى لو في وسعه أن يمحوه من عقله.

لم يتغيَّر الحي إلا قليلاً جداً خلال أربع سنوات. كان هناك حلى رخيصة عن حب الوطن أينما يمم وجهه: علم الولايات المتحدة يخفق على الأعمدة، أعلام مرصَّعة بالنجوم تومض من النوافذ، زهور مختارة بسبب ألوانها الأحمر والأبيض والأزرق.

كان بطلاً. لقد قتل أربعة من جنود العدو. وربما أكثر. واكتشف أنه كان قاسياً.

نظرت إليه امرأة تعتني بحديقتها وابتسمت قائلة: «مرحباً بعودتك». حاول جاهداً أن يتذكر اسمها. السيدة باركر؟ بورتر؟ كانت تملك كلباً صغيراً يجن جنونه كلما أمطرت. كان قد اتصل بالمسؤول عن الكلاب بسبب البول المتجمع على شرفته الأمامية. الآن كانت المرأة تبتسم. بداية جديدة، بفضل المجهولية التي وفرتها القوات المسلحة الأميركية.

رسائل-يحاول أن يكون ربَّ المنزل مهما كان بعيداً. لا تنسي أن تفتحي صِّمام تنظيم الهواء في الفرن. لا يمكن أن تدعي أسبوعاً يمر دون أن تشغلي السيارة، وإلا سوف يختنق المحرك، لاسيَّما في الشتاء. لا تدفعي الاشتراك إذا كنت لن تقرئي الصَّحيفة يومياً. قولي لبائع الحليب أن يقلل الكمية إلى نصف ليتر. يظن الآن أنها كرهت هذه الرسائل.

كتبت تطلب منه التحدث عن نفسه. لم يفعل. لم يعرف ماذا يقول عن حصص الطعام المخصصة للجنود أو عن الرجال الذين صادقهم، ممن يحملون ألقاباً تهكمية مثل باج أو هيكوري.

واصل السَّير وأحس بهبوط في معدته عندما مرَّ ببيت عائلة روجر كليفلاند.

لم تكن مضطرة لذكر ذلك في الرسائل. هو عرف فقط، كما تعرف أمراً مثل ذلك. كان هو وروجر صديقين حميمين، إلى أن تم استدعاؤه وأعفي روجر من الخدمة العسكرية.

انعطف عند الناصية. لم يكن يفصله عن البيت سوى شارعين. ظلت صورة منزله نضرة في عقله، كل شيء عنه، كل بوصة منه. كتبت لورين له عنه، أشياء كانت تفعلها للمنزل والفناء. عزقت الأرض بمفردها، حولت الفناء إلى بستان لزراعة الخضراوات لتساعد في الحرب. المحاولة الأولى لم تنجح. جرف المطر الغزير البذار. بدأت ثانية بعد أسبوع ومساعيها كوفئت بالخس، الجزر، الطماطم، والخيار.

واصل صعود الشَّارع متفاجئاً أن يجد نفسه الآن يشق الطريق شديد التحدر بسهولة، وقد كان فيما مضى يقطع أنفاسه. كانت أجزاء من الحي رثة الهيئة - حسناً، الرجال لم يكونوا هناك ليصلحوا الأشياء-كانت شرفات بعض المنازل بحاجة ماسَّة إلى الطلاء، اختنقت الأرصفة بالأعشاب الضَّارة، سقوف احتاجت إلى ألواح جديدة بدلاً من تلك التي طيرتها الرياح العاصفة بداية الصَّيف.

عرف أن لورين طلت المنزل من الدَّاخل أيضاً. أرته ما اختارته بدهن «بريد النَّصر» بفراش مبللة، محولة الورق القاسي الصَّادر عن الحكومة إلى ورق رسائل ملون بلون النعناع الأخضر (غرفة الجلوس)، وأصفر شمسي (المطبخ). قالت إنها قامت بالعمل بنفسها، لم يصدق ذلك. الأخبار ثقبت معدته.

كتب: لا تفعلي المزيد. انتظري عودتي إلى البيت.

شرحت له في رسالة جوابية أن البقاء في البيت، وكونها زوجة دون زوج تستند عليه، كانا يقودانها إلى الجنون. سألت في رسالة أخرى: هل تفتقدني؟ حلمت الليلة الماضية أنك كنت بصحبة امرأة أخرى، كانت ممرضة جميلة التقيتها في نادي الضباط.

في البداية أزعجته هذه الرسالة. ثم أدرك أن السؤال كان حقاً من قبيل التحذير أو السماح ربما، لأنها لم ترغب أن تفصح عما كان يجري معها.

لم تكن الممرضات فائقات الجمال من تجذب الرجال، بل المومسات. وبادئ الأمر لم يفعل، ثم فعل.

ازدادت رسائلها إيجازاً. خسر السَّيد «بالمر» شجرتي تفاح في العاصفة التي هبت الأسبوع الماضي. يوجد عش دبابير تحت أفاريز شرفتنا الأمامية. مرَّ بنا روجر. هو يعمل في مصنع الفولاذ الآن. طلب مني أن أبلغك تحياته.

كان عديم القوة من بعيد، لذا لعب لعبة الذَّنب. ربما يمكنك أن تحدِّثي روجر عن عش الدبابير، ويرى إذا كان في وسعه أن يعتني بأمره من أجلك، أكره أن أفكر أن فتاتي تلسعها الدبابير.

لم تأتِ الرسالة التالية على ذكر عش الدبابير. حدثته عن كيف كان يتوجب عليها الوقوف في طابور امتد على مسافة شارعين، إذا ما رغبت بشراء الزبدة من متجر كريغر. لم يعد متجر «ايسالي» يبيع اللحوم أيام الاثنين. صار كشك «توبرز» يعمل اثنتان وعشرين ساعة في اليوم الآن. سأحصل على عمل. جميع المصانع تشغل النساء.

كتب: لا تفعلي من فضلك، المصانع خطرة.

لفترة لم يستلم جواباً.

ثم: أنتَ على حق، بالتأكيد أنت محق. قال روجر الأمر نفسه. في الواقع، يقول إن النساء يدفع لهن بالكاد مقداراً صغيراً، لا شيء بالمقارنة مع ما يحصل عليه الرجال.

روجر كليفلاند. صديق تحول إلى عدو.

فتى تينسلي لم يجزّ العشب خلال الأسبوعين الماضيين. أخذ منظر منزلنا يبدو كما لو أنه مهجور. هل تظن أن عليَّ أن أسأل روجر إذا كان راغباً في جزه؟

مع دنو انتهاء مدته فيما وراء البحار، قلَّ عدد رسائلها إليه. أكد له صديق في فرقته العسكرية إنه كان شيء خبره كل رجل مع استطالة أمد الحرب-أصبح موطئ القدم الذي كان لهم في الوطن ضعيفاً. كان في الحرب مدة أطول من المدة التي عرف هو ولورين بعضهما البعض، تفوق مدة زواجهما بخمس مرات.

قال صديقه: «طلقها، لا تنظر إلى الوراء».

قال رجل آخر ضاحكاً: «أو اقتلها».

«لا، اقتله أياً من أخذ مكانك، اقتله». وذلك الرجل لم يكن يضحك.

وفيما هو يواصل صعود الشَّارع، لمح منزله ورأى المرج مشذباً وأنيقاً. عندما اقترب أكثر رأى أرض الشُّرفة مكنوسة وطلاءها حديث بما فيه الكفاية لتنعكس صورته عليه. لمعت النوافذ من تنظيف قريب العهد.

توقَّع إلى حد ما أن يرى اسم شخص آخر على صندوق البريد، كدليل على أن المكان لم يعد ملكاً له. لكن اسم «بوير» كان لا يزال هناك، مدهوناً بيده الثابتة خلال أيام من انتقالهما. وعندما رفع غطاء صندوق البريد، في الداخل حمل البريد اسمه، بعض الفواتير موجهة إليه، بطاقة بريدية منه. البطاقة التي أخبرها فيها على متن أي قطار سيصل إلى البيت.

أخرج بطاقته البريدية من صندوق البريد. للحظة، سكن قلبه. هي لم تكن قد رأتها، حتى هل يمكن أن تكون خارج البلدة؟ هل أخذت العمل في المصنع في النهاية؟

مد يده إلى أعلى إطار الباب ووجد مفتاحاً إضافياً كان يحتفظ به هناك دوماً،

زلقه داخل القفل وكان متفاجئاً أن يجد القفل الذي كان في السابق صلباً، يفتح بسهولة.

نادى وهو يخطو داخل المنزل: «مرحباً؟ لورين؟»

رمى كيسه على الأرض، ثم جره خلف الأريكة. استكشاف. تجول ينظر في المكان. شعر كما لو أنه متدخل. عدد اليوم السابق من صحيفة «بوست جازيت» مطوي على طاولة القهوة، الصفحة التي تحتوي على جدول برامج الراديو للأعلى. كان كوب هناك بجانبها، لا يزال مملوءاً حتى منتصفه بمزيج الهندباء البرية الفاتر الذي شربته لتبدأ يومها. على حافة الفنجان لطخ من آثار أحمر شفاه فاقع اللون.

في المطبخ تلمَّس إبريق القهوة. لا، بارد.

من خلال النافذة أعلى المغسلة، لمح الفناء الخلفي حيث كان المرج مشذباً حديثاً. كانت الحديقة ما تزال قوية.

على الطاولة الرسالة التي أرسلها معلناً أنه سيعود إلى اميركا قريباً. كان قد كتب لها تاريخ عودته على وجه التقريب في تلك الملاحظة ولورين وضعت ثلاث خطوط بقلم رصاص داكن.

غادر المطبخ وصعد الدرج، غير واثق مما قد يكون في انتظاره. كان الطَّابق الثاني نظيفاً مثل بقية المنزل. كان سرير غرفة الضيوف متشحاً بلحاف لم يسبق أن رآه. كان الحمام نظيفاً، فيما عدا شفرة موضوعة على المغسلة.

عرف. كان يعلم. لكن ماذا يفعل بشأنه؟

انفتح باب في الطابق السُّفلي. خلع حذاءه وزحف خارجاً من الغرفة نحو الرواق. استطاع من موقعه المواتي رؤية لورين تقف في الباب الأمامي، سيارة الأجرة التي أوصلتها تنطلق بعيداً عن الرصيف. حملت صندوقاً من البقالة،

وحقيبة مستحضرات تجميل استعملتها كلما ذهبا في رحلات ليلية. أغلقت الباب بوركها وتوجهت نحو المطبخ. قفز قلبه. أحبها، ولا يزال يحبها. يمكنه سماعها وهي تنتقل من غرفة إلى أخرى، تضع صندوق البقالة وحقيبتها، تشغل الراديو، تخلع حذاءها. نزل الدرج على أطراف أصابعه وعانق جدار الردهة فيمكنه مراقبتها على نحو أفضل. كانت ترتدي فستاناً نهارياً لم يتعرف إليه-أسود منقط بنقط بيضاء. كان شعرها طويلاً. بدت... في حال حسنة.

غادرت المطبخ وبدأت تسير باتجاهه. انسحب نحو الظِّل الذي وفرته خزانة ذات أدراج عندما عادت إلى الباب الرئيسي وخرجت إلى الشُّرفة. وظهرها الآن له، استغل الفرصة واندفع نحو المطبخ. هناك رأى عن قرب الطعام الذي جلبته من متجر كريجر: كعكة الليدي بالتيمور، قطعة لحم، وعدد من حبات البطاطا.

كانت عائدة إلى الداخل، هذه المرة تحمل البريد في يديها. كانت عيناها خفيضتان وهي تقلب الفواتير ووصلت إلى بطاقته البريدية. غطست في الأريكة. شاهدها، لم تبدُ سعيدة عندما تناولت الهاتف ورفعت السماعة. طلبت رقماً لم يتعرف إليه وانتظرت عامل المقسم أن يصلها.

خرج من الظلال وقال: «مرحباً لورين».

رفعت بصرها مجفلة. حدَّقا ببعضهما البعض. قال شخص شيئاً في السَّماعة وأجابت بسرعة:

«عليَّ الذهاب زوجي في البيت». وضعت السَّماعة وحدقت فيه بهدوء.

«اعتقدت أنك ستكونين في المحطة، على الأقل».

«أنا آسفة لم أكن هناك».

متذكرة البطاقة البريدية، رفعتها نحوه كما لو أنها كانت رسالة له وليست منه.

«لم أر بطاقتك البريدية حتى الآن، ظننت... الأسبوع القادم».

«نعم».

«إلام تنظر؟»

«نحوك».

«أنا مسرورة لعودتك إلى البيت». وقفت وجاءت لمعانقته، لكنه أمسك رسغيها بيديه وأوقفها على بعد ذراع عنه.

«لا تكذبي علي، لورين».

ترددت ابتسامتها: «أنا لا أكذب، أنت تؤلمني».

أراد أن يؤلمها. أراد أن يكسر ذراعيها. حاولت أن تحرر نفسها من قبضته، لكنه ضبطها بإحكام أكبر.

«من فضلك بيل»، كان صوتها ممزوجاً بالألم، «علينا أن نتحدث».

«أظن أني أعرف ذلك»، هزها، «هل تظنين أني أحمق؟»

«بيل أتركني، أنت تخيفني». فاضت عيناها بالدموع.

حررها فنظرت إلى العلامات الحمراء التي خلفها وثانية لم تقل شيئاً.

همس أخيراً: «أنا آسف، لا أعرف كيف أتعامل مع هذا».

«لا بأس». فركت رسغيها لتتخلص من الألم.

«لم أقصد أن أؤذيك».

«أعلم».

لم يرغب أن يعرف في النهاية. عندما فتحت ذراعيها على اتساعهما غاص فيهما واستنشق رائحة عطرها الجديد. عانقا بعضهما البعض لوقت طويل، ربما خمس دقائق فقط يتأرجحان.

انفتح باب المطبخ وسمع وقع خطوات من خلفه. التفت وكان روجر.

سأل روجر: «هل أذاكِ؟».

«لا لا». ولو أنه انسحب مبتعداً عنها، لمست ذراعه مع ذلك.

«يا رجل يجب أن نتحدث حديثاً جدياً».

«لا يمكنك أن تفعل هذا». تعثر نحو كيسه المصنوع من قماش خشن، ثم توقَّف وحدَّق بمحراك النار، عالماً أنه بدا يائساً، وأنه كان يائساً، الفتى الذي ذهب إلى الحرب، ليس الجندي الذي مارس القتل هناك.

قال روجر: «أحياناً الأمور تتغير. كنا نأمل أنك ستتفهم».

بدأ بيل يبكي. عندما بدأ، صار النشيج أعلى وأكثر قبحاً مع مرور الوقت.

انتحب: «أريد أن اقتلك. أريد أن أقتلكما».

قالت: «لا بأس. كل شيء سوف يكون على ما يرام».

قال روجر: «اجلبِ له كأس ويسكي». وأسرعت إلى الخزانة وأخرجت زجاجة مشروب.

واصل روجر: «اجلس، اجلس. لنهون علينا الأمر»

كان متعباً من القتل. لم يظن أنه قد يفعل هذا ثانية.

«اجلس».

لم يدر إلى أين يذهب. جلس، ناوله روجر كأس ويسكي متحدثاً ثانية عن أن الأمور تتغير، هي تتغير وحسب.

كان عليه الذهاب إلى مكان ما.

الليلة.

لم ينتهِ.

روجر كليفلاند عاد إلى البيت.

مخادع

أوبري هيرش

ظهرت قصص أوبري هيرش، مقالاتها، وقصائدها، في عدد من المجلات بما فيها ثيرد كوست، هوبارت، فيستال ريفيو، ومينتونكا ريفيو. تكريمها الأخير تضمن إشارة خاصة باعتبارها وصلت إلى الدور النهائي في جليمر ترين فيكشن أوبن ورشحت لجائزة بوشكارت. أتت إلى بيتسبرغ للحصول على شهادة الماجستير في الفنون الجميلة، في الكتابة الإبداعية وبقيت من أجل الجسور والجبنة المقلية. وتدرس حالياً الكتابة الإبداعية في برنامج ماجستير الفنون الجميلة في جامعة شاثام.

[redacted]

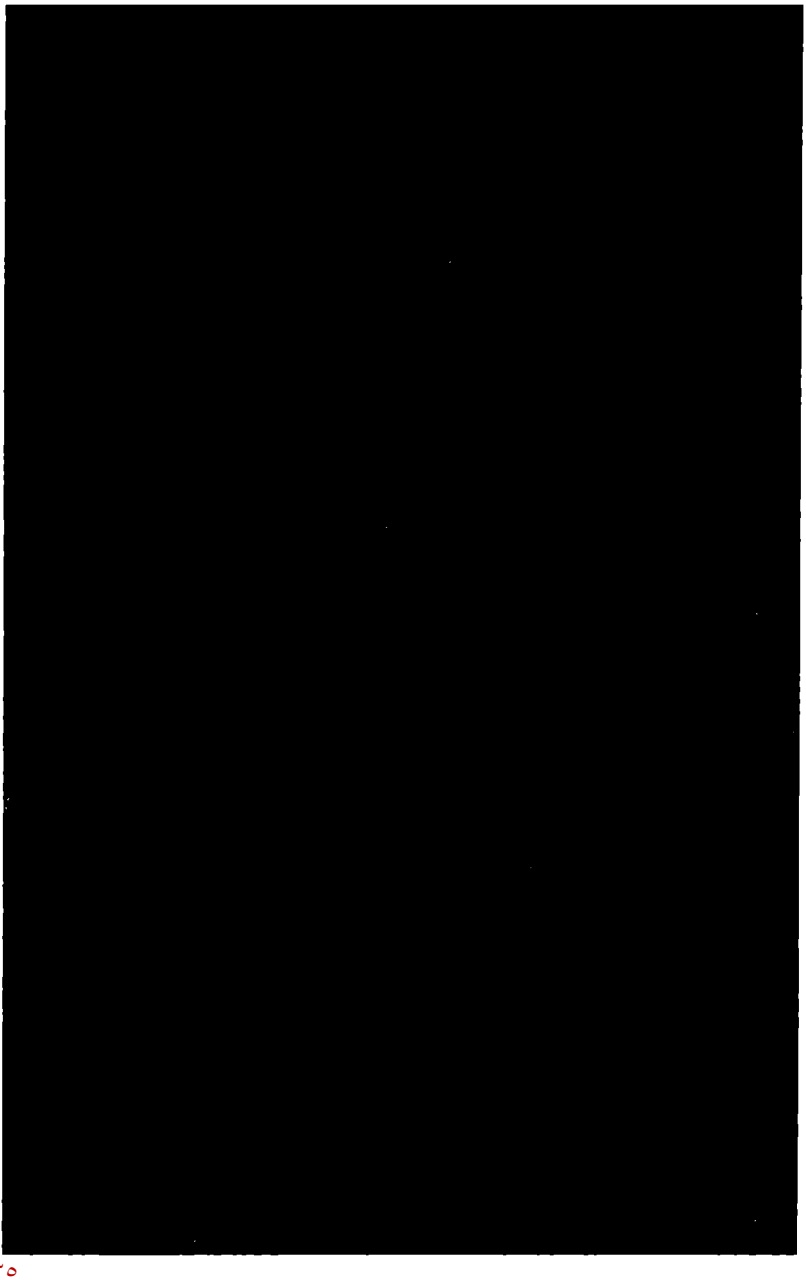

تبدو شقَّة ألكس مثل غرفة فندقية بعد أن يذهب النزلاء لتسديد الأجرة والمغادرة. مناشف على الأرض، وكؤوس نبيذ متسخة تناثرت هنا وهناك. مفرش السَّرير يتلاءم مع الشَّراشف، السَّتائر، الوسائد المرمية على الأريكة. طقم كامل. الموقد زائف. هناك فقط فن شامل على الجدران. ما من صور فوتوغرافية. ما من أثر حقيقي لشخصية دائمة. ربما ألكس رجل مختلف مع كل فتاة يصحبها إلى البيت. أو ربما ما من ألكس حقيقي. أو ربما هو لا يهتم للتزيين. أميل للتفكير أن الناس لديهم عمق أكبر مما يفعلون حقاً.

عندما أستيقظ للمرة الأولى، الشَّمس غائبة كلياً. لذا أفكر أنه سيكون حسن إذا عدت إلى النوم لبعض الوقت. لكن عندما أستيقظ ثانية شقت الشَّمس طريقها عبر الظلال، وهبطت إلى الأرض، زحفت عبر السَّجادة، على ملابسي، السَّرير، وفي شعري.

كان مزاجي سيئاً عندما بدأت أجمع ملابسي. لحسن الحظ، إنه يوم السَّبت، لذا أنا لست متأخرة على العمل. عندما بدأت بارتداء ملابسي كان ألكس لا يزال نائماً. بعد أن أمضيت عدداً كبيراً من الصَّباحات في البحث سدى عن جواربي، توقفت عن ارتداءها لجذب الرجال. لذا الآن محبس زواجي هو ما أبحث عنه عندما أدرك أني نسيت أن أخلعه ثانية.

أوقظ ألكس لأخبره أني ذاهبة. يقول حسناً ولا يتقلب حتى قبل أن يعود إلى النَّوم. كفَّ عن تقديمه لي سيارات أجرة منذ وقت طويل.

شهر نيسان في بيتسبرغ فصامي. يبدو أحياناً مثل شهر كانون الأول. اليوم، يبدو مثل شهر آب. أحاول أن اقرأ عدداً من صحيفة «البوست جازيت» على متن

الحافلة العائدة إلى سكوير هيل، لكن رأسي يفيض بقصص عن الليلة الماضية ولا أحد لأخبره إياها. لم أفعل هذا يوماً في بار من قبل. لكن عندما أستعيد المشهد تحت جفني، كل ما يمكنني رؤيته هو خاتم صغيرٌ ذهبي على خنصري. تبدو ملابسي ثقيلة وفي غير مكانها، كما لو أنها تشربت قليلاً من شقة ألكس. ربما أنا أيضاً، أشعر بأني رديئة بعض الشيء.

عند نزولي من الحافلة، كنت قد توقفت عن التفكير بالبار وركزت التفكير على مدى حاجتي إلى الاستحمام. لمحت ايفان في الجهة الأخرى من الشَّارع. لا أعرف اسمه الحقيقي، لكنه يبدو مثل ايفان. في وسعي أن أمشي غافلة مسافة طويلة دون أن أهتم بالمشهد، لكني لم أفوِّت ايفان يوماً، حتى في الزحام. هو في طريقه إلى العمل وأنا أشتم نفسي لأني عدت إلى النوم في منزل ألكس. يحمل نسخة مطوية من الصحيفة بيد، وباليد الأخرى يلوي بكسل الخاتم الصغير الذهبي الذي صمم خاتمي ليكون مطابقاً له. للغاية أتساءل إذا ما انتبه إلي. لثانية أكاد أشعر بالاتصال. أتخيل أن بقية صفحات صحيفته موضوعة على طاولة المطبخ قرب فنجان قهوتي النظيف. أتجاهل حقيقة أني نادراً ما استيقظت في بيتي، حتى أنهم كفوا عن إرسال الصحيفة إلي.

عندما أصل إلى شقتي، ألاحظ أن ملابسي بدأت تفوح منها رائحتي ثانية، لكن لا تزال رائحة سيجار كريهة تنبعث من حقيبتي، وسائل الاستحمام الأيرلندي الذي استخدمته في شقة ألكس. إنها القطعة الوحيدة من أشيائي التي لا يمكنني غسيلها. أراهن أن حقيبة مصمم حقيقي من شأنها أن تمتزج بسهولة من حياة إلى أخرى.

عندما أعود مرة ثانية، من شأنها أن تفوح منها رائحة شموع معطرة برائحة الفانيليا، وسجادة كانت كثيراً ما يتم كنسها كهربائياً. عوضاً عن ذلك تذكرني حقيبتي بالسكوريل كيج وكيف انبغى عليَّ محاولة وتنظيف ما بين فخذي بمناديل المائدة. كانت من النوع البني اللون المعاد تصنيعه واسم البار معروض عليها. ترك الحبر خطوطاً سوداء صغيرة على ساقي. عدا أني كنت مصابة بحرقة وكانت

واخزة، لكن ألكس كان يهمس لي أن أسرع لأن النَّادل كان ينظر إلينا. خرجنا من هناك وحاولت أن أبعث البهجة بشكره وأومض له بابتسامة سرية. تجاهلني إلى أن وصلنا سيارته وسأل إذا ما كنت أتناول الحبوب.

بعد أن أستحم وأرش حقيبتي بمعطر فيبريز أحاول أن ألتقي ايفان على الغداء، لكنه لا يظهر في «موراي آفنيو جريل» في الوقت المعتاد. عوضاً عن ذلك يسير متمهلاً تماماً عندما كنت مغادرة. أفتح فمي لأقول شيئاً، لكنه يتجاهلني.

لحظات مثل تلك هي التي تفسد مزاجي، عندما يرفض ايفان مجاراتي. أعرف أنه ليس زوجي حقاً. هو فقط شخص لفت انتباهي في الشَّارع مرة وتبعته إلى العمل. ومن ثم إلى البيت. ثم إلى حيث يتناول طعامه. والمتاجر. اشتريت خاتماً بدا مثل خاتمه وأقحمته في تخيلاتي. لأنه ليس لدي من أخدعه. وأحب السرعة. إنها تجعلني أشعر بالخطر وبالإثارة، وأنا لست من تلك الأشياء بدونها. لذا أقول لنفسي إنه يستحق العمل الذي عليَّ القيام به في تلك اللحظات. استنبط المبادلة في عقلي: أفتح شفتي لأحاول أن أشرح، لكنه أخطأها بابتسامة وابتعد.

استيقظ على أريكة كيفن عند السَّاعة السَّادسة صباحاً. هو ليس بقربي، لم أتوقع منه أن يكون. أبحث عنه في غرفة النوم، لكنه ليس هناك أيضاً. مع أن الشَّمس لا تزال منخفضة بما فيه الكفاية لتتشبث بالسَّقف وليس بالأرض، كلا جانبي السَّرير باردين. أبحث في المطبخ والحمام قبل أن أقبل أنه ذهب وأبدأ باستجماع نفسي. محبس زواجي في كأس الشمبانيا الفارغ ومعظم ملابسي لا تزال من الليلة السابقة.

لقد التقينا في «الفاناتيكس» وهو بار رياضي، حيث تظاهرتُ بأني أشجع فريق كرة سلة بلدته وصحبني إلى البيت معه. أبعدني عن غرفة النوم قائلاً إن صديقته سوف تشم رائحتي على الملاءات. تضاجعنا على الأريكة، المصنوعة من البلاستيك، لتبدو كما لو أنها مصنوعة من الجلد. كان عليَّ أن أفرد سترتي تحت ساقي العاريتين وباستمرار أعيد ترتيب نفسي كي لا ألتصق بها. كان أقل من مريح، لكن الشيء

التي أرقناها وأي شيء تسرب من الواقي الذكري كان من السَّهل مسحه بعد ذلك. أنا فقط شعرت بتوعك بعض الشيء عندما استيقظت وفمي مضغوط على الأريكة. كان الجنس جيداً. كنت ثملة بما فيه الكفاية لأكون صاخبة، وكان ثملاً بما فيه الكفاية كي لا يلاحظ أني كنت أسقط حرف الـ«ك» من اسمه.

تجولت في شقته مرة ببطء. أقول لنفسي أني أتثبت من أني لم أترك أي شيء، لكن عندما أبدأ النظر في أرجاء الغرف التي لم أدخلها يوماً، أدرك أني أبحث عن ثمَّة وداع. أو تأكيد من أني كنت قريبة من شخص الليلة السابقة، حتى لوقت قصير. لم أجد شيئاً.

كنت ثملة عندما غادرنا البار، لذا لم أعرف أي حافلة أستقل إلى البيت من مبنى كيفن. لحسن الحظ دفع ثمن الشراب، وكنت أملك ما يكفي من النقود لأستقل سيارة أجرة إلى البيت.

ركوب سيارة الأجرة هو فرصتي الأولى للتفكير بمشاعري. لقد حزنت كثيراً من الليلة السابقة، وبدأت أفكر بالمدرسة الابتدائية عندما علمونا عن المخدرات. شعري هش من الشَّمبانيا الناشفة التي لم تتشربها الأريكة، وساقي كما لو أنهما مسفوعتان من الالتصاق بالبلاستيك. يمكنني حتى الآن تذوق طعم مصفف شعر كيفن تحت أظافري عندما أقضمها. تفوح من حقيبتي رائحة الشمبانيا ومعطر الهواء برائحة الصنوبر. أنا مسرورة لأني لا أستطيع أن أشم رائحة قلبي. السابعة صباحاً ليس وقتاً جيداً لي. ربما أنا أمر بنوع من الانسحاب.

أحاول أن أركز على الإيجابي. الأمر الظريف عن النوم مع أناس مختلفين هو سلسلة متصلة من المفاجآت. بدأ كيفن، على سبيل المثال، يتلو صلاة «الأبانا» حوالي عشرين دقيقة ولم يتوقف إلى أن أتى. هناك ربما وقت عندما وجدت ذلك مرعباً، لكن الآن أنا مفتونة.

مع وصولي إلى شقتي كان الوقت متأخراً جداً للقاء ايفان في طريقه إلى العمل.

بعد ساعة تقريباً من عدم فعل شيء أبدأ بالشعور بالشفافية، كما لو أني أنزف في ورق الجدران. لذا استحممت وخرجت من هناك. ولم أدرك إلى أين أنا ذاهبة إلى أن وصلت جادة شيدي. ثم أمشي تلقائياً نحو مبنى مكتب ايفان. ربما لأني أشعر بالذنب، التحقق من دوافعي لا يبدو مهماً.

ايفان في الخارج يدخن سيجارة، من نوع برلمان غليظة تبدو جاهزة للوقوع من أصابعه. يحدق مباشرة عبري وأفكر، ورق جدران.

«مرحباً».

يقول: «مرحباً».

لا أستطيع العثور على أي عاطفة في صوته على الإطلاق.

«سوف أقول ما لدي سريعاً، أعرف أن لديك عمل تقوم به. كنت أفكر ربما يمكننا أن نتناول العشاء لاحقاً في هذا الأسبوع».

يبدو مشوشاً وينظر من فوق كتفه الأيمن.

يقول: «أظن أني مشغول». وينظر نحو محبسه.

يدي تذهب تلقائياً إلى محبسي. لا يمكنني إيجاد أي شيء بيننا على الإطلاق. تبدو عيناه جامدتين وأستغرق ثانية لأتساءل إذا كنت قتلت هذا. أحاول قدر الإمكان أن أفكر بقول الأمر المثالي، لكن صلاة الأبانا عالقة في رأسي، ولا يمكنني التفكير بأي شيء على الإطلاق.

أعود إلى موقف الحافلة ببطء وأبدأ بالقلق حول خبو مخيلتي. لدي علاج آمن تماماً لأوقات مثل هذه. أشتري أشياء لإيفان. ثم أنظر إليها ويمكنني الشعور به في شقتي ثانية. أتوقف عند الصيدلية وأشتري له فرشاة أسنان خضراء اللون.

أتوقف عند محل الأحذية واشتري له حذاء ثميناً. أتوقف عند أور واشتري له ساعة جديدة. عندما أصل إلى البيت لأضع هذه الأشياء، أشعر بتحسن. لا يمكنني الانتظار للذهاب إلى سكوريل كيج لاحقاً. أتخيل أني أخبر ايفان أني متوجهة إلى لقاء ولن أعود إلا في وقت متأخر.

عندما أستيقظ يحضِّر مارك الفطور. بسرعة أربط شعري إلى الوراء وأضع قليلاً من حمرة الشِّفاه ثم أمشي إلى المطبخ. يمكنني سماع صوت قلي لحم الخنزير قبل أن أشم رائحته.

أقول: «رائحته جيدة».

يقول: «أنا آسف. لم أحضر ما يكفي، تصورت أنك ستكونين مغادرة».

أقول: «أوه، أنا كذلك».

تبدأ معدتي تؤلمني وأنا أجرها بعيداً عن رائحة اللحم. أفكر أنها غضبت مني لأني ملأتها بكثير من الكحول. اللعنة على التيكيلا، هي جميلة جداً.

ملابسي مرمية على كرسي في غرفة النَّوم. لا يوجد شيء لتلتفت إليه وما من سبب يمكنني التفكير لأطيل زيارتي. ليس أني أريد ذلك حقاً، أنا فقط أكره ذلك الشعور السريالي الذي أحس به في الطريق إلى البيت: هل حدث هذا حقاً؟ خيالي خصب جداً هذه الأيام. أحياناً من الصعب أن تعرف. لحسن الحظ شقة مارك تفوح برائحة براز قطة، وتنورتي ربما كذلك.

بيت مارك صغير، لكنه ساحر. الحاشية على ورق الجدران متناظرة على نحو كامل، ما يجعلني أفكر أن لديه صديقة، حتى لو أنه أقسم بأن ليس لديه. يبدو الأثاث مثل فضلات كلية. هناك كراس مكتبية حيث يجب أن يكون كراسي استرخاء، مفارش حيث يجب أن يكون أرائك، علب بيرة حيث يجب أن يكون مزهريات. دعاها «غرفة العازب» لكن لا يملك طاولة فوزبول، لذا لا أظن أنه يحتسب.

كان الجنس عادياً. حتى عندما اعتقدت أنه كان يحضر لي الفطور، لم يبدُ بتلك العظمة. كل مرة أقترب قد يتراجع ويحثني على توسله. أديت عملاً قذراً فقط لأجعل الأمور تبدأ، لكن ليس من كل قلبي. أيضاً فكرت أنه تعرق كثيراً. كنت مفتتنة أن أنهض في الأثناء وأشغل مروحة السَّقف، لكني اكتشفت أنها ستجعله يدوم مدة أطول، وعند ذلك الحد أردت فقط أن أخلد للنوم.

مع وقت انتهاءنا، كنت صاحية ثانية وآخذة بالتململ. نام مباشرة وبقيت صاحية لفترة قصيرة. أردت أن أعرف شيئاً عنه. لم أحتج إلى قصَّة حياته، أو حتى إلى رقم هاتفه. فقط شيء لأجعله يبدو كما لو أنه شخص حقيقي. تجولت باحثة عن طاولة فوزبول. لا شيء. تحققت من ثلاجته لأرى إذا ما كان نباتياً. لا. نظرت في محفظته باحثة عن الصور لكني لم أجد شيئاً. عرفت لون عينيه من شهادة القيادة وعدت إلى السَّرير.

في الطريق إلى البيت أنزلق في الانسحاب ثانية. أشعر بالتعرق ومعقودة بالشك. أشم رائحة تنورتي بحثاً عن دليل عن ليلة الأمس. فضلات قطة. أتوقَّف عن التفكير بكم يمكن أن أكون واهمة، أفكر لماذا لم أر يوماً قطة.

التيكيلا تجعل معدتي تبدو كما لو أنها تنكمش على نفسها. أفتش في الخزائن لأجد شيئاً لكي أسندها به، لكن الشيء الوحيد الذي أحبه هو لحم الخنزير. أتوجه إلى مطعم باميلا أفضل فطور في بيتسبُرغ.

ايفان هناك مع امرأة لا أعرفها. أراقبهما يتغازلان إلى حين، لكني لست قلقة حتى ينحني ليقبلها. ثم أمشي بمحاذاتهما أطقطق بنعلي حذائي وهذا ما لم أفعله يوماً.

لم يرفع بصره. لم يتبعني أي منهما بعينيه. يمناهما مشبوكتين عبر الطاولة، وأصابع يسراهما مثبتتان عبر مقبضي فنجاني قهوتهما. يمكنني أن أرى محبسهما المتطابقين. يبدو خاتمها أغلى ثمناً من خاتمي، وترتدي تحته خاتم بماسة مفردة.

يبدوان متناسبان معاً. لا أدرك أني توقفت عن التحديق إلى أن رفع ايفان، أو أياً يكن اسمه، بصره. أتظاهر بالتثاؤب لأخفي الدموع في عيني، لكنه لا يلاحظها بأي حال.

أندفع خارجة من المطعم أفكر بمزيج من: ربما سأشتري له برنس الحمام الغالي الثَّمن ذاك و الآن غاليت في الأمر كثيراً. أحوم فوق غطاء للصرف الصحي خارج المطعم وأسحب خاتمي من إصبعي. الجلد أخف بقليل تحته وملمس الجلد يحك الجلد هناك غريب وبغيض. أعرف أني وايفان انتهينا. لا يمكنني إصلاح ذلك. أكافح لأقول لنفسي: هو لم يعاملني جيداً. أنا أطلب الطلاق. لكني أعلم بأني لن أشعر ثانية بالحماس والخطر إلى أن أتزوج ثانية، مهما كانت الظروف سواء حقيقة أم لا. أمس خاتم زواجي، وبحذر أضعه في حقيبتي في الطريق إلى البيت.

في عطلة نهاية الأسبوع التالي أحتاج مغامرة، لذا أذهب إلى سيلكي. إنه غالباً طلاب من بيتسبرغ يشاهدون لعبة البطارق، لذا لن تكون عادة نخبتي، لكنها ليلة سيداتها ومشروباتي مجانية. في الطريق للدخول أخذت فنجاناً بلاستيكياً وختماً أسود على ظاهر كل يد. أتلو صلاة صامتة راجية أن تتلاشى مع حلول يوم الاثنين. ألقي بنظرة على خياراتي. صغير للغاية، قصير للغاية، نحيل للغاية، ليس في مليون سنة، من فريقي، ربما إذا كنت ثملة بما فيه الكفاية، وثم أراه: مثالي. هو كبير في السن ليكون هنا، على الأقل أربعين، وعندما أرفع بصري ترميه فتاة من النادي بنظرة قذرة وتندفع خارجة. أعرف أن ليس لديه فرصة وأفكر ربما هو مستقتل مثلي للمضاجعة. أنظر إليه من البار وأجلس قربه تتلامس ساقانا. يقدم لي شراباً وأعرض أختام ليلة السيدات فيبتسم.

يسأل فيما إذا كنت متزوجة.

أقول له: «نحن نعمل على الطلاق».

بيتسبُرغ تسجل على التلفاز فوق كتفه الأيمن. هو يشرب جينيس، وأنا أيضاً،

لكني أعاني وقت صعباً في تجرعه. أنظر من حولي نحو عدد قليل من الطالبات مع مشروباتهن الملونة في فناجين بلاستيكية.

يقول لي إنه كان متزوجاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

«ألم يعجبك؟»

يهز رأسه.

يأخذ الجينيس بالاستقرار في معدتي ويرفرف نحو دماغي.

يخبرني أن اسمه ريك.

أقول: «مسرورة بلقائك». وأسحب حرف اللام إلى الخارج فسوف يفكر بلساني.

الموسيقى من صندوق الموسيقى صاخبة جداً، لا يمكنني الشعور بضربات قلبي فوق صوت البيس.

يقول لي إن عيناي جميلتان.

أسأل وأنا منحنية قليلاً: «ريك، هل تغازلني؟»

مقاعد البار مرتفعة للغاية، وقدماي تتدليان بضع بوصات فوق الأرض. ما يجعلني أشعر بالسخف وأنا شائقة للخروج من هنا، لكنه يطلب لنا مشروباً آخر.

يسأل أي نخب يجب أن أشرب.

أرفع فنجاني البلاستيكي: «زواج».

ونشرب.

ساعتان، ثلاث ربعيات من الجينيس، ستة عشرة أغنية من أغاني فرق الروك، نزهة قصيرة على التلة، ومجموعتين من الأدراج لاحقاً، هو يتلمس مفاتيح بيته وأنا أعصر مؤخرته عبر بنطال عمله. أسمع طقة القفل وأساعده على إدارة مقبض الباب. حالما ندخل يدفعني نحو الحائط ويزلق يده بين ساقي. يذكرني اللون الأزرق الباهت للغرفة بخلفيات في برامج رسوم متحركة تعرض صباح السبت في رأسي، أغنية برنامج لوني تيونز هي الموسيقى التصويرية لبقية الأمسية.

عندما أستيقظ، يخرج ريك من الباب. أرتدي ثيابي سريعاً وأتبعه تفصل بيننا مسافة أمان. لا أعرف إلى أين نحن ذاهبان، لكن في الطريق إلى هناك ألبس خاتمي وأبدأ بالتفكير بزواجنا. بادئ الأمر لا يمكنني التقرير أين تزوجنا، أو كم كان يبلغ عدد الوصيفات. لكن كلما فكرت في الأمر كلما اتضح أكثر في عقلي: عرض ريك العفوي واسع العينين، عشاءنا الاستعدادي في ماونت واشنطن، كم كنت غاضبة عندما رمى خاتم زواجه في المصرف وضيعه، كم لم يشك بأي خيانة زوجية من جهتي، كم كنا عاشقين.

هذا زوجي الثاني ريك. فرشاة الأسنان الخضراء في حمامي هي لريك. أحب صوتها الآن. يدخل ريك نحو محل لغسل الملابس في فوربس. عندما تمر ثلاثون دقيقة ولم يخرج بعد مع زوج من القمصان الملفوفة المنكمشة أو سترة من الموسم الراكد، أنسخ العنوان في دفتر مواعيدي، أضع عليه بطاقة تقول عمل ريك. أنزل الشارع سريعاً. لدي ما أعمله. لدي حياة برمتها لأخلقها وفقط اثنتا عشر ساعة لفعل ذلك. عليَّ الإسراع إذا كنت راغبة في الوصول إلى البار عند السَّاعة التاسعة.

رمي المفتاح

توم ليبينسكي

توم ليبينسكي من بيتسبرغ ومبتكر سلسلة الغموض كارول دورسي. حائز على جائزة شيموس، عمل موظفاً في الخدمة الاجتماعية، مديراً لسجن، في استعادة الملكية، ومفتش تأمين. يحمل إجازة في الفنون الجميلة من جامعة بيتسبرغ وشهادة من جامعة «سيلبري روك»، وحالياً يشغل كرسي قسم الفنون الإنكليزية والمسرح في جامعة ادينبورو في بنسلفانيا.

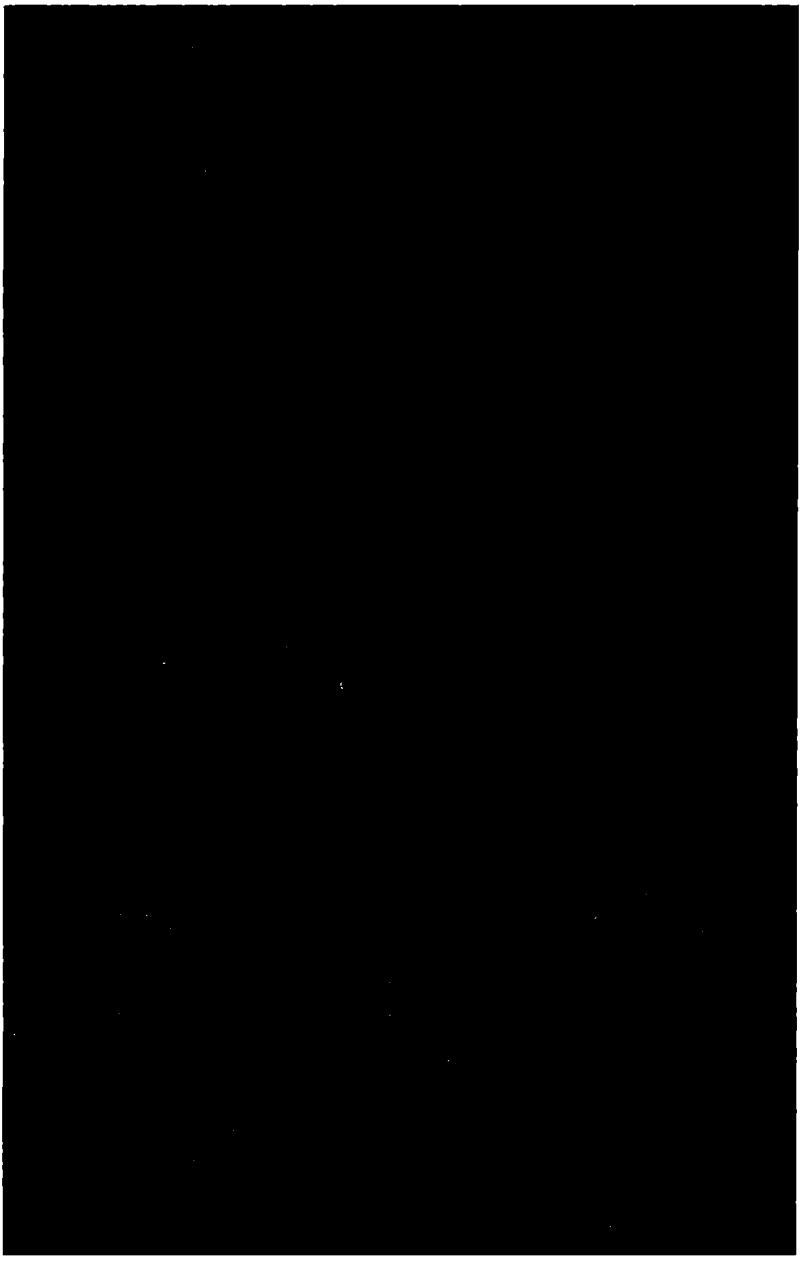

المنعطف الصَّاعد عند تلاقي شارع بتلر والشَّارع رقم ٤٤ منعطف ضيق. المنحدر المفاجئ والحاد معقد أكثر بطريق ضيق أصلاً حيث وضعت كتل صلبة عند كلا الحاجزين الحجريين لحماية المتاجر في شارع بتلر من الفيضان -المتاجر التي تنتقل من مالك إلى آخر من دكاكين صغيرة، متاجر بيع البيتزا، الحلاقين، ونحو أماكن بسيطة تغريك بشرب القهوة كلما مررت بها.

نجح دورسي في اجتياز تقاطع الطرق بسيارة البويك القديمة، أخذ حذره من شبكة القضبان الأمامية الطويلة والمصد، راجياً ألا يصيب بضربة جانبية سيارة مركونة في الزاوية، ثم ضغط على المسرع، يعد المحرك للصعود. ظل يبحث عن بقعة لركن السَّيارة لكنه لم يجد البتة، سوى أماكن مكشوفة محجوزة بكراسي طاولات المطبخ وضعت عند الحاجز، لذا التفت إلى يمينه ودخل ساحة انتظار السيارات الخاصة بكنيسة. كانت الكنيسة مبنية من الآجر الدَّاكن اللون والفخم، وتذكر دورسي زياراته القليلة الأخيرة إلى شارع ٤٤، مذكراً نفسه أنها كانت تخص رعية بولندية. الآن، ما كان اسم تلك اللوحة المحروقة للسيدة العذراء التي كانوا يعلقونها هناك؟

خرج من السَّيارة، بسط طوله الذي يفوق ست أقدام، وألتقط لمسة من نسيم الصيف. بعد انتظار مرور حركة السَّير شق طريقه عبر الشَّارع نحو خط من المنازل المتلاصقة ذات الحدائق الأمامية الصغيرة المحاطة بأسيجة سوداء من الحديد المطاوع. عندما فضَّ دورسي القفل انفتح الباب الرئيسي ودفع موجة محمولة من ماء الغسيل الرمادي والرغوي.

تراجع دورسي إلى حافة الرصيف: «هل ذلك هو الجحيم؟ سلمي علي، اطلبي مني أن أمر بك واجعلي الأمر يبدو مهماً، ومن ثم هذا».

قالت له السيدة لينسكي وهي تهبط درج شرفتها الأمامية، حاملة في يدها جردلاً معدنياً: «لقد أنهيت للتو أرضية القاعة».

ذكَّر دورسي نفسه: هي مسنة يا رجل، هي مسنة. تشارف على بلوغ نهاية العقد الثَّامن من عمرها.

تغنجت السَّيدة لينيسكي بطول قامتها البالغ خمس أقدام ونزلت إلى الشارع، تبدو واهية للغاية حتى أن مطراً خفيفاً في وسعه أن يجرفها، وآخر ما بقي من شعرها الأشيب مشدود بشدة على الجمجمة. كانت ترتدي ثوباً منزلياً دون أكمام يصل إلى منتصف ساقها، ولم يفد في إخفاء الحلقة الإلكترونية الداكنة التي أحاطت بكاحل قدمها اليمنى.

قال دورسي وهو ينظر نحو قدمها: «لم يكن عليك أبداً أن تطلقي النَّار على ذلك الرجل، من حسن حظك أن هذا كل ما فعلوه بك، حتى وأنت في هذه السن».

أجابت السيدة لينسكي وهي تقلب جردلها مفرغة آخر قطرات الماء. حمل صوتها الآثار الأخيرة لطفولة أمضيت في أوروبا الشَّرقية: «لقد طلبت منك أن تفعلها. تماماً في ذلك المطبخ، ونحن نشرب القهوة. قلت لا. وكان لديك ما يكفي من الأسباب الجيدة لتفعلها أيضاً. لذا، ذلك تركني».

سألها دورسي عن كيفية تتدبر أمرها مصمماً على عدم تذكر الماضي المؤلم مرة ثانية.

«بين بين. الأشياء في كاحلي تتسبب لي بطفح جلدي، حمداً لله أنهم لا يزالون يصنعون مرهم نوكسما».

كشَّر دورسي لها تكشيرة خفيفة.

«إذن هل تطلبين مني الدخول؟ ربما لشرب القهوة؟» خطا عبر البوابة وأخذ

الجردل من يدها. «هل تريدين أن تخبريني حول ماذا هذا؟ لماذا طلبت إليَّ المجيء؟»

قالت السَّيدة لينسكي ملتفتة لدخول المنزل: «بالتأكيد، بالتأكيد، لنباشر العمل. السيد المحقق يريد أن يعرف عن القضية. هل لا يزالون يطلقون عليها هذا الاسم؟»

قال دورسي وهو يتبعها: «أحياناً. ماذا في بالك؟»

توقَّفت السيدة لينسكي عند العتبة والتفتت.

«أولاً اصحبني للتسوق. أحتاج بضعة أشياء».

سأل دورسي: «يسمحون لك بالخروج؟ أليس عليك الاتصال بشخص ما أولاً؟ ربما مكتب المراقبة؟»

كان دورسي يراقبها وهي تهز رأسها، عندما لفت نظره أمر في الشارع. التفت وتفحص الشارع، الأمر الوحيد الذي يتحرك كانت سيارة كاديلاك سوداء اللون بلا عيب تصعد الطريق.

سألت السيدة لينسكي وهي ترفع بصرها نحو دورسي: «هل ترى ذلك؟ الحانوتي؟ هو يسرق».

«ماذا تعنين بذلك؟»

قالت له: «كما تعلم هو حانوتي. أحذية، جوارب، أحياناً بدل حتى. أتظن أن كل من يوارى الثرى يكون منتعلاً حذاءً جديداً في قدميه؟»

راقب دورسي المرأة المسنة من موقفه خلف عربة التَّسوق في قسم الإنتاج، وهي تتفحص رأس ملفوف تلو آخر، وروى لنفسه من جديد قصة هذه الصَّداقة

غير المتكافئة. هي تشغلك منذ بضع سنوات عندما لم يكن أحد يرسل لك عملاً، لتجد حفيدتها المفقودة.

كانت قد أخبرته: «هي مع مدمني مخدرات في المتنزه».

كانت قريبة، كانت الفتاة على الجانب القصي من السياج المكسور الذي يفصل المتنزه عن المقبرة. بضع أقدام وما من علامة سوى زجاجتي نبيذ وبيرة مكسورتين لتحجب الأثر إلى حد ما. وجدتها بخير وعرفت من قتلها. كنت قد أخبرتها: «لكني لا أستطيع أن أثبته، ليس كافياً من أجل المدعي العام أو الشرطة».

قالت السيدة لينسكي: «إذن اقتله من أجلي سوف أكافئك».

لكن حسبك أن هززت رأسك وغادرت المنزل، وتركت المرأة لترتكب جريمة القتل بنفسها. ومع بعض الخدع القانونية، حصلت المرأة البالغة من العمر ما يزيد عن ثمانين عاماً على حكم بإقامة جبرية وحلقة معدنية حول كاحلها عقوبة على جريمة القتل.

انتقت أربعة من رؤوس الملفوف وجدتها جيدة بما فيه الكفاية لتضعها في العربة وسأل دورسي عن عدد الأشخاص الذين كانت تعد الطعام لهم.

قالت له: «شخص ما سوف يظهر. هم دوماً يفعلون عندما أحضِّر الهالوبكي».

«قنابل يدوية بولندية؟»

قالت السيدة لينسكي: «حكيم إيرلندي، زيجي يجلب لي اللحم من متجر الستريب وبضع أشياء أخرى، سوف يمر لاحقاً». وسحبت مقدمة العربة موجهة إياها إلى ممرات صناديق الدفع

بدأ دورسي يوجِّه العربة نحو صندوق الدفع لكن السيدة لينسكي أمسكت

بالمقدمة وجرتها إلى ممر آخر.

قالت مشيرة إلى فتاة شابة خلف النضد: «ليس هنا، هي تغش الناس، تفرض ثمناً مضاعفاً على أشياء مثل اللحم أحياناً. ثمة أمر يجري بينها وبين المدير، هما متورطان في الأمر معاً».

قالت السيدة لينسكي وهي تضع فنجان قهوة على سطح طاولة المصنوع من الفورميكا أمام دورسي: «ليست ساخنة بما فيه الكفاية، ليس بعد، للشاي المثلج».

كانا في مطبخها الآن، على الرغم من التفتيش الدقيق لم يستطع دورسي أن يجد أي تغيير منذ زيارته الأخيرة. الثلاجة والفرن لا يزالان محتفظان بلونهما الأبيض المصفّر، المغسلة مستقلة بأنابيب مكشوفة. فيما عدا بعض التشوهات الطارئة الجديدة، حتى فناجين القهوة بدت على حالها. أمل دورسي أن تكون مشاكلها قد تغيرت.

ارتشف رشفة من القهوة الثقيلة على غير العادة.

قال وهو يضع الفنجان على الطاولة: «إذن. حان الوقت لتخبريني عن سبب وجودي هنا. لا بد أن لديك شخص آخر ليصحبك للتسوق».

جلست السيدة لينسكي على مقعد في الجهة المقابلة من الطاولة: «هل تتذكر المرة الأخيرة، آخر مرة التقيت بكاثرين؟»

تذكر دورسي: «التقيت بها مرة واحدة فقط. ولم تكن في حالة جيدة. التقيت بها في الشَّارع عند المستشفى القديم. كانت في الجناح الشرقي، جناح الأمراض النفسية؟»

كانت حينها في منتصف عقدها الرابع وتزيل السم للمرة الثالثة. تذكر دورسي الصوت المتقطع وأنها بالكاد تمكنت من تذكر أن لها ابنة. الابنة التي وجدت ميتة.

سأل دورسي: «هي تنظف هذه الأيام؟».

قالت السيدة لينسكي: «هذا ما يقولونه. نوعاً ما كما أظن. هي لوحدها، لديها بيت صغير يبعد حوالي عشرة مفارق في شارع كارنجي، الجناح الآخر. وقد حصلت على هذا العمل لكنه عمل مع أناس سيئين كما أظن».

ارتشف دورسي من قهوته: «أي نوع من العمل؟ وعند من؟»

«واحد من أماكنهم الجديدة، الأماكن الجديدة في شارع بتلر، لقد رأيتها. كل متاجر القهوة تلك، هم يصنعون شطائر صغيرة من أجل الغداء، يحاولون بيع الفن عن الجدران في الحال؟ هي في أحدها قرب شارع ٣٧ في الجهة الأخرى حيث كانت تقع المدرسة الكاثوليكية».

قال دورسي متذكراً زيارة إلى هناك باحثاً عن الحفيدة. فتيات في لباس رسمي يحاولن أن يزلقن أشياء فيما تمر بحذاء راهبات في أردية: «هذا ما أتذكره. اعتقدت أن تلك نوع من الأماكن كانت مشهورة هنا الآن».

قالت السيدة لينسكي وهي تطرد الفكرة ملوحة بيدها: «البعض كذلك، كما أظن. هي تعمل عند شخص من عائلة بيرديك، هو يملك المكان حيث تصنع الشطائر، تنتظر إلى الطاولة. آل بيرديك، العائلة برمتها ليسوا جيدين».

سأل دورسي من خلف فنجان قهوته المرفوع: «هل يسرقون مثل الحانوتي، أو يغشون كما تفعل فتاة المحاسبة في المتجر؟ آسف كان يجب أن يطرح».

نهضت السيدة لينيسكي عن كرسيها وذهبت إلى المغسلة، وأدارت له ظهرها: «هي كبيرة، هي مجنونة، هذا ما تظنه. كما أظن أن الناس هم جميعاً مصممين على النيل مني» استدارت لتواجهه وتابعت القول: «أنا أعرف أشياء، أشياء وأناس. إنهم ينوون على شيء في ذلك المكان الذي تعمل فيه كاترين. آل بريديك الملاعين. كنت لأذهب إلى هناك بنفسي وأعرف، لكن لدي هذا الشيء في كاحلي لذا عليك

الذهاب».

* * *

ذكَّر دورسي نفسه: لذا عليك الذهاب. تسرحتَ من الخدمة العسكرية منذ ثلاثين عاماً ولا تزال تخشى أي شيء يبدو شبيهاً بأمر مباشر. وكان يتجول في شارع كارنيجي يتحقق من العنوان المكتوب على قصاصة ورقية أعطته إياها السَّيدة لينسكي.

«وأمر آخر، هي تعيش على بعد ثلاثة عشر مفرقاً وحسب عن العمل، وتستقل الباص على طول شارع بتلر. ثلاثة عشر مفرقاً وهي تدفع أجرة ركوب الحافلة، لا يمكنها الذهاب إلى العمل سيراً على الأقدام. تضيع نقودها. اكتشف ما يجري في ذلك المكان وأخرجها من هناك».

قاد دورسي على طول شارع كارنجي سيارة البويك، الآجر البني للمنازل والشُّرفات الأمامية يفسح المكان للآجر الأحمر في كنيسة سان كيران. توقف بعد بيت القسيس تماماً وأطفأ المحرك مركزاً انتباهه على المنزل الذي يحمل العنوان الذي كان يبحث عنه فيما يبدو متحولاً من مسكن لعائلة واحدة إلى شقتين. تفحص دورسي نوافذ الطابق الثاني حيث قيل له إن كاثرين تعيش. نوافذ مغلقة وستائر مسدلة على الرغم من دفء الأصيل، كان المكان عادياً وفكر دورسي في قضاء بعض الوقت في المراقبة، لكنه غير رأيه.

فكر: سوف لن يوصلك إلى أي مكان، أفضل ما يمكن أن يحدث هو أن تغفو وينتهي بك الأمر بألم في أسفل الظهر. من الأفضل أن تحصل على بعض الإجابات أولاً. أدار مفتاح الإشعال، أدار المحرك واجتاز بضع شوارع وعبر تقاطع أخير. عند

الزاوية كان مبنى منخفض يطل على باحة كبيرة مجددة بالإسمنت والآجر، نادي (النظام القديم للهيبيرنيين» المحلي، العلامة الوحيدة هي لافتة صغيرة مثبتة فوق الباب الأمامي. جرس وشق صغير كان مرفوعاً قرب مقبض الباب وكبس دورسي على الزر. فتح الباب رجل قصير يرتدي مئزر ساقٍ ملفوف مرتين.

«هل تبحث عن داني؟»

رد دورسي بالإيجاب وأشار الرجل نحو دهليز صغير متبوعاً بحانة كبيرة بطاولات وكراس منتشرة عبر الأرضية. نودي الساقي إلى زاوية قصية: «داني. رجل هنا من أجلك».

إلى الطاولة في الزاوية، كان رجل نحيل مسن يرتدي بنطال عمل رمادي وقميصاً رياضياً يقرأ الصَّحيفة. على سطح الطاولة كانت علبة من بيرة الزنجبيل، كأس فيه ثلج مكسر، وعلبة سجائر مفتوحة حديثاً تحمل علامة شيسترفيلد التجارية. عندما رفع الرجل رأسه ذو الشعر الأبيض، رأى دورسي العينين الزرقاوين وملامح ضامرة جميلة تخص عشيرة سوليفان التي تنتمي إليها أمه. ذكرت التكشيرة البطيئة دورسي أن هذا كان واحداً من قلة تمكنوا من المحافظة على أسنانهم الأصلية.

«كيف حالك يا عم داني؟»

مازحه الرجل: «تناديني بالعم؟ لابد أن تكون في مشكلة ما، من الأفضل أن تجلس وتخبرني».

قال دورسي وهو يتخذ له مقعداً في الجهة المقابلة من الطاولة: «مشكلة؟ أظن ذلك. لكني لست واثقاً من أي نوع قد تكون». أومأ دورسي نحو السَّجائر. «اعتقدت أنك أقلعت عن تدخينها».

أجاب العم داني وهو يسحب سيجارة من العلبة: «لا أدخنها. أنا حتى لا أشعلها فقط أعطني شيئاً أشغل به يدي. لا يزال عليَّ دفع ثمنها لكني أوفر ثمن أعواد

الثقاب». عبث بالدخان للحظة. «دوماً من الجيد أن أراك، لا تظلمني، لكن لا بد أن أمراً ما أتى بك إلى هنا».

« كان عليَّ أن أصحب سيدة مسنة لشراء الملفوف».

لوح دورسي للسَّاقي وطلب كأسين إضافيين من جعة الزنجبيل ونقل إلى عمه آخر ما حدث معه في الأصيل.

عبث العم داني بالسجائر. «بين السادس والثلاثين والسابع والثلاثين؟ تماما عند بتلر؟» ضحك للحظة. «قد يكون المبغى القديم».

«هل كان هناك مبغى؟»

قال لدورسي: «ليس بذلك الكثير، لم أكن يوماً هناك لنضع الأمور في نصابها. لكنك تقول إن هذا المتجر هو تماما مقابل المدرسة الثانوية القديمة في شارع بتلر؟»

قال دورسي إنه كذلك.

ضحك العم داني وقال: «الأولاد في المدرسة هم من أخبروني به. بعض من أولاد جيراني ذهبوا إلى المدرسة هناك، والأولاد يلتقطون كل شيء. مما أخبروني عنه كانوا في صف الجبر أو صف الطباعة على الآلة الكاتبة، ينظرون من النَّافذة نحو الشَّارع، ويرون رجلاً يرن جرس الباب. ليس الباب الأمامي بل باب قربه يفضي إلى الشقق في الطابق الثاني، هل تعرف ما أعنيه؟»

ارتشف دورسي من البيرة وأومأ لعمه كي يواصل.

قال العم داني: «بأي حال. لا أحد يفتح الباب لكن نافذة في الطابق الثاني تنفتح وامرأة تمد رأسها. مما أسمع لم تكن ترتدي حمالة الصدر في الطقس الجيد. عندما

تتعرف على الرجل ترسل مفتاح الباب في حبل، يفتح الرجل الباب ويدخل. ثم تسحب المرأة في النافذة الحبل والمفتاح ويخرجان إلى السباقات».

قال له دورسي: «لا أستطيع أن أتخيل أن كاثرين قادرة على العيش بتلك الطريقة، لم أرها منذ بضع سنوات لكن مع ذلك».

«في ذلك العمل مستوى الزبائن يحدد مستوى الموهبة». وضع العم داني سيجارته غير المشتعلة. «هناك رجال مسنون حزانى وفتيان هائجون ليس من الصعب إرضاءهم».

قال دورسي وهو يهز رأسه: «أنا فقط لا أفهم. أخبرني عن هؤلاء الناس، آل بريديك».

حان دور العم داني ليهز رأسه: «بعض العائلات، لا أعرف، الأولاد متوحشون. لا يمكنني القول إنهم الأهل، كان الرجل المسن يملك عملاً جيداً في الاسمنت، والأم كانت حسنة. كان الأولاد قصة أخرى. ربما هو المنزل الذي يعيشون فيه، كما لو أن الجدران تقول لهم أن يكونوا حمقى. جميع الفتيان، وكانوا كثر، بدؤوا في المدرسة الكاثوليكية، وفي الصف السّادس تم قذفهم نحو المدرسة الرسمية. والمدرسة الثانوية لم تفكر في الأمر حتى. لذا بعض المخدرات والشراب ومن ثم التخريب المتعمد. ومن ثم السطو عندما اكتشفوا أخيراً أنه عندما لا تدمر الممتلكات وبدلاً من ذلك تسحبها وتبيعها إلى شخص ما يمكنك بالفعل كسب بعض النقود».

«هل حدث شيء مؤخراً؟»

قال العم داني: «أنا واثق من هذا، لكني لم أسمع عنه. إذا كان واحد منهم يملك مطعماً لبيع الوجبات السريعة، هو يبيع أكثر من كل شطائر الحنطة وسلطات براعم الحبوب».

شكر دورسي عمه ونهض على قدميه متوجهاً نحو الباب.

نادى العم داني موقفاً إياه: «من الأفضل أن تنتظر قليلاً. إذا كان هذا الفتى من آل بريدك هو الشخص الذي في بالي أنتما الاثنان لديكما شخص مشترك تعرفانه».

التفت دورسي: «من يكون؟»

«القرد الكبير الذي تشاكلت معه منذ بضع سنوات، الشخص الذي يدعوه الجميع اوتلو؟ هو قريب من الأبناء، ألا تتذكره؟»

«أتذكر».

قال العم داني: «يجب عليك-آخر مرة أصبته في قدمه. إذا حظيت بالفرصة اسدِ لنا جميعاً معروفاً وأصبه في القدم الأخرى».

مع حلول الساعة التاسعة والربع كان المفتاح قد أنهى أربع رحلات من نافذة الطابق الثاني مرفقاً بسلك كهربائي أخضر ومحرراً من كاثرين لينسكي. كان دورسي واثقاً، على الرغم من الشَّيب في شعرها والارتخاء في ذقنها. بينما راقب كان هناك زوج مع أطفال في عربات، شاب يحمل الأكبر سناً، وشابة تطارد طفلاً يبلغ من العمر ثلاث سنوات. كل واحد قرع على الباب، النافذة كانت مرفوعة، والمفتاح تدلى. كل واحد دخل لبعض الوقت ومن ثم غادر لا يصحبه أي من الطفلين.

كان دورسي من جهة شارع بتلر، مسترخيا خلف عجلة قيادة سيارة البويك. كانت حركة المرور متقطعة في الأغلب، يقطعها مرور العربات المقطورة التي احتلت كل بوصة من الشَّارع، فيجفل دورسي كلما مرت واحدة به. أمضى جزء من الصباح أمام شاشة الحاسوب يتأكد من أن انتوني بريدك اشترى المبنى منذ سنتين بسعر بخس. كان المالك السابق صانع أحذية ومتجره في الطابق الأول. تساءل دورسي إذا عرف صانع الأحذية ما الذي كان يجري في الطابق الأعلى طوال تلك السنوات. تساءل أيضا إذا كانت الخدعة بالمفتاح مدرجة في العقد. الآن، في الجهة الأخرى من الشارع عندما منحته الشاحنات فرصة، شاهد شابا يغسل واجهة ما

كان الآن متجر بويلميكر لانشبوكس. من نقطته نظره تمكن دورسي من رؤية نضد طويل مع مقاعد تدور على محورها مجددة عدد من أوعية القهوة الملمعة جيدا والكبيرة وخط من الأكشاك عند الجدار القصي.

خلف العجلة دوَّن على عجل بعض التعليقات في دفتر، هذا ما فعله دوماً لأنه أدرك أنه في هذا العمل، التقرير الأخير هو الأهم. أرسل التقرير وأرفق الفاتورة، وتمنى أن يكون التقرير مقنعاً للزبون كي يدفع الفاتورة. وصفت ملاحظاته الأشخاص الذين تركوا أطفالهم. كانوا جميعاً من الطبقة العاملة، الزوجان يبدو أنهما عالقان في الحضيض. كان للرجال لحى خفيفة لمن يأمل بالنضج وارتدوا بناطيل جينز قديمة، قمصاناً عليها صورة بطريق يلعب الهوكي، وقبعات مطابقة. ارتدت النساء الزي نفسه، لكنه بطريقة ما منحهن مظهراً أنثوياً أكثر. المرأة العازبة اكتست بزي أبيض يحدد هويتها على أنها أي شيء من ممرضة إلى نادلة. ما أقنع دورسي أن على مهنة التمريض أن تجد لها ملابس جديدة وأكثر تخصصاً.

رمى الدفتر على المقعد المجاور له ودفع ظهره أعمق في التنجيد. لماذا يكلف نفسه عناء كتابة الملاحظات؟ ذكر نفسه أنه بعد آخر عمل مع السيدة لينسكي، كانت قد رفضت تقرير مكتوب نهائي، لكنها دفعت. لطالما كانت استثناء. وأنت اكتشفت أنها قد تكون في طريقها إلى الخرف. الحانوتي يسرق، فتاة المحاسبة تغش الزبائن لتوطد علاقتها مع المدير الذي تضاجعه الآن، وربما رؤوس الملفوف تتحدث إليها. لكن كاثرين لم تكن في أي مكان قرب نضد الدفع طوال فترة الصباح وبدلاً من ذلك تقوم بشيء ما في الطابق الثاني. غالبا أناس جبناء يقرعون على الباب، ترمي المفتاح ويدخلون ويعودون دون أطفالهم، لا شيء مخالف للقانون في ذلك، غريب للغاية، لكنه ليس مخالفاً للقانون.

ظل دورسي يراقب طوال ساعة أخرى تقريباً، إلى أن عاد واحد من الأزواج الشُّبان الذين كانوا هناك باكراً. تكرر الروتين مع المفتاح وخرجوا مع طفل وعربة أطفال. خرج دورسي من السَّيارة، سوى قميصه الرياضي ليغطي المسدس «الجلوك» الذي

حمله في غمد الحزام وعبر الشَّارع. مر بالزوج الشَّاب دون كلمة دخل إلى محل «لانش بوكس».

سأل دورسي الشَّاب خلف النضد: «أين الدرج الخلفي؟ توني وأوتلو قالا إن عليَّ استعمال الطريق الخلفي وعدم التجول بالمفتاح».

قال الشَّاب وهو يغمر فناجين القهوة في مغسلة من ماء أزرق: «ما من واحد منهما هنا. تريد أن تنتظر؟ يفترض بهما أن يعودا بعد قليل».

قال دورسي: «أعرف كل شيء عن ذلك، لكن من المفترض بي أن أنتظر».

راقب دورسي عينا الشاب تتحركان بسرعة. هيا يا ولد، استثمر.

قال الرجل: «ربما عليَّ الاتصال بهما على الهاتف الخلوي».

«هذا يناسبني، لكن يفترض بي أن ألقي بنظرة على الطابق الثاني قبل أن يعودا، هل تفهم؟»

تنهد الرجل: «هيا، عد من هذا الطريق. لكني مع ذلك سأتصل».

قاد دورسي خلف النضد ومروراً بأبواب البراد الزجاجية المحشو بشرائح لحم اللانشون نحو الغرفة الخلفية. كان هناك درج إلى اليسار، وهما يصعدان سأل دورسي الشاب إذا كان مستعداً لزحمة الغداء.

أجاب وهو يفتح الباب عند أعلى الدرج. دفعه ووقف جانباً: «ليس هناك الكثير، لكن ما يزال عليَّ أن أجهزه».

حشر دورسي نفسه ماراً به، وسمع الباب يغلق ويقفل خلفه. كان فيما كان سابقاً مطبخ شقة، ما من أدوات سوى مغسلة كبيرة مزينة ببقع الصدأ، مرفقة إلى الجدار القصي. من حوله ثلاث أكوام من صناديق ممهورة من الورق المقوى. نظر

دورسي إليها ووجد شاشات مسطحة، أفران ميكروويف، وعدداً من أجهزة الراديو من ماركة «بوس». ابتسم. لا يبدو سيئاً جداً السقوط من الشاحنة.

في الخارج، في رواق طويل يمتد على طول المبنى، سار دورسي يصغي إلى صوت موسيقى مسجلة وأصوات أطفال يغنون. مر بباب مغلق وشق طريقه إلى مدخل مفتوح عند مقدمة المبنى، عبر القاعة من الدرج الأمامي. في الداخل، كان اثنان من الفتية وفتاة بعمر الخامسة على الأكثر، فكّر دورسي، نصف نائمين على الأرض أمام شاشة تلفاز مسطحة. كانت قصة رسوم متحركة تعرض، زوج من الدببة يغنيان نصيحة لفتاة واسعة العينين. لم ينتبه أي من الأولاد عندما عبر دورسي الغرفة إلى الأسرة الثلاثة إزاء الحائط القصي، مقابل النوافذ. كان أحدها فارغاً، لكن الاثنان الآخران كان ينام عليهما أطفال، لا يزعجهم الغناء فيما يبدو. على الأرض، بين الأسرة، كان يوجد ميزان مطبخ موضوع على جانبه، تناثرت أكياس بلاستيكية من حوله. سمع بعض وقع أقدام خافت في الرواق، التفت ورأى كاثرين تدخل الغرفة.

قالت بصوت غاضب بعض الشَّيء لكن ذاهل أيضاً: «من أنت بحق الجحيم؟ لم أسمع أحداً يقرع الباب».

كانت ترتدي بنطال جينز وقميصاً أسود، وكان شعرها متلبداً على جانبي رأسها. ركز دورسي على العينين. نصف مغمضتين وعاليتين مثل طيارة ورقية.

أجاب دورسي: «وأنت لم ترسلي المفتاح إلى الأسفل. نسيت ذلك الجزء».

قالت: «هذا صحيح، المفتاح».

هزَّ دورسي رأسه والتفت نحو الأطفال أمام التلفاز. حمل اثنين منهم برفق من الكتف وحاول أن يوقظهما. كل ما حصل عليه بالمقابل كان تثاؤبين ضعيفين، التفت نحو كاثرين.

قال لها دورسي مثبتاً عينيه على وجهها: «لا يهم حقاً ما تفعلينه في هذه الأيام. لكن ما الذي أعطيته لهؤلاء الأولاد؟ وماذا تفعلين معهم؟»

بدت كاثرين مترددة لثانية وقالت: «بينادريل، فقط قليلاً يبقيهم هادئين».

تراجع دورسي نحو الأسرة: «الرضع أيضاً؟»

قالت: «أوه نعم، ينامون لساعات بتلك الطريقة».

فكر دورسي: يا يسوع، عناية نهارية من أجل آباء مخدرين.

سألها: «ما هو؟ زوج شاب بحاجة لأن يتقدموا، لذا يرميان الطفل فيما هم يحرزون الأهداف؟»

«البعض».

وأكثر من ذلك، أدرك دورسي، متذكراً الشابة التي ترتدي الأبيض. مسكينة عزباء وتعمل من أجل الأجر. لكن ليست كبيرة بما فيه الكفاية لتحصل على عناية مرخصة بالطفل. ما من عائلة، ما من أصدقاء. الاقتصاد السري للسلع المسروقة والمخدرات. فقط يضيف بعض العناية النهارية للزبائن. مقابل رسم ولا تفكر حتى بما قد يستوجبه.

ألقى دورسي بنظرة أخرى على أحد الأطفال الرضع وبدأ ينقب في جيبه بحثاً عن هاتفه.

قال لكاثرين: «لديك مشكلة هنا، هذا الطفل يزرق لونه».

بدأ يضرب رقم ٩١١ عندما دخل العامل في متجر «اللانشبوكس» من القاعة. نادى مشيراً إلى دورسي: «هنا، تماماً هنا. من الأفضل أن تبتعد عن ذلك الهاتف».

قال دورسي: «لماذا؟ من الواضح أنك لم تفعل».

على الرغم من السَّنوات المتخللة، تعرف دورسي إلى الرجل حال دخوله. يفوق دورسي طولاً بضع بوصات، لكن أكتافه هي التي روت الحكاية. يفوق دورسي عرضاً مرتين، مشى أوتلو ببعض التثاقل واكتشف دورسي أنه لم ينسَ كيف حدث له هذا. بل أسوأ، كان يحمل هراوة في يده.

سأل دورسي على أمل أن يتخلص من الرجل الضخم: «موديل هانك آرون؟ من الأفضل أن تضع الأمور في نصابها، لدينا ولد مريض بين أيدينا، مريض لا يتنفس جيداً. أنا أتصل بالإسعاف. أياً ما ترغب بفعله معي يمكنك أن تؤجله لاحقاً».

كشر أوتلو، ودفع إلى الخلف شعره الطويل الأسود بيده اليسرى، ثم جرَّ نفسه عبر الغرفة وأخذ أرجوحته الأولى. انحنى دورسي وعاد إلى الجدار متفاجئاً من أنه كان أكثر اهتماماً بحماية الخلوي من جسده. كانت الأرجوحة جامحة وفقد أوتلو توازنه للحظة، لكن فقط ذلك. بينما كان يستدرك نفسه مد دورسي يده نحو المسدس على وركه.

قال لأوتلو موجهاً السِّلاح نحو الأرض: «انتظر. سأطلق عليك الرصاص فقط لتكون وخزة، سأطلق عليك في القدم الأخرى. حسناً؟»

تردد أوتلو للحظة ثم ذهب إليه. مدَّ دورسي مرفقه وأطلق النار. نظر أسفل نحو أوتلو، تحقق من كاثرين والرجل من المطعم، قال لهما دورسي وهو يطلب الرقم في الهاتف الخلوي: «الآن أنا أجري اتصالاً، هل هذا يناسب الجميع؟»

سأل العم داني: «ليست القدم نفسها؟ أنت أصبته في القدم الأخرى؟»

كانا قد عادا إلى الطاولة وبيرة صفراء لكل منهما. قال له دورسي: «القدم الأخرى، تماماً كما طلبت».

سُمع مصادفةً

ريجينالد ماكنايت

ريجينالد ماكنايت هو مؤلف «لطف الضوء الذي يشع على تكساس»، «فتيان بيض»، «كسوف مصطفى»، «هو ينام وأنا أركب الحافلة». جوائزه الكثيرة بما فيها البين/ إشارة هيمنغواي الخاصة، جائزة بوكارت، وجائزة أو هنري، جائزة كينيون ريفيو لتفوق الأدب، جائزة وايتينغ رايتر، جائزة درو هينز الأدبية، وزمالة من «المنحة الوطنية للفنون».

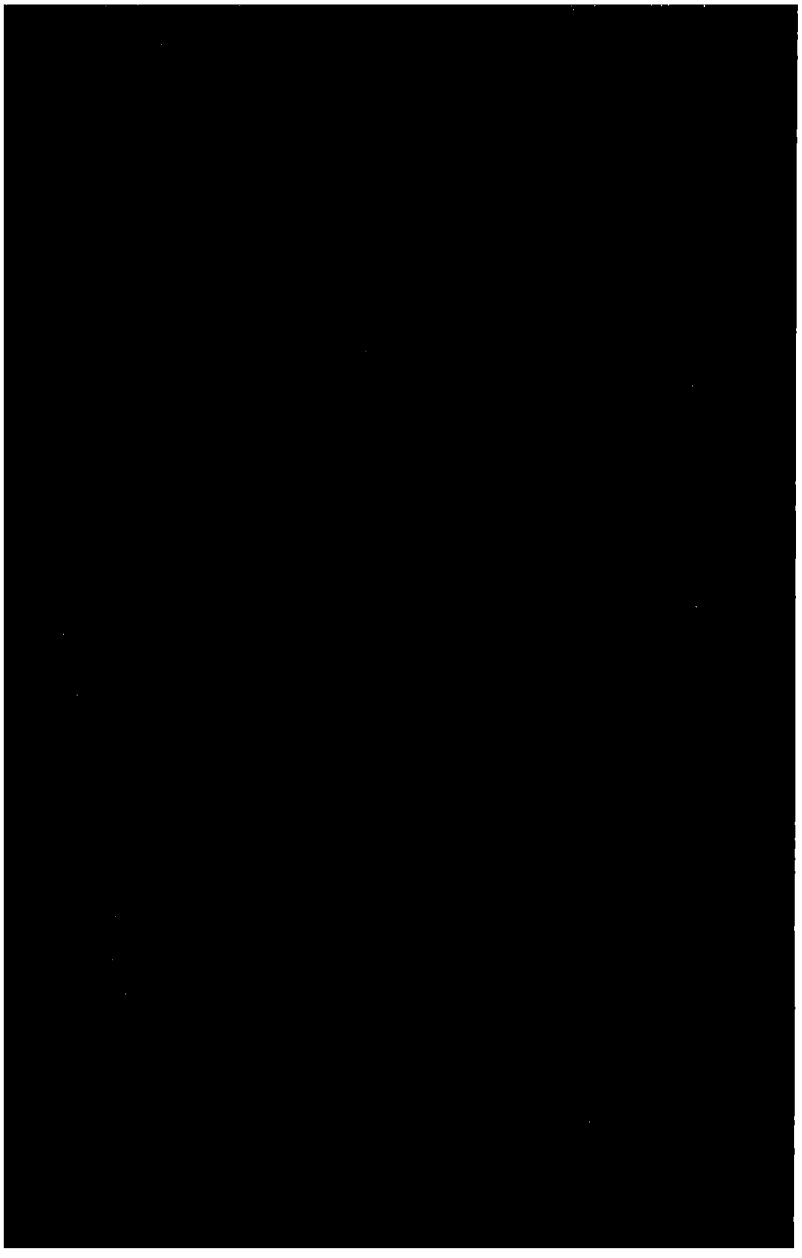

إليك حكاية هذه البلدة، يا ميرس: تعبر شارعاً واحداً-ميمنة الشَّارع -وتكون قد عبرت نحو عالم مختلف كلياً. هل ينبغي عليَّ أن أقول لك هذا؟ أنت تعلم، فأنت تملك عقاراً حيثما أتيح لوالدك الشراء. ما يدعى هومووود واحد وما يدعى بهومووود اثنان كوكبين منفصلين، والمسافة بينهما أشبه بالمسافة التي تفصل بين كوكبي الأرض وبلوتو.

أخبرتك ما قاله لي ذلك الفتى الذي يدعى «مات» خلال الأسبوع الأول من انتقالنا كولين والفتى وأنا، إلى بيتنا في لانغ-

نعم فعلت، يا رجل-

فعلت، ميرس. أنت أبداً-

حسن جداً، إذن هو يتقدم نحوي بينما أنا في الخارج أكنس الممشى ويقول: «مرحباً بك في الحي». ويقول إنه يدعى «مات»، وهو يسكن هناك في الجهة المقابلة من الشَّارع. مشيراً بمدمَّته.

كنت أحمل مكنسة. كان هو يمشِّط الأرض. كنس وتمشيط، سلوك جواري للغاية، صحيح؟

نعم! كان أبيض البشرة. بالتأكيد كان أبيض. ذلك-

ميرس، فقط أصغي إليَّ، حسناً؟ تابعني يا رجل، وسوف أخبرك بكل هذا الأمر عن الفتاة التي كانت تضرب وعما أظن أنه حدث في الطابق العلوي، وما علاقة هذا بإيجاري.

يا رجل، لم أتلكَّأ يوماً في حياتي عن دفع أجرة البيت. لقد تأخرت مرة أو اثنتين،

لكن...

إذن هذا الفتى المدعو مات يشير بمدمته وينظر نحوي شزراً كما لو أن حمض بطارية دخل في عينيه، ويبتسم كما لو أنه يتألم، ويهز كتفيه لي ويمضي...كيف عبر عنه؟

«وهكذا كنا نتساءل لماذا اخترتم جميعاً حي «بوينت بريز» بدلاً من الهومووود الراهن كمكان للاستقرار».

شيء مثل ذلك، أترى؟ ويعني بـ»نحن» من يعيشون في لانغ، أتفهم؟

استغرقني قليلاً من الوقت لأستوعب هذا. اعتقدت أولاً أنه كان يتحدث عن نفسه فقط وعن جماعته، لكن عندما بدأ بالتحدث عما قاله آل ديلجروسو، وآل ميلر، وهلم جرا، عرفت أنه يتحدث عن الجميع فرداً فرداً، والعائلات جميعاً، ما فكر جميع أهل القرية-بمن فيهم البلهاء فيما يبدو-بشأن انتقالنا للسكن في جوارهم. بدلاً من المكان المناسب.

يا رجل أصغِ إلي. أنا لست من هنا. ترعرعت في قواعد عسكرية. اندمجنا من قبل أن أولد: عامي ٤٧، ٤٨. ما الذي أعرفه عن العيش في ميمنة الشَّارع؟

في الواقع، لا. قال إن ٨٠٪ منهم كانوا سعداء بالعيش معنا هناك. أعني، نعم، لقد أفزعني أنهم حقاً اتفقوا جميعاً على رأي واحد، وعملياً صوتوا على الأمر، لكن نعم، هم وافقوا على انتقالنا إلى الحي، أخمن أن في وسعك أن تقول ذلك.

أين؟ دانسينغ جوتس.

* * *

دانسينغ جوتس؟ المحلة في إلسورث، قرب-

نعم، تلك هي. لا أعرف. القهوة هي القهوة، صحيح؟

لا، لم يكن ذلك. لم تكن لانغ آفنيو عوناً على الزواج، لكن لم يكن ذلك هو السبب. أخبرتك عن السَّبب.

نعم.

ولمعلوماتك، لم أنتقل إلى حي «هوموود» الحالي لأني تعلمت أن أتوافق مع رجال مثل «مات». أخذت شقتك لأنها شاسعة وجميلة: كثير من الخشب، يغمرها الضوء، سقوف مرتفعة. إنها لطيفة وهادئة، فيما عدا، كما تعلم.. لكن سوف أصل إلى ذلك خلال دقيقة من الوقت.

ثلاث غرف نوم. ثلاث، مقابل سبعمئة وخمسين، وخدمات عامة مرنة. أنا أبعد حوالي ست كتل سكنية عن المنزل في لانغ لكني أشعر بأني بعيد بما يكفي عن كولين وبريان كي لا أتسبب بالأذى طوال الوقت.

أعلم، أعلم، أنت لا تستمر بمراقبة خليلات قديمات دون دفع الثَّمن. أعرف ما فعلته. نصف البرك التي ذرفتها على سجادتك الجميلة والخشب كانت بسبب الشعور بالعار والاحراج. كان النصف الآخر لأني افتقدت بريان كثيراً جداً.

نعم، نعم، أعلم أنكم أيها الرجال فعلتم أيضاً. أنت تعلم أن الأمر معقد، نعم. لهذا السَّبب أخمن أني بالكاد لاحظت سكان الطَّابق الأعلى بادئ ذي بدء. إنه الأمر المألوف عندما يسكن زوج في الطَّابق الذي يعلو شقتك. تسمع صوت نوابض السَّرير، تسمعه يرفع صوته أو يلكم حائطاً، أحياناً صوت الموسيقى مرتفع بعض الشيء، لكنها تبقيه منخفضاً. تسمعهم يستحمون ويغتسلون ويعلقون الصُّور،

يكومون الأطباق. سرعان ما تتعرف الفرق بين وقع قدميه ووقع قدميها. الجميع متشابهون إلى حد كبير.

لا لا لا، ليس هذا ما أردت قوله. الأمر هو، لم يكونا يحدثان قدراً كبيراً من الجلبة. تعودت على السَّكن في طابق يقع تحت شقة يقيم فيها زوج من مغنيي الأوبرا في كولورادو سبرينغس. ذلك كان أكثر سوءاً.

أنا جاد. لا، لقد أثارا قدراً مقبولاً من الضَّجة، معظم الوقت، وعندما لم يكن بريان معي، نوعاً ما خففت من شعوري بالوحشة. علاوة على ذلك، أمتلك مرشح الهواء الكبير هذا في غرفة نومي.. بالتأكيد، لقد رأيته. بأي حال، أنا عادة أشغله طوال الليل، ويطمس الكون برمته.

لا، أنا لم أفكر إلا بالكاد بتمارا وذلك الفتى يوماً، لكن مثل تلك الليلة؟ كان بريان معي؟ وأمضينا عطلة نهاية أسبوع ظريفة للغاية. شاهدنا فيلم «الأسد الملك « للمرة المليون. أمضى اليوم بطوله مرتدياً حلة الأسد المضحكة تلك، يهدر على الناس في المركز التجاري، في شارع الستريب، متنزه فريك بارك. لكن بأية حال، انتهت عطلة نهاية الأسبوع تقريباً، لذا بالتأكيد أنا مكتئب. المرشح يعمل، لأني لا أرغب سماعهما يتضاجعان، لا أريد أن أسمع صفارات الإنذار، لا شيء. بريان في غرفته نائم منذ وقت طويل، وأنا ذهبت إلى النوم. إنها حوالي السَّاعة الثانية صباحاً.

يقرع بريان على بابي. بالكاد سمعته لكني مستيقظ. يقول مشيراً إلى السَّقف: «أبي، أسمع ضجة صاخبة». أطفئ المرشح ونصغي. اسمع خبطاً على الدَّرج. أعيد بريان إلى غرفته، أخرج إلى الرواق، وأراهما عند أسفل الدرج عند المدخل. تمارا جالسة على الدرجة الأخيرة، وذراعاها فوق رأسها، وخليلها واقف فوقها يحاول ضربها لكنه صبور مثل ملاكم. هو يريد ضرب وجهها وليس ذراعيها. أول مرة رأيته فعلياً. ينتعل جزمة بنية من ماركة تيمبرلاند، البنطال الفضفاض، سترة بغطاء صوفي للرأس، هو يضرب امرأة. أمر محبط للغاية.

قدماه جنباً إلى جنب، وجفنها السفلي متورم وأنفها ينزف.

أقول: «تمارا، هل أنت على ما يرام؟»

والأحمق يلتفت ويقول: «ماذا تريد، عاهرة؟»

لكني أتجاهله وأكرر ما قلت.

تقول تمارا: «هل يمكنك الاتصال بالشرطة؟»

قلت: «لقد فعلت سلفاً».

وهذا لم يكن صحيحاً، لكني تصوَّرت أن هذا سوف يهدئ الأحمق، وهذا ما حصل. أغلق الباب بعنف، وبحلول ذلك الوقت، عند أسفل الدرج وقفت تمارا على قدميها. أقفلت الباب الرئيسي ورافقتها إلى بابها. أسألها إذا كانت بحاجة إلى أي شيء. تقول لا، لكني أقف هناك إلى حين، لست واثقاً إذا كان عليَّ أن أصحبها إلى بيتي من أجل الإسعافات الأولية أو الثلج أو أي يكن.

هل لاحظت يوماً كم هي جميلة؟ لأني حقاً لم أفعل حتى ذلك الحين. أعني، لقد سبق لي أن رأيتها مرات عديدة، عن قرب إلى حدٍّ ما، غالباً عند صندوق البريد، أو أصادفها على الدَّرج. لكني لم أقف يوماً قريباً جداً منها ووجهاً لوجه. تفوح منها رائحة غاردينيا ونوع من توابل حلوة. أحب تلك العينين اللوزيتين، الأهداب الطويلة، بشرتها. إنها في مثل نعومة ولون خشب الجوز. أعني، لا بد أن تكون أعمى كي لا تلاحظ الجسد الذي له هيئة ساعة رملية، لكن حتى مع العين المتورمة، الوجه مثل الحب، مثل الفن.

نعم، حسناً، إنه عادي، ليس جميلاً.

نعم، في الواقع اتصلت، عندما عدت إلى بيتي. ظهرا سريعاً إلى حدٍّ ما وأنا لست

واثقاً من أن طفلي كان ليعود إلى النوم على الإطلاق لولا أني استلقيت معه حيناً من الوقت، وكلانا شاهدنا الأضواء الزرقاء تومض عبر الجدران والسَّقف.

* * *

لم أتمكَّن من إخبارك. نمنا كلانا حتى السَّاعة التاسعة تقريباً.

حسن جداً، إذن بعد أن نام ابني، وهناك تمارا وتلك المرأة ذات البشرة الداكنة الضخمة عند سفرة الدرج أمام بابها-بابها الثاني. كما تعلم، ذلك الذي-

نعم. كانتا تحاولان إصلاحه، أتفهم؟

لا، لم تكونا تغيران القفل اللعين، ميرس. الأمر لم ينجح فقط، حسناً؟

هل يمكنك أن تلقي باللائمة على هؤلاء الناس؟ كيف لها أن تعلم أنك لست واحداً من المالكين الذين يشوهون سمعتك، يعطلونك، يغدرون بك، يتخلصون منك؟ لقد اعتدت على أن تسير الأشياء بطريقة معينة في عالمك ولا تستاء.

بالضبط. دعني أواصل. هذا لا علاقة له بك.

أعرف أني أدين لك بالمال، لكن دعني أقول لك ما حدث، لا بأس؟ هناك بعض أمور تفوق نقودك أهمية.

أعلم، أعلم، لكن اسمع.

كانتا فعلياً تتسليان. بدتا لي دائختان، قهقهة ممزوجة بالخيبة.

سألتهما: «علام تنويان؟»

وتمارا تبتسم لي كما لو أني يسوع المخلص وتقول: «هل يمكنك إصلاحه، ريجي؟»

وجفلت قليلاً لكني لم أتوقف عند قولها ريجي وحسبي أن أجبتها: «هل اقتحم؟»

قالت: «الليلة الماضية؟ لا، أنا فتحت له».

تقول صديقتها: «حتى أنك لست بحاجة إلى بطاقة ائتمان لتفتح هذا الباب».

وقالت تمارا: «قد تخبط عليه وسوف ينفتح مثل عاهرة».

قالت صديقتها: «يا فتاة أنت سوف تذهبين إلى الجحيم من أجل تلك الكلمة!»

قلت لهما إني سأعود سريعاً وأجلب صندوق العدة، وهذا ما فعلته. كانت المشكلة الوحيدة أن الأمر كان فالتاً، جميع الألواح والاشياء، واحتاج إلى القليل من زيت الآلات. كان محكماً ولم يعد ممكناً فتحه إلا بالمفتاح. قلت لتمارا أن تشتري قفلاً لتركبه من الداخل، وسوف أركبه لها إذا احتاجوا إليَّ أيضاً.

لا تذكر ذلك يا رجل. أوه نعم، نسيت أن أخبرك أني كنت أرتدي صندلاً ذلك اليوم. وبينما كانت المرأتان تراقبان عملي قالت تمارا: «دي، أليس لديه أقدام جميلة بالنسبة لرجل؟»

«أصبتِ في القول، تام. هم كلاب جميلة. بالنسبة لرجل؟ اللعنة، كنت أتعامل معه بصدق».

«ريجي، كيف حصلت على تينك القدمين؟»

أعلم، ما كان يفترض بي أن أقول، خزانة أمتعة شخصية، مشرحة، أمي وأبي، مقبرة هوموود؟

صحيح، صحيح، صحيح: حسناً، أنت تعلم كيف ترى أقداماً تقذف فوق خطوط الهاتف وعلى جوانب الطريق؟ نعم، جميعهم فوق المكان اللعين. خذها إلى البيت

اقذفها في الغسالة، سريعاً! قدم سيدة، ماهوغاني، جيدتان كما لو أنهما جديدتين!

بأية حال، مر أسبوعان هادئان، ولم أسمع صوت رواحها أو غدوها. بعض الموسيقى، التلفاز مطفأ أو صوته منخفض بعد السَّاعة الحادية عشرة ليلاً، وفقاً لعقد الإيجار الذي أبرمته. تعال فكر في الأمر، كانت تعيش كما كانت قبل أن يبدأ الرجل بالقدوم إلى حد بعيد. لم أفكر حتى بشأن كم كانت هادئة في البداية. وتصورت أنها كانت تنتمي إلى عائلة محترمة. أعني، ارتدت ثياباً أنيقة للذهاب إلى عملها، نادراً ما كانت ترتدي ملابس تكشف عن صدرها، لكن كان أكثر من ذلك. كان هناك شيئاً... لا أعرف، بدائياً فيها. نعم، تلك هي الكلمة. لم أفكر أنها «انتمت» إلى هنا أكثر مني. من طبقة متوسطة للغاية، كما أفترض.

هل فعلت؟ حسناً، هذا يؤكد فكرتي. الجميع من هناك قد يعلم اسمه، أو إلى أي درجة هو مشهور، ويعلمون أنه ألف كثيراً من الكتب عن هوموود، لكن قلة قرأوها حقاً. مثير للاهتمام.

توقفت عن استعمال مروحتي. كنت، كما تعلم، في حالة تأهب قلقاً عليها. أردت أن أسمع كل صوت. لهذا سمعت كل هذه الأمور المريعة الأسبوع الماضي.

لا، لم يكن هناك حمداً لله.

لا، مرتين في الشَّهر في عطلة نهاية الأسبوع.

أخبرني عنه.

كان الأمر برمته مخيفاً للغاية، لأنه لم يكن هناك أصوات تسمع. ما من جدال أو صراخ. لم أسمع موسيقى ولا صوت توباك، أو سنوب، بيجي، فقط خبط طبلاني قاس. الجدران. تدحرجت نعال وكعوب مثل رعد عبر سقفي. في الواقع، هذا ما أيقظني. ظننت أنها عاصفة. تمددت هناك في الظلمة، ميرس، وأسمع ركباً

ومرافق تتمزق. يمكنك سماع التصدعات والضربات الشبحية ترتد نحو فترات من صمت متقطع. تمكنت من سماع صوت أثاث يجر على الأرضية. شيء زجاجي تشظى وقطع منه خشخشت ووقعت وانزلقت عبر الخشب. جدران قرقعت، اهتز الهيكل برمته ومرت فترة طويلة قبل أن التقط الهاتف.

حسناً، لا أعرف بالضَّبط، لكني ممدد هناك والهاتف يبعد عن رأسي مسافة قدم واحدة، وأنا بالفعل تريثت حتى فكرت في أنه يقتلها هناك في الأعلى.

التقطتُ الهاتف والضَّجة هدأت، كما لو أن أحدهم رمى مفرشاً فوقها. لم أتمكن من سماع شيء سوى صوت خبط في أذني وصدغي. دمي هزَّ جسدي برمته. لم أضغط أي زر، لا تسعة أو واحد، والجهاز بدأ يصدر صوتا كالثغاء كي يتم إقفاله، وبدا كما لو أن الصوت كان عالياً بما فيه الكفاية ليسمع في الطابق الأعلى، لذا أغلقت السَّماعة، جلست وأصغيت. وهكذا، عندما هدأ قلبي تمكَّنت من سماع صوت عادي إلى حد ما. محركات سيارات، عجلات، مكبرات صوت، زقزقات. سمعت فتيان ثملين يصدرون صوتاً يشبه العقعقة لدى مرورهم بنافذتي. قال أحدهما وهو يمر: «نعم، نعم، نعم، وهو كما لو أنه لا يعرف حتى متى يتوقف ويصغي، لذا كما لو أني منهوك القوى في شبكته...» وعندما يتلاشى صوت الفتى، أسمع بدلاً عنه هذه التأوهات المنخفضة الثابتة، وأعني أنها ثابتة، لكني لا أستطيع أن أعرف فيما إذا كانت صادرة عن رجل أو عن امرأة. لا يمكنني أن أعرف أي شيء عنها، لكنها تستمر لوقت طويل جداً، وأنا مثبت هناك على سريري، وسرعان ما أقول لنفسي إنهما يمارسان الجنس، وليس عليَّ أن أتدخل في شؤون غيري، وامتلكت الحق في أن أشعر بالغثيان والغضب ولي الحق في بعض السكينة والهدوء والنوم أدير المرشح. نمت.

ربما لكنت نمت حتى الظهر أو أكثر، لو لم أشم رائحة غاز النشادر التي أيقظتني حوالي السَّاعة السَّابعة. ليس سراً في أنهم يستعملون تلك المادة لأملاح الشَّم. نهضت وارتديت سروالي، اجتزت الرواق الذي يفضي من غرفة النَّوم إلى المطبخ.

تراجعت نحو النافذة الخلفية ونظرت عبر القضبان والزجاج القذر وأسفل نحو سلم النجاة. دمعت عيناي بسبب غاز النشادر ومسحتهما برسغي. غشاوة مقرفة مخرت في حلقي. لم تمسس قدماي الأرض تماماً.

في الأسفل عند حاوية القمامة الزرقاء الكبيرة، رأيت هذا الفتى الأنيق ذا البشرة السوداء البالغ من العمر سبعة عشر عاما تقريباً: ممطر، سترة بغطاء للرأس، تيمبرلاندس، الزي الرسمي، أتفهم؟

ربما كان يقوم بعملية النقل وربما لا، لكن من ذا الذي سوف يسأل؟ تصنع البذلة القنبلة الذرية. لكن سوى المظهر لم يكن فيه ما ينذر بالشر فعلياً -ما من ظلال أو طلعة متجهمة. كل ما فعله هو أنه كان يومئ للسيارات التي مرت بحاوية القمامة كما لو أنه عمدة البلدة، وعندما مر الناس بقمامتهم، ابتسم، أومأ، وتفوه ببضع كلمات حتى أنه انحنى قليلاً مشيراً بإبهامه، ليس إلى مكان محدد. عاد كل شخص إلى بيته يحمل قمامته. ما من ردود وقحة، ما من حرارة، وما من أسئلة. لم أكن متفاجئاً ولو قليلاً، ميرس، على الرغم من أنه كان يوم القمامة.

وليس في وسعي القول إني كنت متفاجئاً بأول الرجال الثلاثة يحملون الأكياس الورقية السوداء وينزلون سلم النجاة. أنا أعرف سلفاً لأني سبق أن شاهدت أفلاماً وقرأت كتباً. يقول غاز النشادر لك أمراً، المماطر تنبيك بالآخر، الأمر الوحيد اللاحق هو أكياس القمامة السَّوداء. لكني لا أقصد أن أبدو غير مبالياً بشأنها. لم أكن كذلك ولو قليلاً. كلما خطا الرجل الأول خطوة على الدَّرج، ابتعدت خطوة عن النافذة. أدركت أن الصوت الذي سمعته في الهزيع الأخير من الليل، لم يكن صوت ممارسة الجنس على الإطلاق، وأخمن أني عرفت ذلك حتى حينئذٍ، قبل أن أشغل مرشح الهواء. كان صوت شخص يموت، شخص يعمل بمنشار على لحم وعظام.

آها، مستنداً طوال الطريق، إلى أن لاقت مؤخرتي موقد الزيتون الصَّغير والثلاجة الصفراء كهرمانية اللون. التفت ونظرت إليهم-معارف مألوفين لي ونظيفين. أمسكت

مقبض الثلاجة، لكني لم أفتحها. نظرت إلى سطح الموقد، إلى إبريق الشَّاي، غلاية القهوة، وآلة تحميص الخبز، ولعدة ثواني لم أتمكن من تذكر أسماءهم والغرض منهم. التفت في الوقت المناسب، فرأيت الكيس الثاني يشق طريقه نحو متجر الجزارة بشكل لا لبس فيه على سلم النجاة. شعرت بطعم غلفاني في قفا لساني. كما تعلم، كما عندما تكون صغيراً وأحمق بما فيه الكفاية لتلعق أقطاب بطارية ٩ فولط. كان نوعاً من رعب مشحون بإفراط تمكنت من تذوقه. جسدي يتفصد عرقاً دفعة واحدة-من كل واحدة من مسامه. أنا حار، وأرتعش. زحفت عائداً إلى النافذة عندما شق الكيس الثالث طريقه إلى الأسفل. أمسك الفتى بالغطاء ورمى الرجل الكيس فيه والفتى أغلق الغطاء. وقفوا جميعهم قرب حاوية القمامة ودخنوا إلى أن جاءت الشَّاحنة، لكني لا أستطيع تذكر فيما إذا مشوا أو ركبوا سيارة أو حلقوا بعيداً.

لا، ميرس. لم أتصل بالشرطة.

حسناً الآن، انظر، هذا ما اتصلت لأخبرك به. أنا لست متفاجئاً ولو قليلاً من أنها سددت إيجارها لأنها جاءت إلى بيتي منذ يومين.

نعم، تمارا.

بالتأكيد كنت مندهشاً يا رجل، أتمزح؟ أمضيت أياماً أتحسس شبحها في فمي. بعد الاستحمام، أجلس على حافة الحوض وأحدِّق بقدمي.

نعم، قدمي.

تحدث عن عدم تناول الطعام. عن القلق والصَّمت والخواء. اعتقدت أن الطلاق كان... اعتقدت أن لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من تلك الأيام، عندما انتقلت إلى بيتك وتناولت بيوت العنكبوت وتبولت دماً، وبكيت بولاً، ونبحت مثل كلب صيد كل ليلة لم يمضها بريان تحت سقفي.

من ثم ذات يوم وإذ بها واقفة إلى بابي، جميلة مثل راحة ملأى بأزهار الشَّاي وتطلب مني الدُّخول. أدخلتها. تقول إنها كانت مسافرة فترة من الزمن، وعادت إلى البلدة فقط لتجلب بعض الأشياء. قالت لي إن خليلها حاول الاقتحام منذ بضعة أيام، وكان عليها أن تغادر لتجد بيتاً جديداً. قالت إنه مجنون، ويتعاطى المخدرات، وإنه قاتل، ولا يتورَّع عن فعل شيء. اهتزت وبكت، تهدج صوتها بإتقان. طلبت مني النقود لكي تستقل الحافلة وتخرج من البلدة ولتحجز غرفة في فندق، إلى أن يصبح بيتها الجديد جاهزاً. قالت إنها سترد لي النقود بعد أسبوع أو أسبوعين.

بالتَّأكيد لم أصدّقها.

بالتّأكيد أعطيتها النقود.

ثلاثمئة، يا رجل.

لهذا السَّبب اتَّصلت بكَ، يا رجل.

انتهى

مكتبة
t.me/t_pdf

t.me/t_pdf

حبكات بوليسية...جرائم غريبة...شخصيات ليست عادية...كلها تجري في مدينة جميلة مليئة بالنوادي الليلية والبارات والمحلات التجارية والاسواق ..ومحلات الموضة..

النوار هو الأسود باللغة الفرنسية، وقصص النوار هي التي تبحث في الجانب المظلم من النفس البشرية، ومنها الجريمة، واختلاف قصص النوار عن قصص أو روايات الجريمة الكلاسيكية هي أدبيتها، فهي أرفع بكثير من قصص الجريمة العادية التي ولدت من أكشاك الجرائد، فالأخيرة تعتقد أن شخصاً ما مجرماً يخل بالنظام الاجتماعي، يقابله شخص ذكي يصل عبر التحقيق إلى كشف المجرم وعودة النظام والسلم إلى المجتمع، بينما قصص النوار تعتقد أن الخلل في المجتمع، وتعتمد على التحليل النفسي والانثربولوجي، وهو عمل يكتنفه الغموض والخفاء والترقب. وكتب هذا النوع كبار الكتاب منهم دستيوفسكي قبل ظهوره كجنس أدبي في سلسلة نوار في باريس. وقد دأبت دار النشر الأميركية أكاشيك على طبع قصص من جميع العواصم والمدن تحت سلسلة نوار ...ومنها بتسبرغ نوار

ISBN 978-1-7732249-4-7
9 781773 224947
ALCA BOOKS

t.me/t_pdf لكـــا

يليه بغداد نوار، بيروت نوار، ومراكش نوار..